

★ ★ من أكثر الكتب مبيعاً في الوطن العربي ★ ★



أرض زيكولا

ـ عمرو عبد الحميد



أرض زيلو

الكتاب: أرض زيكولا
المؤلف: عمرو عبد الحميد
تدقيق لغوي وتجهيز فني: سارة صلاح
رقم الإيداع: 2010/19834
I.S.B.N: 978-977-6382-39-8

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
اللجنة الفنية: د. إيمان الدواхи / د. أحمد إبراهيم إسماعيل
د. أحمد السعيد مراد / أ.كمال اليماني
مدير التوزيع: عمر عباس / 01150636428
لراسلة الدار: Email:P.bookjuice@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة ©
عصير الكتب للنشر والتوزيع
يعرض صاحبه للمساءلة القانونية



للنشر والتوزيع

أرض زيكولا

رواية

عمرو عبد الحميد



للتشرُّف والتوزيع

(١)

يقولون الحب أعمى.. وهو يقول أصابني العمى حين أحبيب.. ولكن ماذا يفعل..
ها هو قد أحب وحدث ما حدث.. وها هو يجلس كل يوم في حجرته ليكتب مجدداً:
"أنا خالد حسني.. ثمانية وعشرون عاماً.. خريج كلية تجارة القاهرة منذ ستة
أعوام.. بلدي يُسمى "الهو فريك" تابع لمحافظة الدقهلية.. واليوم رُفض زواجي
بحبيبي للمرة الثامنة.. ولنفس السبب .."

ثم نظر إلى الحائط.. وقام بتعليق الورقة بجوار سبعة ورقات أخرىات، بدت أنها
علقت في أوقات سابقة..

الورقة الأولى كتبت بها اسمه وسنّه وبلده وبها: "رُفض زواجي بحبيبي اليوم.."
وبجوارها ورقة ثانية بها: "رُفضت للمرة الثانية.." والورقة الثالثة بها رفضه للمرة
الثالثة.. وهكذا حتى الورقة السابعة..

* * *

بعدها أنسد ظهره للخلف ونظر للأعلى، وعادت به ذكرياته إلى ما قبل ستة أعوام
مضت حين كان يدرس بالسنة الأخيرة بالجامعة.. وشاءت الأقدار أن يتعرف على
(مني) ابنة بلدته، صدفة، في طريقهما من البلدة إلى جامعته بالقاهرة.. وزادت
فرحته حين علم أنها تدرس بنفس الكلية في عامها الأول بالجامعة.. ومن يومها وقد
تععدد صدف لقاءاتهما كثيراً، سواء بقصد أو دون قصد..

حتى أفاق من ذكرياته وزفر زفراة قوية حين نظر إلى ورقة كبيرة علّقها على الحائط أسفل الثماني ورقات كتب عليها: "رفضت لنفس السبب.. والد مني المجنون".

* * *

كان خالد إن سمع كلمة مجنون دانما يتذكر والد مم.. ولا أعتقد أنه خالد فقط بل جميع أهل البلدة.. ولكنه أكثر من عرف جنونه؛ فمنذ أن أنهى دراسته وعزم على أن يتقدم للزواج من مم حتى فوجئ به - في أول زيارة لخطبتهما- ينظر إليه بغرابة ويسأله:

- أنت عايز تتجوز مم؟!

- أيةوة

فمسأله مجددًا:

- وانت عملت إيه في حياتك؟!

فازداد وجه خالد أحمراراً، واضطرب كأنه لم يتوقع سؤاله.. حتى رد:

- عملت إيه في حياتي؟!.. الحقيقة، أنا خريج كلية تجارة جامعة القاهرة.. وحضرتك عارف إن والدي توفاهما الله وأنا صغير وعايش مع جدي.. ومعفي من جيش..
وحالياً بدور عن وظيفة مناسبة..

فقطاطعه :

- وتفرق إيه عن غيرك عشان أجوزك بنتي؟!!..

ثم أنهى المقابلة بالرفض..

* * *

اعتقد خالد وقتها أن سبب رفضه للمرة الأولى أنه لم يجد الوظيفة المناسبة، ولكنه تأكّد أن السبب ربما يكون غير ذلك تماماً حين وجد عملاً وتوجه لخطبة مني مجدداً.. حتى قوبل بالرفض للمرة الثانية ونفس سؤال الأب.. ماذا فعلت في حياتك.. وفيما تختلف عن غيرك.. هذا السؤال الذي لم يجد له إجابة مستوفاة حتى المرة الثامنة لطلبه الزواج، ولم يراع في كل مرة حب خالد لابنته أو حب ابنته له.. حتى فاض به الكيل في تلك المرة وصاح به:

- أنا معملتش حاجة في حياتي.. أعمل إيه يعني؟!!.. عارف إنك حاريت في 73.. شايف إن ده سبب يخليك تذلّنا؟!! طب انت عايز لبنتك بطل.. قولي أبيقى بطل ازاي.. أروح أحارب في العراق عشان تنبسط؟!!.. ثم نظر إليه، وظهر الغضب في عينيه:

- هتجوز مني يعني هتجوزها.. غصب عنك هتجوزها.

البلدة كلّها تعرف غرابة أطوار هذا الرجل.. ي يريد أن يزوج ابنته الوحيدة لشخص فريد من نوعه.. أي فريد هذا؟.. لا أحد يعلم.. الكل يعلم أن مصير ابنته العنوسه لا غير.. طالما أبوها ذلك الرجل.. ومع هذا لم يطرق الاستسلام قلب خالد، ولم يعد بياله سوى هذا الشيء الذي يجعله فريداً من نوعه، ويجعله يستحق مني كما يريد أبوها.. لكن ما هو؟!!.. لا يعلم، فلم يجد سوى أن يتوجه بالدعاء إلى الله أن يأخذ أباها..

* * *

رغم أن خالداً كان يتسنم بخفة الظل والروح المبهجة، إلا أن حبه لمفي ورفض أبيها الدائم له، جعل الحزن وشاحًا دائمًا على وجهه.. حتى لاحظ جده - والذي كان يقترب من عامه الثمانين، وكان يعيشان سوياً منذ وفاة والدي خالد - حزنه الشديد بعد رفضه تلك المرة، واقترب منه وسأله:

- انت لسه زعلان؟.. انت المفروض خلاص اتعودت..

رَدَّ خَالِدٌ:

- مش متخييل إني أشوفها لحد غيري.. ومش عارف أبوها عايز إيه.. مش عارف إن زمن المعجزات انتهى..

- وانت هتقعد جنبي كده حاطط إيدك على خدّك؟!

- طب هعمل إيه؟

ضحك الجد مداعبًا له :

- لا.. انت أحستلك تدفن نفسك في سرداد..

فلمعت عينا خالد.. وكأنه تذكر شيئاً ما:

- السرداد..

وأكمل:

- جدي.. انت فاكر لما كنت صغير، وكنت لما أعيط تحكيلي عن قصة السرداد الموجود تحت بلدنا.. وإنك نزلته من أكثر من خمسين سنة؟

رَدَّ جَدَهْ مُبِتَسِمًا:

- أيوة طبعاً فاكر لما كنت بتعيط.. تحب أفكراك بأيامك..

ضحك خالد :

- لا.. تحكيلي عن السرداد.. ونزلولكم له..

فصمت جده متذكرةً :

- ياه.. دي أيام فاتت من زمن.. كنا أربع شبان بنحب الشقاوة.. وسمعنا كلام كتير عن كنز موجود في سردار بيبعدي تحت بلدنا.. وإن السردار ده زمان كان مخزن كبير للأغنية وقت أي غزو..

- الكل كان عارف إن السرداد موجود فعلاً.. بس محدث جرب ينزله لأنه مسكون بالعفاريت، وإن اللي هينزله مش هيخرج منه.. بس احنا رمينا الكلام ده ورا ضهرنا.. وقلنا لازم ننزل..

كنا عارفين إن باب السرداد موجود في بيت مهجور في البلد.. وإن هناك صخرة كبيرة موجودة على الباب ده.. وفي ليلة توكلنا على الله.. ورحنا للبيت ده في السر، وقدرنا نحرّك الصخرة ويدأنا ننزل واحد ورا الثاني.. ومع كل واحد فينا لمبة جاز.. وبعد ما نزلنا سلم طویل لقيينا نفسنا في نفق.. ومشينا كام خطوة في النفق ده لحد ما بقينا مش قادرين ناخذ نفَسُنا.. وفجأة انطفت لمبات الجاز كلها في وقت واحد.. وصرخ واحد فينا: "عفريت.." .. وبعدها كل واحد خد ديله في سنانه.. ورجعنا جري على برة.. ورُكِبْنا بتختبط في بعضها.. ومن وقتها ومحدث فكر إنه ينزل هناك.

فضحلك خالد :

- بس هتفضل ذكرى حلوة.. كفاية إنكم مخفتوش تنزلوا.. حتى لو أخذتوا ديلكم في سنانكم.. فعقد جده حاجبيه مازحاً:

- متقولش لحد حكاية ديلنا دي..

* * *

بعدها عاد خالد إلى حجرته.. وحاول أن ينام، ولكنه لم يغمض له جفن.. يفكـر كثيـراً فيما أخبره به جـده.. هو يعلم أن ما سمعـه يـبدو أسطـورة.. ولكن السـرـداد موجود بالـفعـل.. وجـده لا يـكـذـبـ قـطـ.. ثم نـظـرـ فـجـأـةـ إلى الورقة المـكتـوبـ بها سـبـبـ رـفـضـ والـدـ مـنـيـ.. أنه يـرـيدـ شـخـصـاـ فـرـيـداـ.. شـخـصـاـ يـرـضـيـ جـنـونـهـ.. وـحـدـثـ نـفـسـهـ.. أنه لن يتـزـوجـ غـيرـ مـنـيـ وإـلاـ فـلنـ يـتـزـوجـ.. ثم عـلـاـ صـوـتـهـ:

- فيها إيه لو نزلـتـ السـرـدادـ.. إـفـرـضـ كانـ فيهـ كـنـزـ مـوـجـودـ فـعـلـاـ..

ثم صـمـتـ، وـتـحـدـثـ لـنـفـسـهـ وـكـأنـ شـخـصـاـ آخرـ يـحـدـثـهـ:

- كنز إيه؟.. ده كلام مجانين.. متنساش إن السردار مسكون عفاريت وأشباح.. ثم
عاد مجدداً:

- لو كنت جبان ببقى متستحقش مني.. انت عاجبك حياتك كده.. خريح كلية تجارة
وشغلك ملوش أي صلة بالتجارة.. درست أربع سنين عشان تخرج تشتغل في مخزن
أدوية.. ولو لا إنك عايش مع جدك كان زمان مرتبك خلصان نص الشهر.. لو كنت
بتحب مني إثبت لنفسك ولها إنك بتجمها فعلاً..

- لو لقيت الكنز ده ه تكون أشهر واحد في البلد دي.. لا في مصر.. لا في العلم كله..
لو ملقتوش، كفاية إنك حاولت..

ثم انتفض من سريره.. وأخرج صورة لمي.. ونظر إليها قائلاً:

- أنا هنزل السردار ده.. هنزل مهما حصل.. وإن كان أبوكي مجنون.. فأنا أوقات
كتيرة بكون الجنون نفسه..

* * *

الكتب

(2)

كان خالد يظن أنه يتحدث إلى نفسه وحيداً.. ولم يكن يعلم أن هناك من يسمع حديثه إلى نفسه بصوت عالي خارج الحجرة.. حيث وقف جده مجاوراً لباب الحجرة يستمع إلى ما حدث به نفسه.. ورغم هذا لم تبدُ على وجهه أي دهشة، وكأن ما سمعه من حديثه عن نزوله السرداً أمر لم يمثل له أي اختلاف، بل بدا كأنه أمر توقع حدوثه.. وظل واقفاً حتى صمت خالد، وأغلقت أبواب حجرته، وсад الهدوء المكان، لم يقطعه إلا هذا الصوت المميز الذي يعلمه جيداً حين ينام حفيده..

* * *

بعدها غادر متكتئاً على عصاه إلى حجرته حيث جلس صامتاً على أريكته لدقائق ثم حرك عصاه ليجذب بها صندوقاً خشبياً صغيراً بدا عتيقاً وفتحه، وأخرج منه (الألبوم) قدি�ماً للصور غُطى بالكثير من الأتربة.. وبعدهما أزاح عنه الأتربة بدأ يقلب في صفحاته صفحة تلو الأخرى ، ويشاهد ما به من صور.. حتى توقف كثيراً عند إحداها..

* * *

في اليوم التالي استيقظ كل من خالد وجده مبكراً كما تعودا دائمًا؛ فخالد لديه عمله المبكر، وجده لا ينام بعد صلاة الفجر، ويظل يقرأ في كتاب الله حتى يهض خالد فيتناول إفطارهما سوياً.. والذي تعدد لهما فتاة تسكن بجوارهما، قد اعتادت على هذا منذ سنوات.. حتى جلس خالد وكان ينظر إلى جده بين الحين والآخر وكأنه يريد أن يخبره بشيء.. حتى قطع صمته، وسأل جده:

- عbedo (كما كان يحب أن ينادييه) .. انت تقدر تعيش لوحذك؟

فنظر إليه جده.. وأظهر أنه لا يفقه سؤاله:

- انت عايز تسافر ولا إيه؟!

صمت خالد.. ثم نظر إليه مجددًا:

- لو سافرت لفترة قليلة.. تقدر تعيش لوحذك؟ ثم أكمل وكأنه يوضح كلامه:

- أنا عارف إن كلامي صدمة ليك.. بس أنا قررت إني أسيب البلد لفترة.. وأقسم لك إني هرجع في أسرع وقت.. ومش هتحس بغيابي.. ثم حاول أن يبرر حديثه:

- أنا هسافر أي مكان ألاقي فيه نفسي.. أحس فيه بوجودي.. انت عارف ابنك خريج كلية التجارة بيشتغل إيه؟

- آه.. شغال في مخزن أدوية..

- ابن ابنك شغال شيئاً في مخزن أدوية.. شيئاً.. هات الكرتونة دي حطها هنا.. خد الكرتونة دي وديها هناك..

ثم هم بالوقوف ليغادر.. وقال لجده:

- هسافر فترة مش طويلة.. ثم التفت خارجاً، حتى أوقفته كلمات جده :

- انت ليه بتكتب يا خالد؟!.. انت ليه مش عاوز تعرفني إنك عاوز تنزل السرداد؟!

كانت تلك الكلمات كالصاعقة التي وُجهت إلى خالد بعدهما اختلق رغبته في السفر لفترة كي لا يعلم جده بذلك ، ويظن أنه أصيب بالجنون.. ولم يعلم كيف عرف جده بنيتها.. فنظر إليه مرتباً:

- سرداد؟!.. انت عرفت منين؟ !!.. أقصد سرداد إيه.. وكلام فاضي إيه..

فأكمل جده:

- عرفت من زمان.. من زمان جداً.. ثم أمره بالجلوس مجدداً.. وسألة في جدية:

- انت عاوز تنزل السرداد ليه؟

صمت خالد.. ثم تحدث محاولاً أن يجعل الحديث مزحة:

- انت ليه مصمم على حكاية السرداد دى.. أنا بقولك أنا هسافر..

أعاد جده سؤاله: خالد.. انت عاوز تنزل السرداد ليه؟

فلم يجد مفرّاً وأخرج زفيرا طويلاً، وأجاب:

- عايز أنزل عشان أثبت لمني وأبوها إني بطل.. إني مختلف عن غيري..

فسألة جده:

- بس؟

فأجابه في تعجب:

- أية بس.. وأكمل:

- ومين عارف، يمكن الأقى الكنزا اللي انتوا كنتوا نزلتوا قبل كده عشانه..

فكrr جده سؤاله:

- بس؟

- أية.

فقال جده في جدية:

- انت مش عايز تنزل عشان كده..

فنظر إليه خالد متعجبًا من الجدية التي لم يرها على وجهه من قبل.. حتى أكمل
جده:

- إفرض إن مني اتجوزت حد تاني، هتنزل السرداد ولا لا؟

فصمت خالد.. و أكمل جده:

- عمري ما هصدق إنك عايز تنزل عشان مني.. انت عايز تنزل لسبب تاني تماماً..
سبب نزولي ونزول غيري.. السبب اللي بيجري في دمنا.. دمي، ودمك ، ودم أبوك..
السبب هو حبنا للمجهول.. حبنا للتمرد.. حبنا لاكتشاف حاجة جديدة.. حبنا
للاختلاف..

وأردف:

- لما كنت صغير كنت بحكيلك عن السرداد وانت بتعيط.. ويمكن كنت بتبعص لها
إيهما مجرد حكاية عشان أسكتك بها، لكن صدقني كنت عارف إن هييجي يوم وتكبر
واحكيلك من تاني عن السرداد.. مجرد حكاية صغيرة عنه وهتنتفض من جوالك..
وتتابع:

- ما انت ياما رفضك أبو مني.. وكنت عارف سبب رفضه.. إشمعنى المرة دي اللي
حبّيت تكون بطل.. لحد ما جه اليوم ده امبارح، وحصل جوالك نفس اللي حصل
لأبوك يوم ما حكّيت له عن السرداد.. بس الفرق إني عرفت إنك عايز تنزله، أما
هو راح فجأة..

فقطاعه خالد :

- أبوايا نزل السرداد؟!

فأجابه:

- مش أبوك لوحده.. أبوك وأخد أملك معاه.. كانوا فاكرین إنهم هيروحوا رحلة صغيرة ويرجعوا.. عشان كده سابوك وانت ابن سنتين.. وقالوا راجعين بعد أيام.. لكن الأيام بقت شهور، والشهر بقت سنين، والسنين فاتت ومرجعواش.. والبلد كلها عرفت إنهم ماتوا في حادثة.. والكل شگر ربنا إنك مكنتش معاهم ونجيت من الحادثة دي.. لكن الحقيقة إنهم نزلوا السرداد.

ثم تنهَّد وأكمل:

- عمري ما أتيتهم على كده.. بقول لنفسى ما انت كمان نزلت السرداد وكنت فخور بنفسك.. بس الفرق إن ربنا نجاك .

ثم نظر إلى خالد:

- عشان كده عمري ما هزعل إنك كمان تنزل السرداد.. حتى لو كنت عارف إن قرارك ده ممكن يبعدى عني.. بس لازم تكون متأكد إنك نازل من جواك انت.. مش نازل لسبب وهى حاجته لنفسك هو مفي ..

وهم بالوقوف.. ومشي بضع خطوات معطياً خالدًا ظهره:

- ساعة ماتقرر قولي.. لأن لسه كلام كتير عن سرداد فوريك، حد غيري هيقوله لك..

* * *

بعدها غادر خالد، ولم يتوجه إلى عمله كما كان يذهب كل يوم، بل توجه لمقابلة منى بعدما هاتفته، وطلبت مقابلته بأحد الأماكن داخل جامعة المنصورة.. حيث كانا يلتقيان دائمًا.. وفي طريقه لم يشغل باله سوى حديث جده إليه.. وهل يرغب في نزول السرداد حبًا لمني أم حبًا للمغامرة.. ثم تذكر حديث جده عن والديه اللذين لا يعلم عن هيتهم شيئاً.. فقد وجد نفسه دائمًا مع جده، ولم ير صورة واحدة

لأبيه أو أمه.. لم يساعده على تخيلهما إلا كلمات بعض أقاربه.. أنه طويل مثل أبيه، فقد كان تقريباً في مثل طول أبيه الذي يبلغ أكثر من مائة وثمانين من السنطيمترات.. كما كانوا يقولون له، وكثفاه العريضان والبينة القوية.. هذه أشياء يقولون أنه شابه أباً فيهما.. أما أقارب أمه فطالما أخبروه أن شعره الأسود الداكن وابتسماته الدائمة يظلان شهياً دائمًا بينه وبين أمه..

* * *

بعدها عاد بتفكيره إلى ذلك الرجل الذي أخبره جده أن لديه كلاماً كثيراً عن السرداد.. وهذا الاسم الذي سمعه لأول مرة.. سرداد (فوريك).. وظلَّ تفكيره منشغلًا، حتى وصل إلى المكان الذي كان يقصده ملائقة مني.. فوجدها في انتظاره بحاجتها المميز وألوانه المتعددة، وعباعتها السمراء التي طالما داعها وأخبرها أنه يتشاءم حين تقابلها بتلك العباءة.. فنظر إليها بابتسمة فلم تبتسم كعادتها، وقالت:

- أنا متأسفة إن بابا عمل معاك كده للمرة التامنة..

فضحك :

- لا.. أنا خلاص اعتودت.. أنا بقىت مفضوح في البلد أساساً.. الناس بتقول عليا إني ضربت الرقم القياسي في رفض جوازك ببيا.. وإنى المفروض أدخل موسوعة جينيس.. قال تلك الكلمات كي يخرجها من حالة الحزن التي وجدها بها.. ولكن دون فائدة فأكملت:

- أنا كنت مفكرة زيـك إن بابا عاوز حد مختلف.. بس للأسف بابا اتغير فجأة ..

اندهش خالد:

- يعني إيه اتغير؟!!

أجابته:

- فيه دكتور اتقدم لبابا عشان يتجوزني.. وطبعاً أنا كنت متأكدة إن بابا هيرفض..
بس فوجئت إنه وافق..

فصاح بـها:

- إيه.. وافق!!

- آه.. وافق ومصر إنني اتجوزه.. وتساقطت بعض دموعها بينما شرد خالد
- وأنا؟

- حاولت اتكلم معاه بخصوص حي ليك.. فحضربي على وشي.. وقال إنه عارف
مصلحةتي أكثر ممّي.. وإن مستقبلي مضمون مع الدكتور.. وإنني هتعب معاك..

* * *

كانت مني تتحدث، واختلط حديثها بدموعها.. وخالد ينصت لها لا يصدق ما
تسمعه أذناه.. ماذا يريد هذا الأب المجنون؟ كان يخبره بأنه يريد لابنته شخصاً
فريداً من نوعه.. ولكن يبدو أنه كان يريد أي شخص إلا خالد حسني.. أنا.. هل
يضيع حب تلك السنوات بين عشية وضحاها؟! إنه لم يحب في حياته مثلاً
أحاجها.. ولماذا لم تعترض هي على قرار أبيها؟!.. هل استسلمت خوفاً من عنوستها؟..
كلها أسئلة دارت في ذهنه بينما كانت تتحدث، حتى طلبت منه الرحيل كي لا تتأخر
عودتها إلى منزلها.. وكأنها تهرب من لقائه.. فابتسم ساخراً مشيراً لها بيده أن ترحل
دون أن ينطقد.. وكانت المرة الأولى التي يتركها ترحل بمفردها.. وجلس بمكانه ينظر
إليها وهي تغادر، وكأنها المرة الأخيرة التي يراها بها، ويختنقه هذا الضيق الذي يشعر
به.. تلك هي المرة الأولى التي يشعر معها بالهزيمة.. إحساس لم يجتهد من قبل.. لم
ينتبه في أي مرة تقدم إليها لخطبتها ورفضها.. كان يعلم أن هناك ما يدعى الأمل
حتى لو تقدم إليها مائة مرة حتى يقبل أبوها..

يتذكر تحمله لنظرات الناس إليه، وسخريتهم منه حين كان يخبرهم بأنه سيتزوجها
 ذات يوم، وستبقى قصة حب يخلدها التاريخ.. كان يظن نفسه أحمق حين طلب

منها ذات مرة أن يتزوجها دون معرفة أيها فرفضت، ودام خصامهما لعدة طوبلة حتى اعتذر منها مجدداً.. ولكنها أكثر حماقة الان.. إنها ستتوافق على ذلك الطبيب كما وافق أبوها.. ربما أرادت أن تقابلني تلك المرة كي ترضي صميرها فقط لا غير.. هكذا حدث نفسه.. حب سنوات يذوب كقطعة جليد في ثوانٍ قليلة..

حتى قطع شروده صوت زين هاتفه.. وحين قام بالرد، وجدَ صاحب العمل الذي يعمل لديه يويخه لتفقيبه؛ فلم يتمالك أعصابه، وأخبره أنه لن يعمل لديه مجدداً.. وأغلق الخط على الفور..

* * *

بعدها عاد إلى بلدته.. يمشي في شوارعها مطاطئ الرأس.. يشعر بطعم الم梓يمة في حلقه.. لا يريد أن يتحدث إلى أحد.. حتى وصل إلى بيته، ودخل غرفته ثم نظر إلى حوانطها المغطاة بتلك الأوراق التي كان يعلقها دائمًا.. أوراق طلبه للزواج من مني ورفضه في الثمانينيات، ووقف أمام كل ورقة على حدة ينظر إليها وهو يسخر من نفسه.. ويضحك بصوت عالي كأنه أصابه الجنون ثم قام بتمزيقها جميعاً، وجلس على أرضية الغرفة واضعاً رأسه بين يديه.. سابقًا في ذكرياته مجدداً، حتى انقض ذاهباً إلى حجرة جده.. فوجده قد أنهى صلاته.. فسألته:

- انت قلت لي إن فيه حد عنده كلام كتير عن السرداد..

فردَ جده في هدوء:

- انت خلاص قررت؟

- أيوة.. أنا عايز أنزل السرداد ..

- عشان مني؟!

تمالك خالد نفسه:

- مني خلاص راحت من إيدي.. وخلاص سيبت شغلي.. ولازم أنزل..

ثم أكمل:

- لازم ألاقي حاجة واحدة في حياتي أقدر أحكمها لولادي من بعدي.. عايز أحس مرة واحدة إني بطل قدام نفسي.. إحساسني بفشلي بيقتلني..

فتسأله جده :

- مش خايف إنك مترجعش زي أبوك وأمك؟

فأجابه:

- صدقني.. الحاجة الوحيدة اللي كنت خايف عليها.. إني أسيبك لوحدي، لكن طالما انت بتشجعني، مفيش مكان لأي خوف في قلبي..

فابتسم جده:

- والعفاريت.. والأشباح وإنه مسكون؟

- معتقدش إني هلاقي عفريت أصعب من بني آدم.. أنا خلاص قررت إني هنزل.. وكان عندك حق لما قلت لي إن مفي مش هي السبب.. بالعكس بعد ما مفي راحت من إيدي بلحظات، زاد حبي للتزول أكثر من الأول.. يمكن ألاقي في السرداد الذكرى اللي تخليني أقدر أنسى إهانة ست سنوات لنفسي.. ثم سأله جده:

- مين الرجال ده.. وفين ألاقيه.. فابتسم جده:

- اطمئن.. هو سمع كل كلامنا.. ويمكن أتأكد إنك عاوز تنزل السرداد فعلًا..

* * *

نظر خالد إلى جده مندهشًا وكأنه لا يفهم شيئاً حين دخل عليهما رجل عجوز يقترب في سنه من جده.. وعلى الفور تحدث جده، وأشار إلى العجوز:

- أعرفك بمجنون السرداد.. أكيد تعرفه..

نظر إليه خالد :

- أية طبعاً.. الحاج مصطفى أصلان !!

فأكمل جده :

- مصطفى كان أول واحد فكر إنه ينزل السرداد من خمسين سنة.. وكنا مسمينه مجنون السرداد.. وكان دائماً يقول إن عنده معلومات محدث يعرفها عن السرداد، ومستني اليوم اللي يقر فيه حد ينزله.. بعد ما أبوك وأمك مرجعوش.. ثم تركهما كي يكملا حديثهما بمفردhemma.

* * *

نظر خالد إلى هذا العجوز.. وتعجب مما قاله جده: فإنه يعرفه منذ سنوات عديدة.. ولم يعلم أنه مجنون السرداد الذي طالما سمع جده يتحدث عنه وهو صغير.. حتى قطع صمته العجوز :

- جدك حكي لي أديه انت عاوز تنزل سرداد فوريك.. وأنا اتأكدت دلوقت..

- أية.. بس أنا أول مرة أسمع إن السرداد اسمه سرداد فوريك..

تابع العجوز حديثه :

- هو ده الإسم الحقيقي للسرداد.. ولو بحثت عن الإسم ده في أي مكان استحالة تلاقى أي معلومة عنه..

ثم تهد وأكمل:

- الناس بتفكروا أنا وجدى في عدد المجانين لو اتكلمنا عن السرداد.. ومش مصدقين إننا من خمسين سنة نزلناه فعلًا.. بس دي عندهم حق فيها..

فسؤاله خالد:

- عندهم حق.. يعني إيه؟

فأجابه العجوز :- أية.. عندهم حق، يمكن دي معلومة أنا الوحيد اللي أعرفها.. إن من خمسين سنة لما نزلنا احنا الأربعة.. متزلناش سرداد فوريك.. ويمكن عشان كده طلبت من جدك إنه يسيبنا لوحدينا.. لأنني مش عايز أحطم نقطة فخره بنفسه..

- أومال النفق اللي نزلته ده كان إيه؟

- النفق ده مجرد طريق لسرداد فوريك.. والدليل على كلامي إن النفق على عمق مش كبير.. وله مسافة معينة، والدليل الأكبر إن لمبات الجاز انطفت بعد دقائق من نزولنا..

- أه.. العفاريت ..

فضحك الرجل:

- لا، تقصد التهوية.. النفق غير السرداد.. الأكسجين في النفق قليل.. وتقربيًا ممكن ميكونش موجود لو باب التزول اتفقل.. ووقتها لما لمبات الجاز انطفت أنا قلت عفريت.. والكل خاف وجري.. بس بعد كده اكتشفت إنه كان خيال حد فيينا.. ومن جوايا كانت سعادتي ملهاش وصف.. لأنني حسيت إني حطيت رجلي على أول طريق السرداد.. وفضلت حاطط أمل لنفسي إني هوصل للسرداد في يوم.. بس السنين فاتت، والمرض حاصرني، وفضلت مستني اليوم اللي ينزل فيه حد غيري السرداد.. ويتحقق حلمي.. ثم أخرج كتاباً قدیماً من معه.. وأكمل:

- الكتاب ده من نسخة واحدة.. اللي كتبه شخص نزل السرداد قبل كده.. لقيته بالصدفة في كتب والدي لما كنت شاب.. لكن للأسف عامل الزمن كان أثّر عليه قبل ما ألاقيه.. فكان السليم منه تقربيًا عشر ورقات بتتكلم عن سرداد فوريك.. ثم أعطى الكتاب لخالد.. وأشار إليه أن يقرأ سطور الكتاب بصوت عالٍ..

* * *

أخذ خالد الكتاب ليقرأ وريقاته.. بينما جلس العجوز ليستمع إليه، ويحتسي كوب الشاي الذي برد بالفعل.. وبدأ خالد في قراءة سطوره المكتوبة بخط اليدين.. والتي تحدثت عن فوريك، أحد الأثرياء الذين تواجدوا في العصر المملوكي.. وكان يمتلك تلك المنطقة التي توجد بها بلده، وهو فريـك - التي كانت تسمى وقتها.. وهو فوريـك.. وما يحيطها من بلدان.. وقد أمر أن يتم حفر ذلك السردار على عمق كبير كي يكون ملاداً له ولأهل مدینته إن تعرضت بلاده لأي غزو.. واستغرق حفره وتشييده أكثر من خمسة عشر عاماً.. وخُزنت به ثروات كثيرة من ذلك الزمن..

ثم تحدث من قام بكتابته عن رحلته للسردار.. وعن ذلك النفق الذي لا توجد به تهوية.. ولابد من تجاوزه في أسرع وقت إلى السلم الحقيقي للسردار.. والذي يمتد لأكثر من ثلاثين متراً تحت الأرض.. ومنذ تلك اللحظة فلن توجد أدنى مشكلة بالتهوية.. فقد صمم هذا السردار بكل براعة.. لا يعرف كيف تمت تهويته بتلك الطريقة.. أما تعجب خالد فقد زاد حين قرأ أن السردار لا يكون مظلماً ليلاً يوم يكتمل البدر في السماء رغم وجوده تحت الأرض.. إنهم مهندسو الماضي.. يا لها من براعة.. حتى انتهت العشر ورقات حين كتب صاحبه :

"كنت أظن أن الكنز الحقيقي هو الثروات التي خُزنت به.. ولكنني اكتشفت ما هو أثمن من ذلك كثيراً، وأعظم من كنوز فوريـك.. إنني اكتشفت..."

حتى انتهت العشر ورقات دون أن تكتمل الجملة..

* * *

نظر خالد إلى العجوز في لففة:

- اكتشف إيه؟

فأخبره العجوز أنه لا يعلم.. وأنه وجد الكتاب على تلك الحالة.. وظل سؤال ماذا اكتشف صاحب هذا الكتاب يشغل طوال خمسين عاماً.. ثم نظر إلى خالد:

- لو كنت عاوز تكتشف اللي اكتشفه.. لازم تكون في السردار الليلة دي..

- الليلة دي؟!!

- أبواه.. الليلة دي القمر بدر.. وده التوقيت اللي بيكون فيه السردار منور حسب
كلام الكتاب..

فصمت خالد قليلاً.. ثم نظر إليه:

- وأنا مستعد أنزل.. مستعد لفرصة حياتي..

* * *

كانت الساعة تقترب من السادسة حين تركه العجوز وغادر.. وترك معه هذا الكتاب الذي تصفحه لأكثر من مرة.. ومع كل مرة تزداد رغبته في نزول السردار.. يدفعه ذلك الفضول إلى معرفة ما اكتشفه كاتبه.. يشعر أنه يمتلك سراً من أسرار الزمان.. ويسأله نفسه: هل اكتشف كنوزاً لا حصর لها؟.. هل توجد آثار بالأسفل، وأكون أنا مكتشف القرن الحادي والعشرين؟.. وظلَّ هائماً في أحلام اليقظة..

* * *

اقربت الشمس من المغيب فصعد أعلى بيته.. ونظر إلى بلدته.. ينظر إلى أراضيها الزراعية.. وإلى الأشجار العالية، والطبيور التي تزينها.. ينظر إلى البيوت المجاورة وكأنه يراها لأخر مرة.. يستنشق نسيم بلده العطر، ويتحدث إليها.. ربما يكون آخر نهاري هنا.. أتمنى ألا يكون.. ثم عاد إلى حجرته ليتم استعداده لرحلته..

* * *

مرَّ الوقت، ودخل الليل، وزُينت السماء بالبدر.. وهذا هو ينتظر حتى يسكن المهدوء البلدة.. وهو يعلم أنه لن ينتظر كثيراً.. فعادةً يدب المهدوء بلدته بحلول العاشرة مساءً على الأكثر.. لا يتاخر بها سوى صديقه دكتور ماجد منير، والذي يغلق صيدليته في وقت قد يتجاوز الثانية عشرة.. إنه لا يريد أن يراه أحد وهو متوجه إلى

ذلك البيت المهجور في أطراف البلدة.. حتى دقت الساعة الواحدة صباحاً..
واستعد للرحيل، ونظر إلى جده مبتسمًا مودعًا له:

- إن شاء الله هرجع..

فابتسم جده :

- أكيد هترجع إن شاء الله.. ثم طلب منه أن ينتظر لحظة.. وأخرج الصندوق الخشبي.. ثم فتحه وأخرج منه (البوم) الصور القديم.. فسألته خالد:

- إيه ده؟!!

فقام جده بتنقليل بعض صفحاته ووقف على تلك الصورة التي توقف أمامها من قبل، وتحدى إليه:

- عارف مين دول؟

فنظر إليها خالد وما زالت الدهشة تتملّكه.. فأكمل جده:

- دي صورة أبوك وأمك.. كانت آخر صورة لهم قبل ما يسيبني.. ثم دمعت عيناه فدمعت عيناً خالد هو الآخر.. وظلَّ متأنِّلاً بها:

- أول مرة أشوف صورتهم..

فأكمل جده :

- كنت مستني اليوم ده.. وفضلت معذب نفسي عشاناليوم ده.. ثم أعطاه الصورة، ومسح بيده دموعه، واحتضنه.. فهمس خالد في أذنه:

- هرجع لك يا عبده.. هرجع..

ثم غادر..

* * *

كان البدوء يسود البلدة.. ولم يكن يسير بشارعها أحد سوى خالد والذى كان يحمل حقيبة كتفه ، وما بها من طعام يكفيه لعدة أيام، ومصباح للإنارة، والكتاب الذي أعطاه له العجوز، وبعض الأوراق والأقلام؛ اعتقاداً منه أن هناك ما قد يحتاج لتدوينه.. وقد وجد عدم حاجته لـ(كاميرا) تصوير؛ فوجود هاتفه الخلوي يغيب عنه ..

كان يسير مسرعاً إلى أطراف البلدة حيث ذلك البيت المهجور.. وما إن اقترب منه ومن سوره العالى حتى عزم على تجاوز ذلك السور..

* * *

أما جده فكان يجلس وحيداً يقرأ في كتاب الله، ويدعوه أن يعود به سالماً.. حتى سمع طرقات على باب بيته.. وقد ظن أن خالداً عاد من جديد.. وما إن قام ليفتح الباب حتى وجد مني في وجهه.. وقد اندهش حين وجدها أمامه في ذلك الوقت المتأخر من الليل.. حتى سأله :

- فین خالد..؟!! ومش بيرد على تليفونه ليه؟!

ردّ جده:

- ليه؟ !

أجبت مني في فرحة:

- خلاص يا جدو.. قدرت أقنع بابا إننا نتجاوز أنا وخالد.. ومش قادرة استنى للصبح عشان أقوله.. خايفة يكون لسه زعلان من الصبح ..
فابتسم العجوز ثم صمت..

* * *

تجاوز خالد سور البيت المهجور.. وأنار مصباحه حين وصل إلى مكان الصخرة الذي وصفه له جده بالتفصيل.. والتي كان يصعب أن يصل إليها دون وصف جده

له.. ثم حاول إزاحتها فلم يستطع في البداية رغم قوته البدنية.. فحاول مرة أخرى دون أن يستطيع.. فصاح بنفسه أنه لن يستسلم.. وعاد للمحاولة مرة ثُم مرة ثُم مرة.. وقد انساب العرق من جبينه، ولكن دون جدوى..

حتى وجد لوحًا قديمًا من الخشب ففكر أن يكون وسيلة لإزاحة الصخرة.. وبدأ يحاول من جديد، ويصرخ مجددًا لن أستسلم.. ويدفع بقوة، ويضغط أسنانه ببعضها.. ويدفع اللوح الخشبي.. ويصبح، ويدفع.. حتى تحركت الصخرة بعض الشيء تبعها سقوطه على الأرض..

ما إن تحركت الصخرة تلك الحركة الضئيلة.. حتى سهل تحريرها بعد ذلك.. ودفعها رويدًا رويدًا.. بعيدًا عن باب الحديد.. كان يرقد أسفلها.. حتى سقط على ركبتيه.. وازدادت ضربات قلبه، وتتسارعت أنفاسه.. وقال مبتسمًا لنفسه:

- إجمد يا بطل.. إحنا لسه في البداية..

* * *

بعدها نظر إلى الباب الحديد الذي احتل مربعًا من الأرضية.. وسمى الله.. وقام بفتحه، فلم يكن موصداً بأي نوع من الأقفال سوى الصخرة.. وما إن فتحه حتى أحدث صريراً دلّ على غلقه لمدة طويلة.. ثم وجّه ضوء مصباحه بداخله فوجد سلماً عمودياً إلى الأسفل.. فتححدث إلى نفسه مشجعاً لها:

- بسم الله نبدأ طريقنا للسرداب..

* * *

بعدها بلحظات بدأ نزول ذلك السلم.. وما إن نزل حتى أغلق الباب مجددًا.. وكأنه حُبس.. فعلم أن اللوح الخشبي الذي كان يدعم فتح الباب قد كسر.. فلم يتم بذلك.. ما شغل باله هو تجاوز النفق في أسرع وقت.. وتابع نزوله دون أن ينظر لأسفل.. يخطو درجة وراء الأخرى.. حتى وجد نفسه داخل نفق مظلم.. لا يوجد به ضوء سوى ضوء مصباحه.. فتحرك بضع خطوات يتحسس طريقه.. يمسك

المصباح بيده اليمنى، ويزبح شباك العنكبotta الكثيفة بيده اليسرى.. حتى سار
لعدة أمتار فبدأ يشعر بسرعة ضربات قلبه.. يحاول أن يرى نهاية ذلك النفق..
ولكن دون جدوى بعدما حالت شباك العنكبotta دون ذلك..

* * *

تقدّم خالد في الظلام أكثر وأكثر.. يبحث عن سلم السرداد الذي أخبره به
العجوز.. وأسرع في تحركه بعدما شعر بضيق صدره الذي ازداد حين قلل الهواء
بصورة شديدة.. وببدأ يضع يده على رقبته من الاختناق.. ويتحرك، ولا يجد ذلك
الطريق إلى السرداد.. يجري كالجنون وقد خرت قواه.. يتحسّن حوائط النفق
بيده.. يبحث عن أي فجوة بها.. ولكن دون جدوى.. يسأل نفسه لاهثاً: أين أنت أمّها
الطريق؟ .. يعلم أنه لن يستطيع حتى العودة إلى سلم النفق.. سيموت مختنقًا قبل
أن يعود.. يسرع في طريقه إلى الأمام.. يبحث في كل مكان.. على الجانبين وأعلى
وأ أسفل.. ولكنه لم يجد شيئاً.. حتى سقط على الأرض.. وسقط بجانبه مصباحه،
وصرخ بصوت واهن:

- لا يوجد سرداد.. لا يوجد..

ثم صمت.. وأمال رأسه جانبًا.. وكاد يغمض عينيه مستسلماً.. قبل أن ينظر بعيداً
إلى بقعةٍ أضاءها مصباحه الملئ بجواره.. فابتسم ابتسامة شابها إعياء شديد،
وتحدّث:

- سرداد فوريك.. ثم أغمض عينيه للحظات حتى فتحهما مرة أخرى.. ونظر
مجددًا إلى ألواح خشبية متراصة ظهرت في بقعة الضوء، وكأنها بابٌ صغيرٌ يوجد
بأحد جانبي النفق..

* * *

(3)

كان الباب الخشبي يبعد عن خالد عدة أقدام.. وما زال خالد ملقي على ظهره من شدة الإعياء حتى انتفض مجدداً، وتحرك بجسده تجاه هذا الباب، يزحف كأنه إحدى الزواحف.. لا يقوى أن يقف على قدميه، وينازع اختناقه كمن ينماز الغرق.. يتحرك بجسده، ويدفع بقدميه، ويستعين بذراعيه.. واضعاً مصباحه بين فكيه.. يقاوم أكثر وأكثر.. ويحدث نفسه أنه الأمل، إنه سرداد فوريك.. حيث الهواء.. حيث الحياة، يهدى بكلمات يقوّي بها نفسه.. ويقترب أكثر وأكثر من الباب.. ويدفع بقدمه في قوّة.. حتى توقف جسده مرة أخرى بعدما خرت قواه، ولم يكن يتبقى سوى أقدام قليلة نحو الباب..

تنظر عيناه إلى الباب.. ويحاول أن يمد ذراعه إليه لكنها لا تلمسه وكأنها استسلمت.. حتى صرخ صرخة قوية، وكأنه يجمع ما تبقى لديه من قوّة، وقذف بجسده تجاه الباب كصخرة اندفعت نحو باب خشبي أذابه الزمن فانكسرت ألواحه.. واندفع بداخله ليجد جسده يهوي على سلم خشبي مغمضًا عينيه يتدرج كما تدرج الكرة حين تسقط على درجات سلم.. ولم يستطع السيطرة على جسده على الإطلاق.. يرطم بين الحين والآخر.. ويزداد سقوطه أكثر وأكثر.. ثم هدا ارتطامه قليلاً حتى توقف.. وقد فتح عينيه ليجد نفسه في مكان مختلف تماماً..

* * *

فتح خالد عينيه.. فوجد نفسه ملقي على إحدى درجات السلم العريضة.. وقد انتعش صدره بالهواء كأنه ارتوى بيئر ماء بعد ظمأ شديد.. وزاد سروره حين وجد نفسه يرى كل شيء دون الاستعانة بمصباحه وقد زال ظلام النفق.. حتى وقف على قدميه، وصرخ:

- أنا في سرداد فوريك.. أنا في سرداد فوريك..

بعدها نظر إلى أسفل حيث لم ينته السلم بعد.. وأسرع إلى أسفل يخطو درجاته في أمل.. لا تعوقه آلام ارتطامه حين سقط.. يريد أن يكتشف كل شيء في وقت قليل قبل أن يختفي البدر.. ويتحدث إلى نفسه أن كل ما ذكره الكتاب حتى الآن قد وجده.. الهواء موجود بالفعل، وإضاءة البدر تبر له طريقه، وكأنها جمعت لتزداد قوة إضاءتها داخل السرداد.. يالها من براعة هندسية.. ولكن ظلّ سؤاله إلى نفسه: ماذا اكتشف صاحب الكتاب؟!.. حتى انتهى السلم.. ووصل إلى نهايته، فوجد نفسه في السرداد..

* * *

وجد خالد نفسه أمام نفق كبير أكبر كثيراً من النفق الذي مرّ به سابقاً.. فارتفاعه يقترب من العشرة أمتار.. واتساعه يبلغ مثل ارتفاعه.. حتى سار به، وينظر إلى جدرانه الضخمة في دهشة كأنه في مزارٍ سياحي.. وأخرج قلمه وأوراقه.. وأخذ يكتب بعض السطور عما يراه.. ويتقدم أكثر وأكثر، ويسأل نفسه: كيف يوجد هذا السرداد الضخم أسفل بلده ولا يعلم عنه سوى صاحب الكتاب المجهول وبعض الأشخاص الذين لن يصدقهم أحد؟!!! إنه قد يكون أعظم اكتشاف بالعصر الحديث.. وقد يجعل من بلده مزاراً سياحياً.. يبدو أن الكاتب قصد باكتشافه، السرداد نفسه.. ويسير منهراً ويتقدم.. ويوضح بحسبية، لقد انتهى الألم.. لعله يجد أحد الكنوز الآن..

يبحث في كل جوانب السرداد.. لا يريد أن يترك شيئاً واحداً يفوتة.. حتى ارتبطت قدماه بشيء ما.. وما إن نظر إليه حتى انقض قلبه حين وجده هيكلًا عظيمًا لأحد

الأشخاص.. وقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها مثل هذا الهيكل، لكنها لم تكن الأخيرة.. فكلما تقدم وجد أكثر وأكثر.. حتى بدأ الخوف يتسلل إلى قلبه.. وكان تلك الهياكل تتحدث إليه بأهلاً مصير كل من دخل هذا السرداد.. ودار بخلده أن يكون أحدها لأبيه أو أمه.. وتمى أن تكون الحقيقة غير ذلك..

* * *

بعدها شعر أن الإضاءة تقل شيئاً فشيئاً من خلفه.. فنظر إلى ساعة يده فوجدها قاربت الخامسة فجراً.. وعلم أن البدر قد بدأ في زواله.. ولا يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك.. ما ذكره الكتاب أن السرداد يظل مضاءً وقت وجود البدر.. ولم يذكر شيئاً آخر، حتى مر قليلاً من الوقت.. وتلاشت معه إضاءة السرداد تدريجياً.. فلم يعط اهتماماً لذلك.. وتقدم أكثر وأكثر.. حتى وجد صورة نُقشت على أحد جداري السرداد لشخصٍ تبدو على ملامحه الثراء.. فتحدث إليه مبتسماً:

- أكيد انت فوريك.. أحب أعرفك بنفسي.. أنا خالد حسني، مكتشف سرداياك العظيم.. واللي بسببك هيعيش أحلى أيام حياته..

ثم أخرج هاتفه ليلتقط له صورة.. وما إن التقاطها حتى شعر ببرقة عنيفة تحت قدميه كادت تسقطه، فالتفت جانباً ليجد جدران السرداد تهار بعيداً في طريقها إليه ويقترب منه الانهيارات بشدة، فعاد بظهره للخلف بضع خطوات.. بعدها لم يجد أمامه سوى أن يلتف بجسمه ويجري للأمام..

* * *

يجري خالد سريعاً وإنيار الجدران يسع خلفه كأنه فريسة يلاحقها أسد مفترس.. لا يصدق عينيه.. يشعر بأنه في حلم ما، ويُسرع.. وتسمع أذناه صوت ارتطام صخور الجدران الضخمة.. لو أصابته صخرة واحدة لقتلته.. حتى سقطت حقيبة كتفه وما بها فلم يعبأ بذلك.. وواصل عدوه.. تساعدته قدماه الطويلتان وخطواته الواسعة.. ويجري إلى حيث لا يعرف.. يجري إلى المجهول.. ويصرخ بداخل نفسه..

كيف يعود إلى بلده مجدداً؟! .. إنه الهاك.. إن السرداد ينهار.. ماذا حدث بالأعلى؟! حتى وجد نفسه أمام طريقين انقسم إليهما السرداد.. فاندفع إلى أحدهما، دون رغبته حين انهار الطريق الآخر قبل أن يصل إليه.. وكان الهميـار يتحكم في مساره.. ثم فوجئ بنفسه يجري إلى مرتفع يتجه للأعلى.. وبلاحقه الهميـار أسرع وأسرع يريد أن يتبعه..

يحاول أن يقاوم صعوبة الصعود.. ويتقدم ويخطو بقدميه سريعاً.. حتى وجد نوراً شديداً على مرمى بصره كانه نور الهاـر الذي يعرفه جيداً فأسرع إليه وما زال الظلام والهميـار يلاـحـقـاه حتى اقترب من الفتحـةـ وقفـزـ منهاـ لـتـهـارـ منـ أسـفـلـهـ، وتـغلـقـ

وكـأنـ الأرضـ قدـفـتـهـ خـارـجـهـ..

* * *

وجد خالد نفسه ملقى على الأرض.. ورأسه منغمـسةـ في رمال.. فرفع رأسه، وأزال الرمال عن وجهه وعن عينيه.. ونظر إلى السماء وضحك.. وشكر الله بعدما ظن أنه عاد مرة أخرى إلى أعلى.. وأنه قد نجا من اتهـارـ هذاـ السـرـدـابـ المـلـعونـ.. حتى نظر إلى السماء مجدداً.. ولاـحظـ زـرقـتهاـ وـصـفـاءـهاـ إـلـىـ درـجـةـ لمـ يـرـهاـ منـ قـبـلـ، وـنـظـرـ حولـهـ فـوـجـدـ رـمـاـلاـ بـكـلـ مـكـانـ وـعـلـىـ مـرـمـيـ بـصـرـهـ.. فـهـنـجـ وـدارـ بـجـسـدـهـ لـيـرـىـ ماـ حـولـهـ.. فـلـمـ يـجـدـ سـوـىـ صـحـراءـ وـاسـعـةـ تـظـلـهـاـ سـمـاءـ صـافـيةـ فـضـرـبـ رـأـسـهـ بـيـدـهـ، وـهـمـسـ إلىـ نفسـهـ:

- فوق يا خالد.. انت بتتحمل ولا إيه.. انت فين؟! .. وإيه اللي جاب الصحراـ ديـ هناـ..

ثم نظر حوله مجدداً، وسأل نفسه غير مصدقًا ما يراه: أين هو؟.. وسار بضع خطوات في كل اتجاه لكن دون جدوى.. إنـهـ صـحـراءـ لاـ يـوـجـدـ بـهـ أـحـدـ فـجـلـسـ مكانـهـ فيـ دـهـشـةـ.. وـنـظـرـ إلىـ فـتـحـةـ السـرـدـابـ الـتـيـ خـرـجـ مـنـهـ فـوـجـدـهـاـ وـكـأـنـهـاـ لمـ تـكـنـ.. فـضـحـكـ سـاخـرـاـ.. وـتـحـدـثـ خـائـبـ الأـمـلـ :

- واضح إن السرداد كان معمول عشان نعمر الصحراء.. والكتز وفوريك ده كان
مقلب.. ويا ترى أنا في الصحرا الشرقية.. ولا الغربية.. ولا في سينا؟!!.. ولا أكون
عبرت الحدود.. ورحت ليببيا.. أو السعودية.. ثم صرخ وكأن الجنون أصابه:

- أنا فين؟!!!!...

* * *

مررت ساعات على جلوسه.. يجلس ولا يعلم أين يذهب.. وخلع قميصه، ووضعه
فوق رأسه كي يقيه حرارة الشمس.. واندهش حين نظر إلى ساعة يده فوجد
عقارها توقفت عن الحركة.. ولم يفكرون بهذا الأمر كثيراً حيث فوجى بргلتين يجريان
بعيداً عنه.. فنهض وأسرع إليهما.. وببدأ الأمل يدق قلبه حتى اقترب منها فلاحظ
زماماً الغريب وشدة إعياءهما، وكأنهما مريضان بمرض مزمن شديد فأوقفهما..
وسألهما:

- لو سمحتوا، أنا محتاج مساعدتكم..

فتركاها.. وواصلوا جريهما، فأسرع خلفهما ليوقفهما مجدداً:

- انتوا بتجروا ليه؟!.. فنظر إليه أحدهما:

- ألا ترى ما نحن به؟!

تعجب خالد من لهجتهما الغربية.. وابتسم ساخراً مقلداً له:

- أجل أرى يا سيدي.. ثم سأله:

- إحنا في السعودية، صع؟!

نظر إليه الرجل متعجبًا:

- ماذا تعني السعودية؟!!

ابتسم خالد.. وزفر زفيرًا طويلاً.. وتحدى إلى نفسه:

- دول في الضياع..

فـسـأـلـهـ الرـجـلـ الـآخـرـ لـاهـثـاـ:

- أَنْتَ غَرِيبٌ؟

فأجابه خالد على الفور:

أيّوه أنا غريب.. ثم أكمل:

إحنا فين؟.. وانتوا مين؟

أجابه أحدهما:

- إننا فقراء.. وقد هربنا إلى الصحراء.. ألا يوجد معك طعام؟!

أحابه:

- لا للأسف... كان معايا بس ضاع مع الشنطة.. ثم وضع يده في جيبه، وأخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات.. وأكمل:

- أنا معايا فلوس ممكناشتروا أكل لو قلتوا لي إحنا فين.. وازاي أرجع بلدي..
فخطف أحدهما ما أخرجه خالد من نقود ووضعها بفمه وأكلها.. فاندهش خالد،
وسأله متوجهًا:

انت جوان للدرجة دي؟

فأجابه الآخر:

ـ يbedo لي أنك كريم، ولهذا تأكـدت أنك غريب عن هنا.. أـشعر بـأنك غـني للـغاـية...
ـ ضـحـكـ خـالـدـ.. وـنـظـرـ إـلـىـ نـفـسـهـ، وـمـلـابـسـهـ الـبـالـيـةـ الـيـ غـطـّـاـهـاـ تـرـابـ الـنـفـقـ
ـ وـالـسـرـدـابـ، وـحـالـتـهـ الـيـ رـثـيـ لـهـا.. وـسـأـلـ نـفـسـهـ.. أـيـ غـنـيـ يـتـحـدـثـ عـنـهـ هـذـاـ الـأـبـلـهـ؟
ـ عـشـرـةـ جـنـيـهـاتـ رـآـهـاـ شـعـرـ بـأـنـيـ غـنـيـ؟.. ثـمـ تـجـاـوبـ مـعـهـمـاـ وـكـأـنـهـمـاـ مـجـنـونـانـ.. وـسـأـلـهـمـاـ
ـ مـحـدـداـ، وـقـدـ ضـحـاقـ صـدـرـهـ؛

- دلوقتي أنا عايز أعرف انتوا هتعيشوا إزاي في الصحراء دي؟! ، وهربانين من إيه؟
وسؤالي الأهم: إحنا فين أساساً؟..

أجابه الذي أكل النقود بعدهما حاول أن يفهم ما يقصده :

- إننا فقراء، وستكون الصحراء أفضل لنا كثيراً من أرض زيكولا..
فسؤاله خالد مندهشاً :

- أرض زيكولا؟!!

فسؤاله الآخر:

- ألا تعرف أرض زيكولا؟!

أجابه خالد:

- لا.. فين زيكولا دي؟.. أنا مش شايف إلا صحراً في كل مكان..
فأكمل الرجل:

- من يوجد في هذا الزمان ولا يعرف أرض زيكولا؟! ثم أكمل محدثاً صديقه:
- إنهم الأغنياء، يسخرون منا هكذا دائمًا.. ثم أشار إلى خالد أن يتحرك عدة أمتار
في اتجاه يده:

- إنها هناك بالأسفل.. أنها الغني..

ثم تركاه وواصل جريهما في الصحراء.. وتحرك خالد إلى ما أشار إليه الرجل،
وواصل تحركه حتى وجد نفسه على حافة هضبة عالية فنظر إلى أسفل فوجد
مدينة كبيرة ذات منظر بديع من أعلى.. بها مبانٍ شتى وتخللها مساحات خضراء
كأنها أراضٍ زراعية، ومسطحات من الماء ..

* * *

(4)

اتسعت عينا خالد من الدهشة، وسأل نفسه: كيف توجد تلك المدينة بجوار تلك الصحراء الجرداء؟!.. حتى قاطع تفكيره صباح أحد الرجلين إليه مجدداً:

- إياك أن تذهب إلى زيكولا.. إياك.. وواصل جريه مع صاحبه.. فلم يعطه خالد اهتماماً.. وظل ينظر إلى تلك المدينة من أعلى.. وسأل نفسه: أين هو من العالم؟ وأين توجد أرض زيكولا تلك؟.. حتى ابتسم حين نظر بعيداً إلى أسفل فوجد طريقاً طويلاً ممهداً إلى تلك المدينة.. به كثير من التعرجات ومرتفعاً إلى أعلى حيث يمر بالقرب من تلك الهضبة التي يقف عليها.. فلم يجد أمامه سوى أن يسرع باحثاً عنه.. يريد أن يذهب إلى المدينة في أسرع وقت بعد ما حلّ به الجوع والعطش بعدها يحاول أن يعرف أين هو..

* * *

بعدها سار في الصحراء متوجهًا إلى ذلك الطريق.. وظنَّ في البداية أنه قريب منه فاكتشف غير ذلك تماماً.. فكلما تقدَّم لم يجد شيئاً فاعتقد أنه سراب.. حتى تحقق من وجوده حين رأى عربة يجرها حصان تسير على مقربة منه.. فأسرع في اتجاهها فوجد أمامه ذلك الطريق الذي شاهده من أعلى.. ولكن سائق العربية لم يلحظ وجوده وابتعد بها عنه فواصل تحركه في نفس الاتجاه الذي سلكته العربية..

* * *

مرَّ الوقت وأصبحت الشمس عمودية.. وزادت حرارتها، وحلَّ الإرهاق والتعب على خالد.. وبدأت آلام ارتطامه في السرير تحل عليه مرة أخرى.. ولكنه تابع سيره رغم علمه بأن هذا الطريق طويل للغاية، ولابد له من نيل قسطٍ من الراحة.. يريد أن يصل إلى هناك في أسرع وقت.. يشعر أن هناك أملاً ما في انتظاره.. حتى سمع صوتاً من خلفه.. وحين التفتَ وجده عربة أخرى يجرها حصان فأشار إلى سائقها أن يقف، فأوقف السائق حصانه بالفعل.. فنظر إليه خالد في تعِّبٍ:

- أنا عايز أروح أرض زيكولا..

فـسأله السائق:

- وكم تدفع؟

فـوضع خالد يده في جيبه.. وأخرج بعض النقود الورقية.. وأشار إلى السائق أن يأخذها.. فـسأله السائق غاضباً:

- ورق؟!

ثم ألقاها في وجهه.. وتركه وغادر.. وخالد لم يفقه شيئاً مجدداً.. وحدّث نفسه بصوت مسموع :

- البلد دي كلها مجانيين ولا إيه؟!

وواصل تحركه، فجاءت عربة أخرى وحدث معها مثلماً حدث مع العربية السابقة تماماً.. وتركه سائقها وغادر.. فابتسم خالد ابتسامة بها خيبة أمل كبيرة محدداً نفسه: "إهـا زـيكـولا أـرضـ المـجاـنيـنـ" .. وسار مسافة أخرى، وازداد تعبه.. حتى سمع من جديد صوت عربية فالتفت فوجدها عربة ضخمة يبدو عليها الثراء، وقد اختلفت عن العربات السابقة من حيث تصميمها وأناقتها.. فرأى أن يوفر تعبه.. ولا يشير إليها ويكمـلـ سـيـرهـ، ومرـتـ بـجـوارـهـ فـوـجـدـ شـابـاـ فيـ مـثـلـ عمرـهـ مـتـشـبـئـاـ بمـؤـخرـتـهاـ دونـ أنـ يـراـهـ سـائـقـهـاـ.. وـحـينـ وـجـدـ خـالـدـ أـشـارـ إـلـيـهـ بـيـدـهـ أـنـ يـسـرعـ إـلـىـ

العربية.. فأسرع خالد إلى مؤخرة العربية هو الآخر.. وتشبث بها.. ونظر إلى الشاب مبتسمًا: "شكراً" .. فهمس الشاب إليه، ووضع يده على فمه:

- أصمت.. كي لا يسمعنا أحد..

* * *

سارت العربية في طريقها إلى زيكولا، يصبح سائقها إلى جيادها أن تسرع.. وفالد ما زال متسبباً بمؤخرتها مع هذا الشاب.. ينظر إليه في دهشة من ملابسه.. وشعر بدهشته هو الآخر منه أيضاً.. حتى اقتربت العربية من سور ضخم.. فأشار الشاب إلى خالد أن يقفز معه تاركين العربية.. فقفزا، وما إن نظر خالد أمامه حتى وجد سوراً ضخماً يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من خمسة طوابق، تزيّنه نقوشٌ غاية في الجمال، به باب ضخم كان مفتوحاً على مصراعيه تمر منه العربات مجيناً وذهاباً.. فنظر خالد إلى الشاب قائلاً:

- أنا بشكرك جداً ..

رد الشاب:

- لا تشكري يا أخي.. إنني مثلك، كادت تقتلني حرارة الشمس..

فتسأله خالد:

- أنت من زيكولا؟

- نعم.. وأنت تبدو غريبًا..

فابتسم خالد:

- أية.. أنا من اليهـو فـريـك.. بلد جـنـبـ المـنـصـورـة ..

فارتسمت الدهشة على وجه الشاب:

- ماذا؟!!

فأسرع خالد وكأنه يصحح حديثه :

- أقصد مصر.. أنا من مصر..

فلم تختفِ دهشة الشاب وسأله:

- ماذا تقصد بمصر؟!.. هل هي في الشمال؟

فأجابه مندهشاً:

- انت مش عارف مصر أم الدنيا؟

رد الشاب:

- نعم أخي.. لا أعرفها..

فصمت خالد مفكراً ثم أجابه وكأنه يريح نفسه من غرابة هؤلاء الناس الذين يقابلهم:

- أية مصر في الشمال.. ثم سأله:

- إحنا فين؟

رد الشاب:

- ألا ترى يا أخي.. إننا في زيكولا.. أرض الذكاء..

فلم يتمالك خالد نفسه من الضحك :

- أرض الذكاء؟!!.. لا فعلاً الذكاء واضح على كل اللي قابلتهم ثم سأله:

- يعني تبع دولة إيه؟ .. قارة إيه؟

رد الشاب متوجلاً:

- لا أفهم قصدك.. إنها زيكولا وفقط.. والآن لابد أن أتركك.. إنني أضعت اليوم وقتي من العمل.. ولا بد لي أن أقوم بتعويضه..

ثم مدّ يده مودعاً خالد، فمدّ يده هو الآخر:

- اسمي خالد..

رَدُّ الشَّابِ:

- وأنا يامن.. حظا سعيداً في أرض زيكولا .. ثم تركه وغادر ..

* * *

كان خالد مازال واقفاً أمام باب المدينة الضخم.. حتى تقدم إليه، وما إن مر خلاله حتى شعر برعشة قوية تسري بجسده، وألم شديد برأسه كاد يقتله.. حتى سقط على ركبتيه ممسكاً رأسه بيده من الألم الذي لم يشعر بمثله في حياته.. واستمر ألمه لدقائق حتى بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً وكأنه لم يحدث، ثم تابع مسيره إلى داخل المدينة..

سار خالد بالمدينة وكأنه يسير بمدينة الأحلام.. ينظر إلى وجوه الناس وتعبيراتهم المختلفة.. منهم من ترتسم البسمة على وجهه، ومنهم من انطبع الحزن على جبينه.. والى زمام الذي انقسم إلى أقسام عدة؛ فمنهم من يرتدي جلباباً وعلى رأسه عمامة، وقد كانوا كبار السن.. أما الشباب والصغار فكانوا يرتدون سراويل واسعة من أعلى وضيقه من أسفل.. وكأنها زي الصيادين الذي اعتاد أن يراه ولكنها أكثر أناقة.. ومن أعلى يرتدون قمصاناً واسعة منقوشة صُنعت ببراعة من الجلد أو القماش.. أما النساء فقد وجدهن يرتدبن فساتين فضفاضة ذات ألوان براقية.. وجميعهن لا يضعن شيئاً فوق رؤوسهن.. ولاحظ جمال الكثير من النساء في تلك المدينة.. وخشي أن ينظر إلى إحداهن.. وهو لا يعلم كيف ستكون ردة الفعل في تلك المدينة.. ويعجبه ذلك التنوع في الزي.. وتلك الأنافة التي بدت على كل فتى وفتاة بالمدينة.. ويسيير بشوارعها منهراً بتلك المباني المتلاصقة.. التي بدت عليها المهارة المعمارية.. وكانت تمتلك ارتفاعاً واحداً لا يتجاوز الثلاثة طوابق.. وبنيت جميعها من الطوب المحروق والأخشاب..

* * *

أكمل خالد مسيره حتى وجد مكاناً يقدّم طعاماً فسمع أصوات بطنه تناديه، وتذكريه بالجوع.. فاقترب من ذلك المكان.. وجلس به.. وطلب طعاماً.. ثم جاءه رجل بطعام من الخبز واللحم.. وقال له :

- شكرًا لتشريفك لنا أيمها الغني.

فابتسم خالد :

- تاني غني !!

ثم أكل وامتلأت بطنه.. وانتظر أن يأتي الرجل ليأخذ نقوده فلم يأتي.. فأكل ومشى.. وعادت إليه قوته مجددًا.. وأكمل سيره في المدينة حتى وجد مكاناً آخر لصناعة الملابس وبيعها.. فنظر خالد إلى نفسه.. ووجد أن يشتري لنفسه زينًا.. كي لا يكون زينه مختلفاً عن باقي أهل المدينة.. حتى يعرف أين هو.. ودخل ذلك المكان فسأله من به :

- لست من زيكولا؟

فاوماً خالد موافقاً كلامه فأعطاه الرجل زينًا مناسباً.. بنطلاً واسعاً.. وقميصاً منقوشاً من القطن.. ولم يأخذ منه نقوداً.. وقال له مثلاً قال صاحب المطعم:

- شكرًا لتشريفك لنا أيمها الغني..

فابتسم وتذكر كلام من قابلهم بالصحراء.. وأنه غريب لأنه كريم.. وقال لنفسه إنهم مجنونان بالفعل.. فما وجده من أهل المدينة حتى الآن كرم مبالغ فيه.

* * *

يسير بالمدينة بزيه الجديد.. ويقلب عينيه هنا وهناك.. وقد لاحظ شيئاً لم يفهمه.. وهو أن كل مكان للبيع والشراء يجد مكتوبًا عليه أرقام ووحدات.. عشر وحدات أو خمس.. أي وحدات تلك لا يفهم.. حتى أكمل مسيره وحل الليل.. ففوجئ بأن تلك المدينة رغم ما يبدو عليها من ثراء إلا أنها لم تصلها الكهرباء بعد.. ثم اندلش حين

أُضيئت المدينة بالنيران.. وانتشر الضياء في كل مكان.. ولا تختلف إضاءتها عن المصايب التي يعرفها.. تلك هي الأخرى براعة هندسية..

بعدها جلس على جانب أحد الشوارع.. وكاد يغليه النعاس.. فوجد أهل المدينة يستعدون وكأنهم يحتفلون بشيء ما.. الجميع يلعبون ويمرحون.. والأطفال يرقصون.. وسأل نفسه هل هناك عيد ما؟.. يبدو كذلك.. وفرح بذلك فجميع أهل المدينة خارج منازلهم.. وسيؤنس ذلك وحده دون مسكن.. حتى اقترب منه فتى فسألة لماذا يحتفل الناس هكذا.. فأجابه الفتى فرحاً:

- إن الاحتفال لم يبدأ بعد ..

فضحك خالد مداعبًا الفتى:

- أمال هبيبأ إمتى؟

تعجب الفتى:

- لماذا لهجتك غريبة؟

رد خالد:

- أنا من الشمال.. إنني غريب..

رد الفتى:

- تقصد كنت غريبًا.. أما الآن أنت من أهل زيكولا..

فابتسم خالد ووضع يده على رأس الفتى:

- عارف إن زيكولا أرض الكرم..

فأكمل الفتى:

-اليوم الكل يستعد للاحتفال.. أما الاحتفال الحقيقي سيكون غداً.. إنه أعظم احتفال بالكون.. والكثيرون من البلاد البعيدة يأتون للهبة المجاورة.. ويقفون بها لمشاهدة احتفالاتنا..

فتعجب خالد وسأله عن سبب الاحتفال، فظهر التعجب على وجه الفتى:

- إنني كنت أظنك غنياً.. أرجوك لا تدعني أشك في قدراتي بمعرفة الأغنياء.. ثم أكمل :

- إن احتفالاتنا ستبدأ غداً احتفالاً بيوم زيكولا.. اليوم الذي يجعل من زيكولا أشهر مدينة بالتاريخ.. اليوم الذي يسعد به كل أهل زيكولا..

ثم صمت قليلاً.. وأكمل :

- ماعدا شخصاً واحداً بالطبع..

فسأله خالد:

- مين الشخص ده؟

فضحك الفتى:

- بيدو أنك لا تعرف كثيراً عن زيكولا.. ثم تنهى.. ونظر إليه:

- سيدى، إن يوم زيكولا يذبح فيه أفقر شخص يوجد بالمدينة.

* * *

(5)

شعر خالد بالصدمة حين أخبره الفتى أن يوم زيكولا يُذبح به أفقر من يوجد بالمدينة.. وحدث نفسه بأنه أفقر من بها.. وما معه من نقود لا تفيده بعدهما تيقن من مواقفه السابقة أنهم لا يعترفون بها.. وإن كان حديث الفتى صحيحًا سيكون هو الصحيح.. حتى قاطع تفكيره الفتى حين أكمل:

- في يوم زيكولا تجرى منافسة بين أفقر ثلاثة أشخاص بالمدينة.. أما غداً للأسف فسيذبح الشخص مباشرة دون منافسة بعدهما نجح الآخرين في الهرب.. آه لو رأيتما بعيوني..

فتذكر خالد من قابليهما بالصحراء.. وقال بصوت عالٍ:

- المجانين؟ !!

فنظر إليه الفتى فتدارك خالد قوله، وسألته:

- تقصد إن الفقير تم اختياره فعلًا؟

رد الفتى:

- نعم..

فتنفس الصعداء، وأخرج زفيرًا طويلاً، وشكر ربِّه في سره، وأكمل الفتى:

- المعتمد في زيكولا أن يحبس الفقراء الثلاثة قبلها بأيام.. ثم تقوم بهم منافسة الغنى والفقير.. الزيكولا.. ومن يخسر منهم يُذبح.. وبالطبع طالما هرب الاثنان سيذبح الشخص الثالث.. ثم أشار إلى بيت مجاور:

- إنه من منطقتنا.. فنظر خالد إلى البيت، وتعجب:

- ازاي ده بيت فقير؟

بعدها تركه الفتى، ومضى ليلعب مع من معه..

* * *

جلس خالد مرة أخرى في مكانه.. يفكّر بما يحدث له، ويتذكر ماذا حدث له منذ أن وجد نفسه بالصحراء.. وزاد إلحاح سؤاله الذي تعمد تجاهله دائمًا.. أين هو؟.. وأين زيكولا تلك التي لم يسمع عنها من قبل.. وعن أهلها المثيرين للدهشة؟.. بعضهم يبدو عاقلاً.. والكثيرون لا ينتمون للعقلاء بشيء.. ثم انتفض جسده حين سأله نفسه ماذا لو انتقل به الزمن عبر السرداد إلى الماضي كما كان يقرأ دائمًا في الأدب الأجنبي.. ماذا؟.. هل هذا صحيح؟! ((لا.. لا.. إنه خيال.. إنفي لم أسمع عن زيكولا.. ولم أقرأ عنها من قبل)).. هكذا أجاب نفسه.. ثم علا صوته:

- بس ليه لأ؟

- الأحسن اللي بتجر العribات.. ولبس الناس هنا.. مش معقول يكون لبس حد في القرن الواحد والعشرين.. الحاجات دي فات عليها قرون.

ثم عاد إلى نفسه: ممكن تكون دي بلد معزولة انت مسمعتش عنها.. وده زيهم الوطّي فعلًا ..

فصاح إلى نفسه: بلد إيه.. كل اللي مشيته في السرداد حوالي كيلو أو اتنين بالكتير..

- أكيد أنا انتقلت في الزمن.. والدليل إنهم بيتكلموا عربي ومعرفوش مصر.. هو فيه منطقة بتتكلم عربي في العالم كله إلا الوطن العربي؟!!

ثم أمسك رأسه بيديه: أنا حاسس إني مش قادر أفكـر.. أنا كنت أذكي من كده.. ثم نظر بعيداً: بس.. ده الدليل إني انتقلت للماضي..

قال ذلك حين وجد جماعة يحملون سيفواً ودروعاً وكأنهم جنود.. ويسيرون في صف واحد.. فوقف على قدميه.. واتجه مسرعاً إلى الفتى الذي كان يمر مع أصدقائه.. وجذبه من يده :

- أنا عايزة أسألك سؤال واحد.. إحنا في سنة كام؟

فأجابه الفتى متوجلاً :

- يبدو أنت تشرب الكثير من الخمر.. إننا في نهاية العام التاسع بعد الألفين يا سيدى..

فعاد خالد بقدمه للخلف.. ودارت به رأسه حتى سقط وكأنه فقد وعيه.. فضحك الفتى وتحدى إليه:

- نعم سيدى، أرى أن النوم قد يفيدك، ثم تركه ومضى..

* * *

في صباح اليوم التالي، فتح خالد عينيه على صوت ضوضاء شديدة.. فوجد نفسه مُقى على جانب أحد الشوارع فهض مسرعاً.. وحاول أن يصلح من هيئته، وأزال الغبار عن ملابسه.. ثم نظر أمامه وفرك شعره حين وجد ذلك الكم الهائل من الناس يسيرون بانتظام في اتجاه معين.. والجميع يرتدون ملابسً تبدو جديدة..

الرجال يمسكون بأيدي النساء.. والفتيا يمسكون بأيدي الفتيات، واللاتي بدا عليهن الجمال الشديد.. يسيرون في فرحة كبيرة.. ويضع كل منهم حول رقبته عقداً من الورد.. وتظلمهم موسيقى لم يسمعها من قبل ولم يسمع في جمالها.. يعزفها

مجموعة من الأشخاص أصحاب زي مختلف، ويحملون طبلولاً ووتريات وألات نفخ لم ير مثلها، ولكنها تخرج صوتاً بديعاً.. ويسيرون وسط ذلك الحشد من الناس.. ثم وجد بعض الشباب يمتطون أحصنتهم.. وخلف كل شاب توجد فتاته تلف يدها اليسرى حول خصره ، واليمني تمسك بها الورد وتلوح بها.. فابتسم خالد، وقال:

- أنا عرفت ليه الكل مستفي اليوم ده..

ثم أعجبته تلك الحركات الهلوانية التي كان يقوم بها البعض.. حتى فوجى بالعربة الثرية - التي كان قد تشبّث بها هو ويامن حينما كان في الصحراء - تسير وسط الحشد، وقد خرجت منها فتاة في غاية الجمال، وما إن خرجت حتى صاح البعض فرحاً وزاد سرورهم.. وببدأت تُلقي بالكثير من الورود.. وكل يهافت ويتسابق علىأخذها.. ثم بدأت تقذف الورد لأعلى وما إن يسقط حتى يرتفع الشباب بعضهم ببعض.. وتزداد بسمتها الرقيقة.. وخالد يشاهد ذلك في سعادة كبيرة.. وينظر مجدداً إلى تلك الفتاة وقد شعر براحة نفسية كبيرة.. حتى وجد إحدى الفتيات تقترب منه، وتسأله:

- لماذا تقف بمفردك؟.. يمكنني أن أصطحبك اليوم مجاناً..

فنظر إليها خالد.. ثم نظر إلى فتاة العربية مرة أخرى:

- لا شكرًا..

ثم نظر بعيداً.. فوجد يامن، فأسرع إليه وسط الزحام ووصل إليه بصعوبة وسأله:

- يامن.. انت فاكري؟

فابتسم يامن :

- نعم.. أهلاً بك يا صديق.. ثم نظر إلى زيه :

- مبارك عليك الزي الجديد.. وسأله :

- كيف كان يومك الأول بزيكولا؟

كانت الأصوات عالية من حولهما فاضطر خالد أن يرفع من صوته:

- يومي الأول؟.. مش فاهم لحد دلوقتي إيه اللي بيحصل لي..

فضحك يا من:

- ربما لأننا في أعياد زيكولا.. ما إن تنتهي الأعياد حتى تعود الحياة مرة أخرى إلى الطبيعة.. إنها أيام استثنائية ليست كباقي الأيام..

فابتسم خالد:

- باريت ثم سأله:

- أهال فين المزة بتاعتك؟

فأندهش يا من: ماذ؟!

فضحك خالد:

- أقصد حبيبتك.. أنا شايف معظم الشباب معاهم بنات..

فابتسم:

- آه.. لا، إنني لم أرتبط حتى الآن..

نظر خالد إلى الأمام وسأله:

- هو إحنا رايحين فين؟ ثم شعر أنه لم يفهمه فسأله مجدداً:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

فضحك يا من:

- إننا ذاهبون إلى أرض الاحتفال حيث سيلتقي هناك كل أهل زيكولا.. وسيُذبح شخصٌ ما..

فقال خالد:

- آه، عرفت.. الفقير.. ثم صمت، وأكملًا مسيرهما مع السائرين.. حتى سأله مجددًا:
- يامن.. هي مين دي؟ وأشار إلى الفتاة التي ترمي بالورود من العربية..

فأجابه:

- إتها أسيل.. طبيبة زيكولا..

فهمس إلى نفسه: أسيل.. طبيبة؟

ثم وجدها تُقذف بوردة إلى أعلى وتسقط تجاهه.. وتصارع الشباب معه حتى قفز مستغلاً طوله، وأمسكها ونظر إليها مبتسمًا فابتسمت له ابتسامة جعلته هائماً للحظات..

الجميع يسرون، وخالد يعجبه ذلك الاحتفال.. والموسيقى الرائعة التي تحلق في كل مكان، ورائحة الورد التي انبعثت صدره حتى تنسى أسئلته لنفسه عن أرض زيكولا.. وسار بجوار يامن وهو ينظر إلى العربية وإلى أسيل التي تبتسم كلما أمسك أحد بوردة قذفها.. ثم ينظر نظرة مختلفة تماماً مقوساً حاجبيه إلى الفتاة الأخرى التي رفض أن يسير معها.. والتي لم تُنزع نظرها عنه طول الوقت، وما إن تصطدم عيناه بها حتى تُخرج له لسانها غضباً.. فيينظر مجددًا إلى أسيل، ويستنشق رحيق الوردة التي أمسكها ويبتسم.. وتتابع سيره معهم حتى وصلوا إلى أرض واسعة.. وفوجئ بوجود كم هائل من الناس قد يتعدى الخمسين ألفاً.. فاندهش وسائل يامن:

- إيه الناس دي كلها؟ !

فرد يامن:

- إنهم أهل زيكولا.. جاءوا من مناطقها الكثيرة.. إننا جئنا من منطقة واحدة، وبافي الناس جاءوا من المناطق الأخرى..

ثم ابتسم فرحاً حين اقترب منه شاب آخر.. واحتضنه كثيراً ثم نظر إلى خالد :

- إنه صديق عمري إياد.. وأشار إلى خالد محدثاً صديقه:

- إنه خالد.. صديقي الجديد.. وتبعدوا عليه الشهامة، وسيكون صديقك بالطبع..
- صافح خالد إيمان، وقال مبتسماً:
- أيةوة.. هنكون أصدقاء لغاية ما أرحل قريباً..
- فصحك إيمان بصوت عالٍ:
- ترحل؟! ثم نظر إلى يامن:
- صديقك يريد أن يرحل!!!.. ثم صاح مجدداً فغضب خالد من سخريته.. ونظر إلى يامن :
- هو غريب إني أرحل ولا إيه؟

* * *

كاد يامن يحبه ولكنه أشار إليه أن يصمت بعدها دقق الطبلول كثيراً.. وصمت الجميع، وصمت الموسيقى.. بعدها صعد رجل ضخم إلى منصة عالية وبهذه سيف طويل.. فأدرك خالد أن الذبح سيتم.. وأن الفتى كان صادقاً معه حين أخبره بذلك، ثم صعد رجلان قويان يجران رجلاً حليق الرأس يبدو عليه المرض رغم شبابه.. والصمت يخيم على الجميع.. بعدها دقق الطبلول مرة أخرى فنزل أهل المدينة كلهم على ركبهم عدا خالد.. فجذبه يامن حتى نزل هو الآخر على ركبتيه بجواره هو وإيمان.. ونظر إلى المنصة حيث سقط الفقير هو الآخر على ركبتيه، ويداه مقيدتان بالخلف.. وبعد لحظات وخذ السياط ظهره فشهق برأسه فأطاح برقبته.. وتناثرت دماءه على المنصة.. فصاح أهل المدينة فرحاً.. ودققت الموسيقى مرة أخرى.. وبدأوا يرقصون ويعمرحون.. وبدأت الألعاب اليلوانية مجدداً..

أما خالد فسرت في جسده رعشة مما رأه.. وانتفض قلبه بقوة، وتسرعت أنفاسه.. وهو ينظر إلى ذلك الجسد الممزروع الرأس.. وجسده يرتعش، إنه لم ير مثل ذلك من قبل.. يتحسس وجهه، ويسأل نفسه هل يعلم أم أنها حقيقة.. ويسأل نفسه

مجدداً: لماذا ذبحوا هذا الفقير؟.. إننا في مجتمعنا نساعدهم.. إنهم قوم بلا قلب..
حتى صاح بيامن:

- يامن.. إحنا في سنة كام؟
فأجابه:-

إننا في نهاية العام التاسع بعد الألفين..
فصاح:

- 2009.. إزا اي؟

فابتسم يامن كي يمتضي غضبيه:

- إنه الزمن يا صديقي.. هل بيدنا أن نغيره؟!.. ثم صاح خالد بإياد في عصبية:

- ولایه الغریب إني أرحل وأسیب زیکولا؟!
فأجابه بإياد:

- يا صديق.. إن باب زیکولا قد أغلق فجر اليوم.. إنه لا يُفتح إلا قبل يوم زیکولا
بيوم واحد.. ثم يغلق مجدداً حتى يوم زیکولا في العام الذي يليه.. ولا يستطيع أحد
مغادرة زیکولا حتى ذلك اليوم..

وأكمل يامن إلى خالد :

- إنه اليوم الذي دخلت فيه إلى زیکولا.. وسأله متعجباً:

- لماذا تريد أن ترحل وأنت لست فقيراً?
فجن جنونه.. وفاض به:

- مين اللي قالك إني مش فقير؟!.. لا، أنا فقير.. أنا ممتلكتش أي حاجة..
فاندهش بإياد:

- كيف هذا؟!.. ألا تشعر بنفسك؟

فأجابه غاضبًا:

- أشعر بييه؟!.. دي حتى الفلوس اللي كانت معايا، وحمدت ربنا إنها كانت معايا
بالصدفة قلتوا عليها ورق وملهاش أي قيمة.

فابتسم يامن:

- ولماذا تحتاجها يا صديقي؟

ردَّ خالد:

- دي فلوس.. يعني أشتري بيه اللي أنا محتاجه..

فسألَه يامن:

- تقصد العملاة؟!

خالد:

- أيوة..

فصمت يامن ثم تحدث مجددًا :

- آه.. الآن عرفت لماذا زاد ارتباكك إلى هذا الحد حين وجدت ذلك الفقير يذبح..
إنك حفت أن تكون فقيراً وتذبح مثله.. ثم نظر إليه:

- يا صديقي إن عملتنا مختلفة تماماً.. إن عملاة أرض زيكولا هي وحدات الذكاء..
ومن يكون ذكياً هو الغني.. أما الفقير فهو الأقل ذكاءً.. هنا نعمل ونأخذ أجراً
ذكاء.. ونبتاع وندفع من ذكائنا.. ونأكل مقابل وحدات أخرى من الذكاء.. ثم صمت
برهة وأكمل:

- لا أعلم من أين جئت.. ولكننا ولدنا فوجدنا أنفسنا هكذا.. علينا أن نحافظ على
ذكائنا.. وأنت منذ دخولك إلى أرض زيكولا أصبحت مثلنا.. وعليك أن تحافظ على
ذكائك، وأن تنميه.. كي لا يأتي يوم زيكولا وقد قال ذاكؤك فيكون هذا مصيرك..
وأشار إلى جثة الذبيح.. فنظر إليه خالد.. وكأنه لا يفهم شيئاً :

- يامن.. أنا كنت بقول عليك عاقل..

رَدَ يامن:

- أعلم أنك تظنينا بلهاء.. ولكننا - أهل زيكولا - نختلف عن باقي بقاع الدنيا.. والكل يعلم هذا.. ويخشون أن يدخلوا إلينا حتى لا تسري رعشة زيكولا بجسدهم ويفصحون مثلنا.

فتذكر خالد تلك الرعشة.. وذلك الألم الشديد الذي حلَّ برأسه حين مرَّ من باب زيكولا.. وأكمل يامن:

- عليك أن تصدقنا.. وأن تحافظ على ذكائك لأن اعتقادك بأننا بلهاء لن يفيدك بشيء.. أنت لن تستطيع أن تغادر زيكولا مهما حدث.. وإن جاء يوم زيكولا وكنت الأقل ذكاءً فسيحدث لك مثلما أخبرتك.. وتتابع :

- إنه عام.. ستحتاج إلى طعام، وإلى شراب، وإلى ملبس ومسكن.. وهنا في زيكولا لا يعطى أحد شيئاً بالمجان.. سوى يوم زيكولا فقط.. اليوم.. يكون يوماً بلا عمل.. وقد تكون هناك أشياء قليلة للغاية دون مقابل..

- عليك أن تعمل وتأخذ أجرك من الذكاء تعوض ما تفقده لسد احتياجاتك.. صديقي، هنا في زيكولا ثروتك هي ذكاؤك..

فانطبعت الدهشة على وجه خالد، وتسرب إليه قلقه حين شعر أن ذكاءه قد قلل بالفعل منذ دخوله تلك المدينة، وأن قدرته على التفكير قد قلت قليلاً.. ولا يعرف السبب.. ولكن ما يقوله يامن لا يصدقه عاقل حتى تذكّر شيئاً. فتحدث إلى يامن:

- كلامك مش صحيح.. أنا أكلت وشربت واشتريت هدوبي من غير مقابل ..
فابتسم يامن :

- صديقي.. هل لاحظت وجود الأسعار بالوحدات في تلك الأماكن؟..
فتذكر تلك الوحدات التي سأله نفسه عنها من قبل:

- أيةوة..

فأكمل يامن:

- وحدات الذكاء لا تُدفع باليدي.. إنها تنتقل تلقائياً بيننا.. وطالما رأيت تلك الوحدات.. أقصد الأسعار، وتواجدت في تلك الأماكن.. هذا يعني أنك موافق على الشراء وعلى الأسعار التي رأيتها.. وينتقل منك ثمن ما أكلته أو اشتريته إلى صاحب هذا المكان دون إرادتك.. الغريباء يسمونها لعنة زيكولا.. فقاطعه خالد هائماً:
- أنا أكلت كتير.. والزي ده كان مكتوب عليه أكبر وحدات.. وصاحبه قال إنه أغلى زيّ عنده.. وشكري لأنني غني..

رد يامن:

- بالفعل يا صديقي.. لقد لاحظت اليوم اختلافك قليلاً عن المرة الأولى التي رأيتك بها..

ثم نظر إلى إياد:

- يبدو أن صديقنا قد فقد جزءاً ليس بالقليل من ثروته..

* * *

(6)

تساءل خالد في لهفة:

- وانت عرفت ازاي؟

فاتسم سامن:

- ان وحيك أصبح شاحناً بعض الشيء يا صديقي .. وأكمل :

- كلما قلَّ ذكاؤك زاد شحوب وجهك وبدا عليك المرض.. هكذا نعرف من هو الغني ومن هو الفقير.. كلما تكسب ثروة تكون طبيعياً بيل زداد شبابك.. أما حين تخسر فستجد المرض يتسلب إلى جسدك.. وهكذا حتى يقترب يوم زيكولا فيقوم الجنود بجمع الأكثر مريضاً بالمدينة.. ويعرضونهم على الطيبة أسيل.. وهي من تحدد المرض حقاً والمريض بالفقر.. ثم تختار الثلاثة الأشد فقرًا..

فقاطعه خالد:

- لا، دي بلد مجانين.. ثم تركه ما وجري مسرعاً.. وقلبه يدق خوفاً، يخشى أن يكون
ما قالاه واقعياً.. وأكمل جريه وسط الزحام -وأهل المدينة يرقصون ويمرون،
وبلغت الموسيقى ذروتها- يتحرك بصعوبة بينهم، ويحاول أن يخرج من هذا الزحام..
ويصطدم بالفتیان والفتیات دون أن يعتذر.. ما يشغل باله أن يخرج إلى باب
زنکولا.. وواصل جريه بعيداً عن أرض الاحتفال.. وبحدّث نفسه:

- مش معقول يكون ده صحيح.. مش معقول..

وتعدو قدماه مسرعين.. حتى اقترب من باب زيكولا، وقد ظهر العرق الغزير على جبينه.. فوجده قد أغلق بالفعل وتواجد أمامه الكثير من الحراس.. فاقترب خالد من أحدهم، كان ضخم الجثة.. وقال:

- أنا عايز أخرج..

فضحك الحارس ساخرًا:

- تخرج؟ !!

فضح خالد: أية.. أخرج

فضحك الحارس مجددًا.. ثم نظر إلى حارس آخر، وحدثه:

- إننا نترك احتفالات زيكولا ونقف هنا حتى يأتي السكارى.. ويعثرون علينا..

فضح خالد:

- أنا مش سكران.. أنا هخرج.. ودفع الحارس بيده.. فظهر الغضب على وجهه ثم لكم خالدًا لكمّة قوية أعادته خطوات للخلف وسقط على الأرض وسالت دماءه من حاجبه الأيسر.. فهض على الفور، وعاد ووقف مرة أخرى أمام الحارس.. ولكنه نظر إلى درعه الذي يحمله وكان لامعاً كالمراة.. وأمعن النظر به إلى صورته المنعكسة.. فاتسعت عيناه خوفاً، وتتسارعت أنفاسه وخفق قلبه بقوة حين رأى وجهه شاحباً.. حتى قاطع تفكيره صوت الحارس الغليظ:

- عد إلى حيث كنت ولا سيكون السجن مصيرك..

فنظر إليه خالد خائب الأمل، واضعاً يده على حاجبه.. ي يريد أن يوقف دماءه.. وأدرك أن هذا الباب لن يُفتح كما أخبره إياد.. وأن حديث يامن إليه ما هو إلا الحقيقة التي خشىها.

* * *

بعدها عاد إلى شوارع المدينة.. يسير هائماً، يفكر كيف سيعيش عاماً في تلك البلد الملعونة.. ويسأل نفسه: عام؟!.. إنه لم يستطع أن يعيش يوماً واحداً.. وعاد بتفكيره: ماذا لو مر العام وكان أفقراً من بالمدينة؟ .. ماذا لو كان الأغبي؟، وعلا صوته وسائل نفسه:

- وجدي؟! هيقدر يعيش سنة من غيري؟.. أنا كنت بقول يومين أو ثلاثة وأرجع له..
- سنة؟!! هعيش هنا سنة؟!

وظل هائماً هكذا حتى أفاق حين صدمه حسانٌ، كان الحصان الذي يجر العربة الثرية - عربة أسيل - فصاح به سائقها يعنفه.. وتوقفت العربة، ونزلت منها أسيل على الفور لتطمئن عليه.. ولكنه خادر شارداً.. ورغم نداءها إليه كثيراً إلا أنه أكمل مسيرة دون أن يلتفت.. فعادت إلى عريتها، وحدّثت نفسها: لو كان شخصاً آخر.. لطلب تعويضاً على ذلك.. ثم أمرت السائق أن يتحرك من جديد..

* * *

مرت ساعات وخالف ما زال يسير بالمدينة.. ولم يتوقف عقله عن التفكير.. حتى وجد نفسه يقترب من بحيرة واسعة.. فأسرع إليها وحين تذوق ماءها وجده عذباً.. فشرب منها كثيراً.. ثم أسنن ظهره على شجرة بجوارها.. وضحك حين جال بخاطره أن يأتي والد منى إلى تلك المدينة.. وأقسم أنه سيذبح على الفور.. حتى منى لو جاءت سُتنِيْج هي الأخرى.. يتذكر أصدقاء وأنهم لا يمتلكون من الذكاء شيئاً بل سيدبحون كلهم.. ثم ضحك وحدّث نفسه ساخراً:

- عايز أكل مقابل وحدّث نفسه ساخراً..

ثم ضحك مجدداً حين تذكر أحد أصدقائه.. وكان سميّنا للغاية ويأكل كثيراً.. وأنه لو كان بزيكولا لفقد ثروته كلها مقابل أن يأكل.. ثم تحدث إلى نفسه: بتضحك يا خالد.. فعلأً مصرى ابن مصرى.. نضحك في أشد أوقات الكرب.. ثم سأله نفسه: هتعمل إيه يا خالد؟

فأجاب نفسه.. وكأنه شخص آخر: هعيش زي الناس هنا.. انت قدامك حل تاني؟
فردَّ كأنه الشخص الأول :

- لا..

فابتسم.. وجعل صوته غليظاً:

- يبقى تكيف مع الوضع.. وأهلاً بك في زيكولا..

بعدها نظر إلى السماء التي خيم عليها الليل فوجد العاباً نارية غريبة عما يعرفها
تزيتها، فابتسم:

- يوم زيكولا.. ثم أكمل بعدها صمت بوره:

- كلها ساعات وينتهي.. وأشوف زيكولا على طبيعتها..

ثم نظر إلى البحيرة وإلى شاطئها فلم يجد أحداً غيره.. فوجدها فرصة أن يستحم..
وما إن تجرد من ثيابه.. وكاد يكون عاريًا تماماً حتى شعر بحركة غريبة.. وسمع
همسًا وبعض الضحكات فالتفت فوجد فتاتين تنظران إليه.. فارتدى ملابسه على
الفور، ثم أسرع عائداً إلى الشجرة مرة أخرى وأسند إليها ظهره من جديد.. وحدث
نفسه مازحاً:

- لا.. أنا بقول أنام أحسن..

* * *

مر الليل، وأشرقت الشمس.. وخالف نائم بجوار شجرة شاطئ البحيرة.. حتى
انتقض حين سمع صرخات.. وحين نظر بعيداً وجد امرأة تصرخ بأن ابنها يغرق في
البحيرة.. فأسرع إلى الماء بملابسها.. يريد أن يصل إلى ذلك الفتى، والذي كان بعيداً
بعض الشيء.. ولم يتخيّل أن تكون البحيرة عميقه هكذا.. حتى اقترب منه فجذبه
تجاهه، وعاد به مرة أخرى إلى الشاطئ.. - وقد فقد الفتى وعيه، ولم تتوقف أمه
عن الصراخ.. فارقدت على ظهره.. وبدأ يضغط بيده على صدره.. يريد أن ينعش
قلبه.. يضغط بعض الضغطات المتتالية ثم يضع فمه على فم الفتى ويملاً صدره

بالهوا.. ثم يعود ليضغط بعض الضغطات مرة أخرى.. واجتمع الناس من حوله، وبينهم أسيل التي أسرعت إلى الفتى وطلبت من خالد أن يتبعه عنه لكنه لم ينظر إليها ولم يرفع نظره عن الفتى.. وأكمل ضغطه على صدره وإعطاءه من أنفاسه.. حتى شهد الفتى.. وشعر خالد بنبيضاته حين وضع أصبعيه على رقبته.. فحمد الله ثم نظر إلى أمه قائلاً:

- الحمد لله.. هو بخير.. فنظرت إليه الأم باكية، واحتضنت ابنتها:

- شكرًا لك.. ثم سألته :

- كم تريد مقابل هذا؟

فأجابها:

- أنا مش عايز حاجة.. أي حد مكاني كان هيعمل كده.. خدي بالك منه بعد كده.. والناس ينظرون إليه في غرابة.. حتى سأله أسيل:

- كيف فعلت هذا؟!.. ولماذا لم تتركي أساعدك؟!

فرفع خالد رأسه.. ونظر إليها للمرة الأولى بعدما لم يفارق نظره الفتى حين كان ين啼ه، وفوجئ بأنها صاحبة الصوت الذي طلب منه أن يتركه.. فشعر بقلبه يخفق سريعاً حين وجدها قريبة منه إلى هذا الحد.. لا تفصلهما سوى أقل من خطوة.. وحدّث نفسه في سره: إنها جميلة جمالاً لا حدود له، ونظر إلى شعرها الأسود الطويل، وعينها الضيّقتين ورموشيمها السمراء الطويلة.. وتذكّر ضحكتها حين كانت ترمي الورد، وتضيق عينها كلما ضحكت فتزيد جمالها جمالاً، ولاسيما مع شفتيها الرقيقتين.. حتى نطق هامساً:

- أسيل !!

ففوجئت هي الأخرى بأنه من تجاهلها، ومضى حين اصطدم حصان عربتها به.. فسألته:

- كيف فعلت هذا؟

فصرحك:

- أول مرة أحس إني اتعلمت حاجة مفيدة.. دي دورة إسعافات أولية كنت اتعلمتها في القاهرة.. ثم أسرع، وأخرج وردة من ملابسه المبتلة.. والتي قد التقطها في اليوم السابق.. ونظر إليها مبتسماً:

- دي وردتك.. أنا محظوظ بهما..

فتحاولت حديثه عن الوردة.. وسألته:

- لماذا لهجتك غريبة.. ثم أكملت:

- وأين القاهرة تلك؟

فابتسم:

- دي قصة غريبة جداً.. وأكيد مش هتعريفي القاهرة.. أنا مش من زيوكولا.. ثم أراد أن يتحدث إليها بلهجتها فأكمل:

- لست من زيوكولا.. وقد دخلت إلى زيوكولا أول أمس.. ولم أكن أعرف أن بامها سينغلق..

فصمتت أسييل كأنها تتذكر شيئاً ما.. ثم نظرت إليه، وقالت:

- مثلث تماماً..

* * *

(7)

ردَّ خالد في لِهْفَة :

- مثلك؟ !!

ردَّتْ أُسِيلَ:

- نعم مثلي.. أنا أيضًا لم أكن من أهل زيكولا ثم نظرت إلى حاجبه الذي لم يلثم
جرحه:

- أنا آسفة..

فَسَأَلَهَا:

- على إيه؟

أجابته:

- أرى أن اصطدام حصان عربي بك قد أصاب حاجبك..

فَابْتَسَمَ:

- أيَّ حصان؟

- حصاني بالأمس ..

فتذَكَرَ خالد:

- لا.. لا.. مش الحصان.. أنا المفروض اللي اعتذر ليكي لأنني امبارح مكنتش في حالي الطبيعية بعد ما شفت الفقير اللي دبحتوه.. بس أرجوكي كتمي حكايتها، وازاي انتي مش من زيكولا..

* * *

انصرف الناس، وحملت الأم ولدتها وانصرفت.. وجلست أسيل بجوار خالد على شاطئ البحيرة وبدأت تتحدث:

- كانت هناك حروب كثيرة منذ سنوات طويلة بين زيكولا والبلاد الأخرى.. ومن بينهم بلدي (بيجانا).. فكان جيش زيكولا يخرج يوم زيكولا، ولا يعود إلا يوم زيكولا الذي يليه.. حتى جاء يوم منذ أربعة عشر عاماً.. واستطاعت زيكولا أن تهلك بلدتي.. وأخذت الكثير منا عبيداً لهم.. وقد كنت منهم.. كنت ابنة عشرة أعوام وقتها..

فقط لها خالد:

- عبيداً؟!

أجابته:

- نعم.. كان الرق يتواجد في زيكولا حتى أعوام قليلة.. ولكنه لم يعد متواجداً الآن.. وأكملت: دخلنا إلى زيكولا.. وبالطبع كما حدث لك حين دخلت إلى هنا، أصابتنا لعنة زيكولا.. وأصبحنا مثلهم.. تعاملنا بوحادات الذكاء، والأفقر نذبح.. ولكنني كنت أOffer حظاً من غيري.. فقد اشتراكي رجل حكيم كان ذو قلب رحيم.. وكان يدرس الطب والحكمة.. وأعطاني الكثير من علمه ثم أعطاني حرية قبل أن يموت.. وأعطاني ما هو أهم.. أعطاني كتبه عن الطب والحياة.. فتعلمت منها الكثير، وأصبحت طبيبة زيكولا.. وعاملتهم بطريقتهم؛ أداؤهم مقابل جزء من ذكائهم.. وهنا يمرضون كثيراً، وأنا أجني الكثير.. فأصبحت من أثرياء زيكولا، وأنا ابنة الأربعة والعشرين..

فقط لها خالد مجدداً:

- ومفكريش تخرجي من زيكولا.. وترجعي لبلدك

فابتسمت وأكملت :

- كنت في البداية أنتظر اليوم الذي أعود فيه إلى بلدي.. ولكن بعد أربعة عشر عاماً أصبحت زيكولا حياتي.. أحببت الحياة هنا.. قد أذهب أحياناً إلى بلدي القديمة يوم يفتح باب زيكولا.. ولكنني لا ألبث أن أعود سريعاً قبل أن يغلق الباب مجدداً ..

فسألها:

- لأنك غنية؟

أجبت: ربما يكون هذا سبباً.. ولكن سبب الأكبر هو حبي لقوه زيكولا..

وأردفت :

- رغم ما بها من مساوى تظل هي الأقوى بين البلدان.. لا تستطيع أي بلد أخرى الاقتراب منها.. سترى مع وجودك هنا ما الذي يعطيها تلك القوة.. وأعتقد أنك ستتحبها مثلما أحببتها..

فصمت خالد قليلاً مفكراً في حديثها.. ثم سألها:

- زيكولا.. وبذلك اسمها بيجانا.. إحنا فين من العالم؟

ولكنه لم يلبث أن يسأل سؤاله حتى جاءت فتاة مسرعة إلى أسيل تخبرها بأن هناك مريضاً في حاجة إليها.. ولابد أن تسرع.. فنظرت إلى خالد:

- إنني أريد أن أعرف قصتك أيضاً.. أين أجده لاحقاً؟

فضحكت :

- هنا.. هنا مسكنى.. بجوار شجرة البحيرة..

- حسناً، أتمنى أن نكمل حديثنا قريباً.. وابتسمت:

- هنا.. بجوار البحيرة..

وغادرت، وتعجب خالد من حديثها، وحدّث نفسه :

- يمكن تكون زيكولا مدينة غريبة.. لكن واضح إنه عالم غريب بالكامل، زيكولا جزء منه.. فين بييجانا دي هي الثانية.. وازاي بيتعاملوا فيها.. ثم ابتسم:

- كدة بقى فيه اللي ظروفه زي ظروفي، ومنين؟.. دي أسيـل.. ممكن أكون من الأغنياء هنا؟.. ممكن أكون زهـما؟.. ثم أفاق :

- لا.. أنا مش عايز أبقى أغنى الأغنياء.. أنا عايز أمشي من البلد دي.. ولكن هروح فين؟.. وازاي هرجع بلدي مرة تانية حتى لو خرجت من زيكولا؟

- المهم إني أمشي من زيكولا الأول، وبعدها أفكـر ازاي أرجع بلدي، ولكن علشان أمشي لازم أفضل عايش ثم نهض مجددـاً وقد جفت ملابسه، محدثـاً نفسه: لازم ألاقي شغل..

* * *

اتجه خالد إلى شوارع المدينة وعزم على أن يجد عملاً يساعدـه أجرـه على بقائه حـيـاً في تلك المدينة.. ولكنـه ما إن يذهب إلى أحد ليـسـالـه عن عملـ حتى يـرـفـضـ طـلـبـهـ.. فيـنـذهـبـ لـآخرـ فـيـرـفـضـ هوـ الآـخـرـ.. وـظـلـ بـيـحـثـ وـيـحـثـ حـتـ قـدـمـاهـ.. وجـلـسـ علىـ جـانـبـ أحدـ الشـوـارـعـ.. فـفـوـجيـ بـيـامـنـ يـقـتـرـبـ مـنـهـ، وـيـصـافـحـهـ:

- أين أنت يا صديقي..

فابتسم:

- أهـلـاـ يـاـمـنـ.. يـاـمـنـ، أـنـاـ عـاـيـزـ اـشـتـفـلـ.. وـحاـولـتـ أـلـاـقـيـ شـغـلـ بـسـ الكلـ رـفـضـ يـشـغـلـنيـ..
فـسـأـلـهـ:

- أـيـنـ بـحـثـتـ عـنـ الـعـمـلـ؟

- فـيـ الـمـنـطـقـةـ دـيـ.. الـمـطـاعـمـ وـمـحـلـاتـ الـبـيـعـ ..

- إنك أخطأت في بحثك.. هنا يريدون أن يوفروا مكسباً كبيراً، وعملك معهم سيقدّهم جزءاً من مكاسبهم.. ستعرف كل شيء عن حياة زيكولا مع مرور الأيام..

ثم تابع :

- إن المدينة مليئة بأماكن العمل.. هل تريد أن تعمل معي؟

فأجابه:

- أية..

فسألَه:

- دون أن تعرف ماذا أعمل؟

فأندهش خالد، وسأله:

- هو عمل مش كويٍس ولا إيه؟

فأسرع مجيباً:

- لا.. إنه عمل مشرف.. إننا نعمل بجد.. عملنا يحتاج إلى الأقوياء مثلك.. قد يكون أجره قليلاً، ولكنه يكفي لاحتياجاتنا..

- وفين العمل ده؟

فابتسم يامن :

- حسناً.. تعال معي..

* * *

انطلق خالد مع يامن، وسارا إلى أطراف المدينة حيث منطقة جبلية.. حتى فوجى خالد بعدد هائل من الفتياں والفتياں يعملون كأسراب النمل.. واندهش من ذلك الكم الهائل.. وسأل يامن :

- كل الناس دي بتشتغل؟

- نعم يا صديقي.. وهنالك الآلاف يعملون في مناطق أخرى.. إن الصناعة هنا مريحة..

ثم أشار إلى مكان ما:

- هنا نقطع الأحجار من الجبال ثم نصنع منه طويلاً متماثلاً يصلح لبناء المساكن.. وكل هؤلاء الناس يعملون، ويأخذون أجراً يوماً بيوم.. وأنت وأنا سنكون بينهم.. أجرنا سبع وحدات ذكاء بالليوم، هل يناسبك؟

فابتسم خالد ثم تابع يامن:

- هيئاً.. عليك أن تثبت أنك جدير بالعمل..

* * *

بدأ خالد عمله مع يامن والآخرين.. يقطعون الصخور والأحجار بآلات يدوية.. وربما كان عملاً يحتاج إلى قوة بدنية، ولكن هذا مكان يمتلكه خالد تماماً.. وبدأ العمل، يرفع الفأس بيديه ويهوى بهما على الصخور.. وما إن تحطم صخرته الأولى حتى نظر إلى يامن: لقد بدأنا العمل بالفعل.. وحدث نفسه ساخراً: بكلوريوس تجارة إلى مخزن أدوية إلى تقطيع حجارة.. وتتابع عمله والجميع ينظر إليه في إعجاب، وخاصة عندما طلب من يامن أن ينافسه.. من يقطع الحجارة أسرع.. وتخلص من قميصه وربطه حول خصره.. وغطى العرق جسده فجعله لاماً مبرزاً عضلاتاته..

الجميع يعملون، ويامن وخالد يتنافسان ويسرعان.. والكل ينظر إليهما وإلى ما يبذلانه من جهدٍ، وقد أثرا حماس الباقيين.. حتى أخذوا قسطاً من الراحة.. وزادت دهشة خالد حين نظر إلى الناس مجدداً.. وإلى الفتياً اللاتي تعملن بقوه.. وتحملن الأحجار إلى العربات.. وسأل يامن:

- ازاي البنات بتشتغل الشغل الصعب ده؟

فأجابه: لا توجد فتاة بالمدينة لا تعمل.. إن قانون زيكولا لا يسري على الأطفال فقط.. ولكن ما إن يتجاوز الشاب أو الفتاة السابعة عشر حتى يصبحوا خاضعين لقانون زيكولا.. وعلى الشاب أن يعمل من أجل ثروته.. وعلى الفتاة أن تعمل من أجل ثروتها..

ثم أردف:

- هنا لا أحد يعطي غيره من ذكائه دون مقابل.. حتى إن تزوجت، فلن يعطيها زوجها ما ينجزها.. إما أن تعمل وإما أن تموت.. أو تجد حلاً آخر.. هو أن ترث..

ردَّ خالد مندهشًا:

- ترث !!

- نعم.. هنا الميراث يقسم على الأبناء بالتساوي..

ابتسم خالد:

- الميراث ذكاء؟

- وهل توجد ثروة أخرى يا صديقي؟!.. حين يموت أحد تنتقل ثروته تلقائياً إلى ورثته.. هيأ تابع عملك..

فابتسم خالد: حسناً..

* * *

مرت ساعات، وخالد يعمل ومعه يامن حتى بدأت الشمس في المغيب.. فتوقف الجميع عن العمل، وظهر الإنهاك على خالد فضحك يامن:

- هل تعبت؟

فابتسم :

- أكيد.. أنا مش متعود على مجهد بدني بالطريقة دي..

فضحك يامن:

- ستعتاد.. علينا أن نغادر..

خالد:

- وأجرنا؟

رد يامن: ما إن نغادر مكان العمل حتى يصلنا أجربنا دون أن نشعر.. طالما عملت سيسألك أجربك..

ابتسه خالد:

- زیکولا ..

فَسْأَلَهُ يَا مَنْ:

- أين ستذهب؟ .. هل نجتمع بالمساء؟

فتذکر خالد أسيلا:

- لا.. أنا هشتري طعام.. ويعدين أروح البحيرة مكانى..

يامن: حسناً..

* * *

دخل الليل، واتجه خالدٌ كي يحصل على طعامٍ.. وما إن جلس بأحد المطاعم ليأكل حتى وجد جميع من هناك لا يأكلون سوى الخبز.. وأتى رجل المطعم، وسألَه:

- ماذا ترد أن تأكل أيها الغني؟

فابتسم وطلب منه أن يخبره بأسعار الطعام.. فردَّ الرجل:

- هنا الخير مقابل وحدة واحدة.. والأرز مقابل ثلاثة وحدات.. والدجاج خمسة وحدات.. واللحم ثمانى وحدات..

فعلم خالد لماذا يأكل الجميع الخبز.. وطلب دجاجاً وخبزاً. وأكل حتى شبع ثم اتجه مسرعاً إلى البحيرة.. وجلس بجوار الشجرة التي يجلس بجوارها دائمًا.

* * *

ظلَّ خالد جالسًا بجوار البحيرة.. ويسأَل نفسه هل ستأتي أُسْيِل كمَا أخبرته أَم تأخَّرَ الوقت فلن تأتي.. وإن لم تأتِ كيف سيقابلها مجددًا وعمله ينتهي مع انتهاء النهار.. ويحدث نفسه: لماذا تريدها أن تأتي يا خالد؟، فيجيب: أريد أن أخبرها بقصتي، وقد تساعدني.. إنها تبدو أكثر ذكاءً وثقافةً من الآخرين.. ثم سأَل نفسه: ألا يوجد سبب آخر؟.. فأجاب بعد صمت: لا.. ثم ضحك.. ربما.. حتى بدأت آلام جسده تشتد من ذلك المجهود الذي بذله.. وظل في انتظار أُسْيِل حتى مرَّ الوقت، وغابَ النعاس دون أن تأتي..

* * *

في صباح اليوم التالي، أسرع خالد إلى عمله الجديد.. ولكنَّه فوجى بثلاثة أشخاص يعترضون طريقه، ويوقفونه وأخرج أحدهم سكيناً.. ثم سأَلَه:

- أين نصيبينا من عملك؟

فأسأَله خالد في غرابة:

- نصيبيكم؟!!

رد أحدهم:

- نعم.. لتنا منك (وحدثنان ذكاءً) كل يوم.. هل تقبل أم لا؟

فقال غاضبًا:

- مقابل إيه؟

- أننا نحميك..

- لا.. لا أقبل ..

فقام أحدهم بكلمه ثم انهالوا عليه ضربًا حتى أسرع يامن الذي كان يمر بالقرب منه: ..

- لماذا تضربونه؟

رد أحدهم:

- إنه لا يريد أن يدفع لنا نصيبينا..

فقال يامن وهو يحاول أن يخلّص خالدًا من أيديهم :

- سيدفع.. سيدفع..

ثم نظر إلى خالد الذي سالت الدماء من شفتته:

- ادفع لهم وحدتين..

فنظر إليهم خالد :

- حسناً أقبل..

فرد أحدهم:

- حسناً.. ثم انصرفوا

فنظر خالد إلى يامن:

- مين دول؟

- إنهم لا يعملون.. ويجبوننا أن ندفع لهم وإلا تعرضوا لنا بالأذى..

- بلطجية يعني.. وعايزين إتاوة..

- أخي، إننا نحيا في زيكولا هكذا.. وقد تعوّدنا على ذلك..

خالد منفعلًا:

- تدفع من ذكائك مقابل حمايتك.. وفين الشرطة..

رد يامن:

- إنهم ليسوا مذنبين.. وقانون زيكولا لا يعاقبهم.. إنهم يريدون أن يبقوا أحياء..

وهذا لا يتعارض مع قوانيننا.. عليك أن تدفع وحدتين كل يوم، وأن ترضى بذلك..

فصالح به:

- ازاي أكون باخد سبع وحدات في اليوم، وأدفع وحدتين مقابل حمايتي، وأكل منين، ويتبقى لي إيه..

- عليك أن تبذل جهداً أكبر لتتوفر أكبر قدر من أجرك.. ربما يساعدك مخزونك الكبير قبل أن تأتي إلى هنا والذي قد يصل إلى الألف وحدة.. ولكن نصحيتك إليك.. إياك أن تقترب مجدداً من مخزونك من الذكاء.. إنه كفيل بأن يبعدك عن الفقر..

فهمس خالد:

- أتمنى..

فابتسم يامن :

- حسناً.. هيا إلى العمل.. ما رأيك في منافسة كبيرة اليوم..

* * *

مرت الأيام.. وخالد يعمل مع يامن في صناعة الطوب من الأحجار.. وتمر يوم بعد يوم، وخالد ينهض من نومه، ويتجه إلى عمله، ويدفع الوحدتين مقابل حمايته.. ثم يذهب إلى عمله فيحطم الصخور بفأسه.. وأصبح شعره الناعم طويلاً بعض الشيء، كما غطت لحيته الناعمة وشاربه، وجهه، وكبرت عضلاته.. وأصبح الكثير من أهل المدينة يلقبونه بالغريب القوي..

يسير في شوارع المدينة.. ويضحك مع هذا وذاك.. ثم يأكل الدجاج والخبز كعادته.. ويعود إلى البحيرة مرة أخرى فيلقي بنفسه في ماءهاكي يريح جسده من عناء العمل.. ويظل ينتظر أسيل كل يوم.. ويرفض أن يقابل يامنا ليلاً.. ويحدث نفسه: ربما ستأتياليوم.. وتتمر الأيام دون أن تأتي.. حتى أدرك أنها قد نسيت وعدها له بأن يكملا حدثهما بعدما لم يرها منذ حدثهما السابق والوحيد.. ويظل ساهراً على شاطئ البحيرة حتى يغلبه النعاس فينام.. ثم يأتي صباحاليوم التالي.. ويكرر ما فعله في يومه السابق.. وعادت إليه نضارة وجهه، واختفى شحوبه بعدما شعر أنه

عُوض ما فقده من ثروته حين دخل زيكولا أول يوم.. حتى جاء يوم ووجد يامناً،
فحدثه :

- يامن.. أنا محتاج أقلام وورق ..

ردًّا يامن في دهشة:

- لماذا؟ !

فأجابه:

- يعني.. فيه حاجات عايز أسجلها عن زيكولا.. أستغل فترة وجودي هنا بعد ما فات
شهر..

- حسناً.. أعرف مكاناً يمكنك أن تذهب إليه، وتجد أقلام وأوراق زيكولا المميزة..
ثم تابع مفتخرًا: بالطبع لا توجد صناعة أفضل من صناعة زيكولا.. وأكمل:

- إنه مكان يباع به الكتب.. وأعتقد أنك ستجد مرادك هناك..

* * *

أراد خالد أن يسجل لحظاته التي يعيشها في زيكولا.. لعله يخرج منها ذات يوم،
وتكون تلك الأوراق التي يكتبهما ذكرى لأيامه بها.. أو يصنع منها كتاباً يقرأه الكثيرون
غيره.. وكان هناك سبب آخر؛ فقد جال بخاطره أن تأتي أسيل ذات نهر إلى البحيرة
فلا تجده.. فقرر أن يكتب ورقة ويتركها بجوار شجرته.. ويخبرها بأنه في عمله، وأنه
ينتظرها كل مساء.. وربما كان هذا السبب الذي أشعل حاجته إلى الأقلام
والأوراق.. حتى وصل إلى المكان الذي وصفه يامن.. وطرق بابه الخشبي، ودخل..
فوجد حجرة كبيرة مليئة بالكتب.. وجلس بها رجل عجوز وحيداً.. فاندهش خالد
من هذا الكم الهائل من الكتب المتراصبة، حتى قال العجوز:

- يبدو أنك الغريب القوي..

فأجابه خالد:

- نعم.. ولكن كيف عرفت؟!

رد الرجل: إنني أعرف الكثيرين من أهل المدينة..

فابتسم خالد ثم سأله:

- مين اللي كتب كل الكتب دي؟!

رد العجوز:

- إنهم علماء زيكولا القدامى.. وهناك من الكتب ما ينتمي إلى البلاد الأخرى.. إن زيكولا تهتم بالعلم والعمل..

فتسأله خالد:

- وأهل زيكولا قرأوا الكتب دي؟

أجابه العجوز:

- الكثيرون منهم قرأوا..

خالد: يعني الكتب دي حققت لك ثروة كبيرة..

رد الرجل:

- لا.. ليست إلى هذا الحد.. إن أسعار الكتب رخيصة للغاية.. ثم صمت، وتهجد:

- ربما كفاني أن أبيع كتاباً واحداً مثل كتاب بعثه..

سأله خالد متشرقاً:

- أي كتاب؟

رد العجوز:

- كان كتاباً قد اشتراه مني رجل بأغلى سعر شهدته زيكولا..

فاندهش خالد:

- لازم كان كتاب ثمين..

ابتسم العجوز:

- لا أعتقد هذا.. وقتها لم أقرأ منه سوى سطور.. ولكنني حين رأيت ذلك الرجل يحتاجه بقوة طلبت منه أغلى سعر.. ثم ضحك، وتابع:

- يبدو أنه كان يحب الخيال.. إن الكتاب كان يتحدث عن أرض أخرى.. وعن وهم يسمى سرداد فوريك..

* * *

(8)

تسارعت ضربات قلب خالد، وانتفخت عروقه بدماهه حين سمع العجوز ينطق
كلمة "سرداب فوريك" وأرضًا أخرى غير زيكولا.. وسألة في لففة:

- سرداب فوريك؟؟!!

رد العجوز:

- نعم.. أتذكّر هذا الاسم جيداً..

سؤاله مرة أخرى:

- والكتاب كان بيتكلم عن إيه في سرداب فوريك؟

رد العجوز في هدوء:

- لا أتذكر يا ولدي.. كان هذا منذ وقت طويل.

- والكتاب كان كامل؟.. مكتمل؟

- نعم يا ولدي..

خالد وقد بدا متوتراً:

- فيه منه نسخة تانية؟

رد العجوز:

- لا أعتقد.. إنني لم أر كتاباً يتحدث عن ذلك السرداد إلا ذلك الكتاب..

- وألاقي الرجل ده فين؟.. هو موجود في زيكولا؟..

أجابه العجوز، وقد اندھش من أسئلته الكثيرة :

- لم أر هذا الرجل إلا مرة واحدة.. قد يكون هنا في زيكولا، ولكنه ليس بمنطقتنا..

وقد يكون خرج منها.. لا أحد يدرى..

وسأله :

- لماذا أنت مهتم إلى هذا الحد.. هل تحب الخيال؟

رد خالد:

- أنا لازم ألاقي الكتاب ده.. الكتاب ده الأمل الوحيد لي لما أخرج من زيكولا.. ثم سأله:

- تقدر توصف لي الرجل اللي اشتراه؟

فصمت العجوز وكأنه يتذكر:

- كان رجلاً عاديًّا.. كان طويلاً مثلك، وكان ذا كتفين عريضين مثلك أيضًا..

ثم تابع بعدها صمت لحظاتٍ أخرى :

- وكانت لهجته غريبةً مثل لهجتك، تشبه لهجة تجار الشمال التي نفهمها بصعوبة..

فتسأله خالد على الفور:

- هل تذكر اسمه؟

فابتسم العجوز:

- إنني أتذكر اسمي بصعوبة..

فهمس خالد إلى نفسه:

- طويل.. وجسمه يشبه جسمى.. ولهجته غريبة.. وكان بيدور على كتاب سرداد فوريك.. معقول يكون هو؟

فقطاع تفكير العجوز:

- لماذا الصمت؟ أين شرد ذهنك؟

رَدَّ خالد:

- لا.. مفيش حاجة.. أنا محتاج أشتري أقلام وأوراق..

ابتسم العجوز: بالطبع يا ولدي.. لك ماشت..

* * *

اشترى خالد بعض الأوراق والأقلام التي احتاجها.. كانت الأوراق سميكةً بعض الشيء تميل إلى الصفرة.. أما الأقلام فكانت أسطوانات خشبية رفيعة ذات سن مدبيب، وبداخلها خزان صغير للحبر.. واحتوى معها زجاجة من الحبر الإضافي.. وانصرف عائداً إلى البحيرة، وتفكيره لم يتوقف لحظة واحدة منذ حدث هذا العجوز.. يسأل نفسه:

- معقول يكون الرجل اللي اشتري الكتاب هو والدي؟!!

ثم يعود لنفسه:

- ليه لأ؟ الكل كان بيقول إني طويل زيه.. واني عريض برضه زيه.. وكمان نزل السرداد.. وكلام العجوز، وإن لهجة الرجل كانت غريبة.. أكيد هو..

ثم نظر إلى السماء:

- معقول يكون لسه عايش هو وأمي.. معقول أشوفهم بعد السنين دي كلها.. هنا.. في زيكولا؟ !!

ونظر إلى البحيرة، وسأل نفسه:

- طب لو كان حد تانى؟

- ومين اللي هيشتري كتاب زي ده بأغلى سعر.. وهنا الناس كلها بخيلة، وكتاب زي ده ملوش أي قيمة عندهم؟

- ممكن يكون حد بيحب المغامرة.. عنده نفس الدوافع اللي نزلتك هنا.. أو ممكن يكون حد نزل السرداد غيرك أو غير أبوك أو أمك ..

- لا.. هو أبوك ..

- لا.. حد تانى..

- لا.. أكيد أبوك..

يجلس أمام نار أشعليها على شاطئ البحيرة.. ويواصل حديثه إلى نفسه:

- مهمًا كان الشخص ده، سواء كان والدي أو غيره.. معنى إن الكتاب موجود إن الأمل أصبح موجود..

- أكيد اللي كتب الكتاب ده، عارف ازاياقدر أرجع لمصر تاني..

ثم علا صوته :

- أنا لازم ألاقي الكتاب ده.. لازم.. حتى سمع صوًتاً من خلفه:

- أي كتاب؟

* * *

التفت خالد حين سمع هذا الصوت، ففوجئ بأنها أسيل وقد اقتربت منه.. فنطّق مبتسمًا:

- أسيل؟!

فردّت مبتسمة:

- نعم.. ثم سألته بعدما جلست بجواره:

- هل تتحدث إلى نفسك هكذا دائمًا؟

فأجابها:

- أوقات.. بس أنا خلاص تفكيري مش قادر يتحمل..

- لماذا؟

- النهارده اكتشفت إن فيه أمل أقدر أرجع به لوطني.. بس أمل بعيد..

- أي أمل؟

- عرفت إن فيه كتاب...

فقطاعته أسيل:

- مهلاً.. أتعلم أني لا أعرف اسمك بعد أيها الغريب.. وتابعت مبتسمة :

- لم تخبرني به المرة السابقة..

فابتسم خالد:

- اسمى خالد.. خالد حسني..

فابتسمت: خالد.. اسم جميل..

فتتابع :

- اكتشفت إن فيه كتاب تاني كان بيتحدث عن السرداد اللي جيت منه..

فسألته :

- أي سرداد؟!!

فأجاب:

- سردار فوريك..

- في الحقيقة أنا لا أفهم شيئاً.. لقد جئت اليوم كما أخبرتك أني أود أن أستمع إلى قصتك.. وكيف دخلت إلى زيكولا..

فابتسم مداعبًا لها:

- أية جيتي.. بعد شهر !!

فابتسمت:

- نعم، كان شهراً مزدحماً بالعمل.. ولم يسمح وقتى أن آتى إلى هنا.. ولكنني دائمًا كنت أتذكرك.. ولم أنس إنقاذه للفتى دون مقابل.. وكنت أعلم أنني سأتمى إلى البحيرة يوماً كي أستمع إلى قصتك..

فضحك خالد :

- كنت في بالك؟!!

فأومأت برأسها:

- نعم.. لم تغادر تفكيري، لا أدرى لماذا..

فزاد سروره.. ثم سأله:

- هل كنت تنتظرني؟

- أنا.. لا.. ثم ابتسم:

- الصراحة.. آه.. و كنت بدأت أفقد الأمل.. بس المهارده كأنه يوم الأمل.. أعرف إن فيه كتاب موجود.. وإن أسيل الجميلة كمان هنا..

فاحمر وجهها خجلاً ونظرت إليه:

- هيأ حدثني عن بلدك.. وعن هذا الكتاب الذي وجدته..

فصمت قليلاً.. ثم بدأ يتحدث:

- انتي تعرف إني من أول ما دخلت إلى زيكولا من شهر.. ومحدش يعرف أي حاجة عن بلدي.. حتى يامن صديقي كل اللي يعرفه إن بلدي موجودة في الشمال.. وأنا مش عارف فين الشمال ده أصلًا..

وأكمل :

- في البداية كنت فاكر أهل زيكولا مجانين.. دلوقتي خايف اتكلم عن بلدي يفكروني أنا المجنون.. ثم نظر إلها وسألها:

- انتي هتصدقيني يا أسييل؟

فابتسمت، وقد ضاقت عيناها:

- نعم.. أرى أنك صادق يا خالد..

أكمل:

- أنا مش عارف فين زيكولا دي.. أو بيجانا اللي هي بلدى.. أول ما جيت هنا فكرت إن زيكولا من البلاد المعزولة اللي عمرى ما سمعت عنها.. زي البلاد اللي كنا بنشووفها في التلفزيون..

فقط اطعنه أسييل في دهشة:

- ماذ؟

فضحكت خالد:

- أكيد انتي متعريفيش التلفزيون.. بس هشرح لك كل حاجة بعددين.. وتتابع:

- المهم إني كنت مفكّر إن زيكولا معزولة.. وإن أهلها معزولين، وميعرفوش حاجة عن العالم.. زي الهنود الحمر كده لما اكتشفهم كريستوفر كولومبوس..

فقط اطعنه مجددًا:

- من؟ !!

فضحك خالد :

- أقولك على حاجة.. اسمعيفي وبس.. مش هتفهمي مني حاجة دلوقتي.. ثم سألهـا:

- انتي تعرفي مصر؟

أجابته وكأنها تسمع الاسم لأول مرة :

- مصر؟! لا أعرفه..

- طب تعرفي أمريكا.. الصين.. أفريقيا.. استراليا؟!

- ما تلـك الأسماء؟!

- دي أسامي بلاد العالم بتاعي.. أنا بـلـدي اسمها مصر.. بـنـتـكلـم نفس لغـتـكم.. اللغة العربية.. بـس بالـعامـيـة زي كلامـيـ كـدهـ.

- أه.. وأين مصر؟!

أجابـها:

- زي ما بـسـأل نفسـي بالـظـبـطـ أـينـ زـيكـولاـ.. هـتـكونـ نفسـ الإـجـابـةـ لـيـناـ..

فـسـأـلـتـهـ:

- هلـ هيـ كـبـيرـةـ مـثـلـ زـيكـولاـ..

فضـحـكـ وـسـأـلـهاـ :

- هوـ عـدـدـ النـاسـ فـيـ زـيكـولاـ كـامـ؟ـ؟ـ

فـابـتـسـمـتـ وـوـقـفتـ وـتـحـرـكـتـ تـجـاهـ الـبـحـيرـةـ.. ثـمـ إـنـتـفـتـ وـرـدـتـ:

- كـثـيـرـونـ لـلـغـاـيـةـ.. قـدـ يـتـعـدـىـ ثـلـاثـمـائـةـ أـلـفـ.. هـذـاـ غـيـرـ الـبـلـادـ الـأـخـرـىـ.. أـلـافـ أـخـرـىـ..

فـوـقـ خـالـدـ هوـ الـآخرـ:

- عـدـدـ سـكـانـ مـصـرـ فـوـقـ التـمـانـيـنـ مـلـيـونـ نـسـمـةـ..

فقط غير مصدقة:

- ماذ؟ !!

فأكمل ضاحكاً:

- أمال لو عرفتي عدد سكان بلد تانية اسمها الصين اللي عدى المليار.. ولا عدد سكان الهند.. أقولك.. عدد سكان العالم ينبع أكثر من ستة مليارات نسمة..

فنظرت إليه وبدأت تعد على أصابع يدها، وكأنها تخيل العدد ثم سأله:

- وكيف يأكل كل هؤلاء الناس؟

فڑحک قائلاً :

- اطمئنی.. کله بیاکل..

شم مسائلته:

- ومصر بליך.. حميلة؟.. تحمها؟!!

ابتسم خالد ثم نظر بعيداً إلى البحيرة.. وصمت مفكرة قليلاً.. ثم تنهى وتحدث:

- كان عندنا شاعر حمل اسمه صلاح حاهن قال:

أنا مص عندي أحب وأحمل الأشياء

رحمها وهي مالكة الأرض، شرق وغرب

وبحـا وـهـيـ مـرـمـةـ حـبـ حـبـ

استحياء وعلمة وفقه وعذف بالمعنى

وأكـهـا وأـلـعـنـ أـبـهـا بـعـشـةـ ذـي الدـاعـ..

ثم توقف وحدّثه أسليل وكأنّها ترد المزبد:

- مَاذَا بَعْدِهِ أَكْمَانٌ

فصححك:

- لا.. أنا حافظ دول بس..

فصححكت أسيل.. ثم أكمل خالد:

- العالم بتاعي بيختلف عن هنا كتير.. عندنا كهربا وإذاعة وتلفزيون.. وانترنت،
وبن التعامل بالنقود..

- مازا.. ما كل هؤلاء؟!

رد: مش هتفهمي قصدي لو قعدت أشرح لك سنة كاملة.. بس إحنا عالمنا متتطور
إلى حد كبير ..

فسألته:

- هل تعيشون بالفضاء؟

- لا لا.. إحنا بنعيش على الأرض.. وعندها مياه، وصحراء.. وبنات حلوة زي هنا..
فتغير وجهها ثم سأله على الفور بعدما تحدث عن جمال البنات:
وكيف جئت إلى هنا؟

- كنت في يوم زعلان.. فحب جدي يخفف عنّي، فكلمني عن سرداد تحت قريتي اللي
اسمهما اليهو فوريك.. اسمه سرداد فوريك.. ومن أول ما حكي لي، ومش عارف إيه
اللي حصل لي.. لقيت عندي رغبة قوية إني أنزل السرداد ده، وأكتشف اللي فيه..

* * *

بعدها ظلَّ خالد يحكِّي ما حدث له منذ نزوله إلى السرداد حتى وصل إلى تلك
الأرض.. وقابل الفقيرين بالصحراء.. وتشبّث بعريتها مع يامن.. ودخوله إلى زيكولا..
وعلمه أن التعامل بها بوحدات الذكاء.. ثم نظر إليها:

- لما شفت العربات، والأحصنة، والدروع، والسيوف.. فكترت إني انتقلت بالزمن في الماضي.. بس فوجئت إن الجميع هنا بيقولوا إننا في أواخر 2009.. وده نفس التوقيت في بلدي..

ردت أسميل :

- نعم نحن على اعتاب العام العاشر بعد الألفين..

أكمل خالد:

- دي الحاجة اللي هتجنني.. ومش قادر أستوعها.. ازاى احنا في 2009.. وحياتكم هنا بتقول إنكم من قرون؟!.. وتابع:

- ولما اتأكدت من إن التعامل بالذكاء فعلًا مش كلام مجاني.. بقى متأكد إن السحر هنا مسيطر على المدينة.. أنا خلاص مش قادر أفكـ.

فقطاعته:

- لا أعتقد أنك محق بهذا.. إن الحياة هنا هكذا.. لماذا لا تقول إن السحر يسيطر على بلدك أنت.. ويجعلكم تعاملون بطريقة أخرى.. كيف تعاملون بورق؟!.. أرى هذا سحرًا في بلدي القديمة بيجانا كنا نتعامل بالمقايضة.

ردد خالد: أية المقايبة حاجة طبيعية..

- هنا في زيكولا التعامل هكذا يا خالد.. هل كانت عملية بلدك مصر في كل البلدان؟
- لا.. كل بلد لها عملية..

- وهكذا هنا.. العملية الذكاء.. لست أنا أو أنت من فرضها..

فصمت لحظات ثم قال :

- الواقع دلوقتي بيقول إنه اتحكم علينا إني أفضل سنة كاملة في زيكولا.. ونفسى السنة دي تعدى بأقصى سرعة.. نفسى أرجع لبلدي.. أرجع لحياتي الطبيعية..

وعاد بظهره.. وأسنده إلى الأرض واضعاً يديه خلف رأسه.. ونظر إلى السماء.. حتى
نقطت أسلوب:

- قصتك غريبة بالفعل يا خالد.. ولو سمعها غيري لظن أنك مجنون ثم ابتسمت:
- ولكنني أصدقك.. ولن أتركك حتى تحدثني عن التل.. أون هذا.. في القريب.. ولكن ليس الآن..

فابتسم ثم تذَكَّرْ شيئاً وقام مسرعاً إلى جانب الشجرة.. وحدّثها:

- أنا عندي دليل..

ثم عاد إليها.. ومعه ساعة يده التي توقفت.. فسألته:

- أهذا التلفز ..ون..؟ !!

فڑحک خالد:

- لا.. دى ساعه.. بتحسب ليها الوقت..

فنظرت إلى الساعة بدهشة:

- اثرا عجيبة ..

فاتسون:

- لو كانت بتشتغل كنت قلت لك أقبليها هدية.. بس دي ملياش قيمة دلوقتي..

فایل سمت:

- انک کرم..

ثم نظرت الى الساعة:

- كيف تقيس تلك الآلة الوقت؟.. إننا هنا نقىسه بطريقة أخرى تماماً.. إنه عمل يقوم به أشخاص، ويأخذون راتبهم.

أحاجي:

- في الحقيقة أنا مش عارف هي بتقيس الوقت ازاي.. ثم سألهما وكأنه يريدها أن تبقى معه مدة أطول وألا تغادر:

- هو الوقت بيتحسب ازاي في زيوكولا؟

أجابته :

- ترى ضخامة سور زيوكولا.. كلما أشرقت الشمس حتى تشرق اليوم التالي يحسب يوماً. وتنفتح علامة على السور.. ثم تمر سبعة أيام فتنفتح علامة أخرى لل أسبوع.. وما إن يأتي الشهر بعد ثلاثة يومنا حتى تُفتح علامة مختلفة.. ويأتي العام بعد إثنين عشرة من علامات الشهور.. فتنفتح دائرة مميزة.. إنهم عمال كثيرون ولهم أجر لعملهم.. يسمون (عُمال الوقت).. وأكملت :

- ولكن الغريب والذي لاحظته.. أنتا ندرك أنتنا في نهاية عام ألفين وتسعة.. وهذا لا أعتقد أنه يتواافق مع عدد الستوات على السور.. والتي لا تكمل نصف هذا العدد من السنين.. ولكنني لاأشغل بالي بهذا ..

فقال خالد:

- زيوكولا.. كل شيء غريب تجده في زيوكولا..

ثم أكمل:

- النهارده بالصدفة عرفت إن فيه كتاب تاني عن سرداد فوريك.. وإن حد اشتراه من سنين.. والكتاب ده بيمثل الأمل ليها.. وإنى أرجع لبلدي.. وتابع:

- الأكبر من كده إني حاسس إن اللي اشترى الكتاب ده ممكن يكون والدي..

فصمتت أسيل وكأنها تفكير ثم قالت:

- إبني لم أسمع عن هذا الكتاب من قبل.. ثم سألته:

- ماذا ستفعل؟.. هل ستسأل كل شخص عن هذا الكتاب؟

فأجابها: أنا هدور على الكتاب في كل مكان.. لازم ألاقي الكتاب.. أكيد الكتاب ده هو اللي هيجب عن كل أسلتي..

فابتسمت أسيل:

- أتمنى أن تجده.. وأن أستطيع مساعدتك يا خالد.. ثم نهضت:

- عليّ أن أغادر الآن.. لقد تأخر الوقت كثيراً، ولدي الكثير من العمل بالغد.. أظن أننا تحدثنا بما يكفي لحديث شهر كامل.. ثم أكملت، وهي تسير:

- ولكنني أحبيت هذا الوقت معك يا خالد..

* * *

غادرت أسيل، وظلّ خالد يقظاً.. يفكّر كثيراً ثم يقطع تفكيره بابتسامةٍ حين يتذكر حديثه مع أسيل.. وظلّ هكذا حتى أشرقت الشمس دون أن يغفو له جفن.. فاتجه مسرعاً إلى مكان عمله.. وكعادته قابل من يأخذون منه الوحدتين مقابل حمايته.. فأثار أن يعطيهم الوحدتين.. ثم وجد يامن فنادي عليه:

- يامن..

ردّ يامن:

- أهلاً خالد..

- عايز منك طلب.. عايز أشتري حصان ..

فسألة في دهشة:

- حصان؟!!

- أية؟

- لماذا؟!!

فلم يجد مفرًا إلا أن يخبر يامن بالحقيقة.. وأنه يريد ذلك الحصان كي يبحث عن الكتاب في جميع مناطق زيكولا.. حتى بدا يامن وكأنه لا يصدقه.. ولكن هذا لم يشغل بال خالد.. وطلب منه أن يدله على مكان لبيع وشراء الأحصنة.. حتى نظر إليه يامن متوجهًا قصته:

- إن هذا سيكلفك كثيراً.. ربما يكلفك مائة وخمسين وحدة..

رد خالد :

- أنا موافق ..

فتتابع يامن :

- خالد.. هذا سأخذ من مخزونك الكثير..

- مش مهم.. المهم إني ألاقي الكتاب..

- حسناً كما تريدين.. سأخبرك أين تجد مكانًا تبتاع منه حصانًا قويًا.. ولكن أين ستبحث؟.. نحن هنا في المنطقة الشرقية حيث باب زيكولا وأرض الاحتفال وصناعة الطوب.. هناك أربعة مناطق أخرى غيرنا.. المنطقة الشمالية، والمنطقة الجنوبية، والمنطقة الغربية، والمنطقة الوسطى التي يوجد بها الحاكم.. وكل منطقة تختلف عن الأخرى وعن منطقتنا.

فأجابه: أنا هدور في كل مكان.. لازم ألاقي الكتاب.. أو اللي اشتراه.

فتسأله يامن: وعملك؟ !

رد خالد:

- عندي مخزون كبير زي ما قلت..

- خالد.. أخشى أن تقترب من مخزونك كثيراً فتندم على ذلك..

- ده أمل مقدرش أتركه.. عرفني بس منين أشتري حصان ..

- حسناً.. ولكن ماذا إن وجدت الكتاب.. ولم تجد به ما ينفعك.. وقد أنفقت الكثير من ثروتك ، وجاء يوم زيكولا؟!

أجابه خالد:

- لو جه يوم زيكولا.. أعتقد إن هيكون فيه كتير أفقر مني.. وأنا واثق إني بالكتاب ده هقدر أرجع لبلدي.. حتى لو فقدت أكبر قدر من الذكاء..

فصمت يامن قليلاً.. ثم قال:

- ولكنك نسيت شيئاً هاماً لا تعرفه.. إن نجحت في ذلك فقدت جزءاً كبيراً من ثروتك.. ستعود إلى وطنك كما خرجت من هنا.. مريضاً.. لست ذكياً على الإطلاق.. لن يميزك عن غيرك سوى شيء واحد.. فسألة خالد متعجبًا:

- إيه هو؟

ردّ يامن:

- الغباء يا صديقي..

* * *

(9)

أخبر يامن خالدًا بأنه تجاهل شيئاً لا يعرفه، وأنه إن فقد ثروته مقابل ذلك الكتاب، سيخرج من زيكولا كما هو.. أقل ذكاءً.. لا يمتلك إلا الغباء.. فاتسعت حدقتا عينيه وكأن صاعقة أصابته:

- إيه؟!!.. أنت بتقول إيه؟!

ردّ يامن:

- تلك هي الحقيقة يا خالد.. عليك أن تحفظ بذكائك حين تخرج من زيكولا حتى تعود إلى بلدك كما كنت.. أو تعمل وتحقق ثروة فتعود أكثر ذكاءً.. أما إن فقدت ذكاءك هنا وقد خرجم.. ثم صمت قليلاً وأكمل :

- فكيف تسترد بعده ذلك؟

فصمت خالد مرة أخرى من الصدمة.. وحدّث نفسه في ضيق:

- الكتاب أو الغباء.. ثم غضب، وترك يامنًا الذي علا صوته تجاهه:

- ماذا ستفعل.. أما زلت ت يريد أن تشتري حصانًا؟

فلم يجبه وسار هائماً مبتعداً عن مكان العمل، لا يعلم ماذا سيفعل وماذا يقرر..

* * *

غادر خالد مكان عمله.. وما إن غادر حتى وصلت أسيل إلى ذلك المكان، وكأنها تبحث عنه.. وسألت بعض الفتياًن أين تجده.. فأخبروها بأن تجد يامناً صديقه المقرب.. حتى وجدت يامناً الذي كان يعمل بقطع الصخور.. فسألته:

- أنت يامن؟

فنظر إليها مندهشاً:

- أسيل الطيبية !!! نعم، أنا يامن ..

فسألته: أين خالد؟

فزادت دهشته، وسألها:

- تريدين خالداً؟!

ردّت: نعم ..

- لقد غادر العمل غاضباً..

فسألته في لففة: لماذا؟!

- إنها قصة طويلة.. ربما لن تصدقها..

فصمت قليلاً ثم سأله:

- الكتاب؟!

- أتعرفين قصة الكتاب؟!

أجبته: - نعم.. أعرف كل شيء.. لماذا غادر غاضباً؟

فأخبرها بقصة ذلك الحصان الذي يريد خالد شراءه كي يبحث عن الكتاب في

أرجاء زيكولا.. وأكمل حديثه حين قال:

- والآن لا أعرف أين هو.. فابتسمت أسيل :

- ولكنني ربما أعرف ..

ثم شكرته، وغادرت.. وابتسم يامن حين غادرت قائلاً: لم أرها في حياتي تهتم

بشخص هكذا ..

* * *

وصل خالد إلى شاطئ البحيرة مرة أخرى، وجلس والحزن والضيق يكسيان وجهه.. ثم اتجه إلى أغراضه بجوار شجرة البحيرة.. وأخرج أفلامه وأوراقه التي اشتراها.. وقرر أن يكتب أي شيء.. لا يدري ماذا يكتب، ولكنه يعلم أنه لا سبيل للخروج من ضيقه سوى أن يكتب.. كما كان يفعل دائمًا حين يرفضه والد مني، وكان يكتب وريقاته، ويفعلها على حائط غرفته.. وأمسك بقلمه.. وببدأ يرسم خطوطاً، ويكتب كلمات غير مفهومة.. حتى كتب: "ماذا أفعل؟.. بعدها فوجئ بأسهل تقترب منه.. وقالت مبتسمة :

- كنت أعرف أنني سأجذب هنا.. وسألته:

- لماذا لم تعمل اليوم؟
 فأجابها غاضبًا :

- وأشتغل ليه؟!.. أنا كرهت كل حاجة هنا ..
 فابتسمت في هدوء.. ت يريد أن تخفف من غضبه:
 - حسناً.. ماذا فعلت بعدم تركتك بالأمس؟
 فأخبرها بأنه لم يفعل شيئاً.. وظل يقظاً حتى أشرقت الشمس فتابعت:
 - لست وحدك من أصحابك الأرق.. أنا أيضًا لم أنم..
 فنظر إليها في دهشة.. حتى أكملت:

- كنت أفكر كيف تجد كتابك..

ثم سارت بضع خطوات بعيدة عنه.. بعدها التفتت إليه وقالت:
 - ت يريد أن تبحث في كل مناطق زيكولا.. وأنا أريد أن أساعدك في هذا..
 ثم ابتسمت:
 - وهنا في زيكولا لا أحد يساعد غيره دون مقابل.. ثم صمتت ببرهةً وأكملت:
 - وأنت لا ت يريد أن تعمل.. ثم نظرت إلى أسفل:

- ولهذا لن أستطيع مساعدتك ..

ثم سارت بضع خطوات أخرى.. وتحدّثت إلى نفسها بصوٍ يسمعه خالد :

- ولكن ربما يفكر خالد الذي.. ويريد أن يعمل.. وبعدها قد يساعدك عمله ..

فنظر إليها خالد :

- أنا مش فاهم حاجة ..

فابتسمت أسيل :

- خالد.. أنا أذهب إلى كل مناطق زيكولا عدا المنطقة الشمالية.. وجئت إليك

اليوم كي أقدم لك عرضًا ..

فسألها في دهشة :

- عرض؟!!

أجابته:

- نعم.. ما رأيك أن تأتي معي إلى تلك المناطق، وتعمل مساعدًا لي جزءًا من اليوم..

وقد أتيتك أحد أحصنتي إن احتجتني باقي اليوم لبحث عن صاحب الكتاب كما

تشاء بالمكان الذي تتوارد به..

ثم أكملت وأشارت إليه بأصبعها:

- ولكن عليك أن تعود إلى مبكراً في اليوم التالي.. أنا أحب أن يتلزم من يعمل معي..

خالد ومازالت الدهشة منتبعة على وجهه:

- أعمل معك؟!!

- نعم ..

- بس أنا مبفهمش حاجة في الطب ..

فسألته:

- وكيف أنقذت الفتى؟!

أجابها:

- زي ما قلت لك قبل كده، دي دورة إسعافات أولية.. بس مش معنی كده إني بفهم في الطب..

- حسناً.. أشعر أنك ستعلم كثيراً.. وقد نجد غرق، فلن أجد أفضل منك لإنقاذهن ..
فأسألهَا:

- أسيل.. هو انتي الطبيبة الوحيدة في زيكولا؟

ردت:

- لا.. هناك العديد من الأطباء.. ولكنني أكثر مهارة.. وهذا ما جعلني طبيبة الحاكم وأسرته.. وطبيبة زيكولا الأولى رغم سني الصغيرة ..
ثم سألته :

- هل توافق؟

فسمت مفكراً، وطال تفكيره.. فالتفتت أسيل، وسارت خطوات مبتعدة عنه..
وقالت:

- أرى أنك حقاً لا تحب الطب.. وابتعدت.. حتى نطق خالد بصوت عالي:
- أسيل.. أنا موافق..

فابتسمت دون أن تُرِيه وجهها.. وقد ضاقت عيناهما بعدما سمعت كلماته.. ثم توقفت، والتفتت إليه مجددًا:

- حسناً يا مساعدتي.. عليك أن تعدد نفسك، وأن تنام جيداً اليوم.. غداً سندهب إلى المنطقة الوسطى التي يتواجد بها حاكم زيكولا..

* *

غادرت أسيل، أما خالد فقد امتلك من السعادة ما لم يمتلكه من قبل في زيكولا.. حتى كاد يرقص فرحاً. وحدّث نفسه: أنا مساعد أسيل.. أنا مساعد أسيل ..

ثم عاد مسرعاً إلى أغراضه.. وأمسك القلم من جديد، وبدأ يكتب.. بعدهما فكر قليلاً: "أسيل.. تلك الحورية التي وجدتها في زيكولا.. ربما كنت أظنهما جميلة الوجه فقط حين رأيتها للمرة الأولى.. ولكنها تمتلك كل ما هو جميل.. إن اليوم أسعد أيامي في تلك المدينة..".

ثم ترك القلم، ووضع الأوراق بجواره، ثم أخفاها بأغراضه.. ونظر إلى ملابسه.. وحدّث نفسه بأنه اشتراها حين دخل إلى زيكولا منذ أكثر من شهر، ولا يمتلك غيرها.. فعمز على أن يذهب إلى شوارع المدينة.. وأن يشتري زياً جديداً يناسب وظيفته الجديدة.. وذهب بالفعل، واشترى زياً ليس بغالٍ الثمن.. وقد اندهش باعث الملابس.. وسألَه :

- كيف تشتري زياً آخر بعد شهر واحد فقط..

ولكن خالد لم يعبأ بذلك.. وعاد إلى شاطئ البحيرة مرة أخرى.. وظل هناك حتى حل الليل، وهو ينتظر أن يأتي صباح اليوم التالي في أسرع وقت ..

* * *

في صباح اليوم التالي.. نهض خالد من نومه، وكعادته ألقى بجسده في البحيرة ببنطاله القديم.. بعدها ارتدى زيه الجديد.. وظل في انتظار أسيل حتى وجد عربتها، يقود حصانها سائق، ت قرب.. فأسرع إليها.. وركب العربية بجوارها.. وتحركت العربية في اتجاهها إلى المنطقة الوسطى.. بعدها نظرت أسيل إلى زيه الجديد:

- مبارك عليك الزي الجديد..

صحيحة خالد:

- لازم مساعدك يشرفك في أي مكان.. ثم سألهَا:

- إحنا هنعمل إيه في المكان اللي إحنا رايحين له؟

ردت أسيل:

- المنطقة الوسطى يعيش بها الحاكم وأسرته.. وقد أرسلوا إلى كي أذهب إلى هناك اليوم.. قد يكون أحدهم مريضاً..

فسألها:

- طب ليه انتي مش ملزمة الأسرة الحاكمة طول الوقت؟!

أجابته:

- لقد طلب مي الحاكم ذلك بالفعل.. ولكنني رفضت..

خالد في دهشة:

- رفضتني؟!

أجابته مبتسمة:

- نعم.. لا أريد أن أكون أسييرة مكان بعينه.. حتى لو كان الحاكم..

خالد وهو ما زال مندهشاً:

- تقدري ترفضي طلب للحاكم؟!

- إنه حقي.. ولدي من الحرية ما يجعلني أتحكم ببارادي.. وأنا أحب الانطلاق.. لا أريد أن يقيّدني أحد..

فصمت خالد ثم سألها سؤالاً جال بخاطره:

- هو نظام الحكم هنا في زيكولا ملكي؟

ردت أسيل:

- لا.. إن حاكم زيكولا يظل بالحكم خمس سنوات.. ثم يأتي حاكم غيره يختاره أهل زيكولا..

فاندھش خالد كثیراً:

- خمس سنوات بس؟؟!!

- نعم ..

- ومفیش تجديد؟!

- لا.. كل حاکم له خمس سنوات فقط.. ألا تکفي تلك المدة.. أرى أنها کافية لکل حاکم هنا کي يأتي غیره، ويکمل مسیرة التقدم زیکولا، ويستفید من أخطاء من سبقة.. ولهذا زیکولا تتقدم عن البلاد الأخرى.. ألسنم كذلك في بلدك؟
ضحك خالد ثم فرك شعره.. وصمت، وحاول أن يختلق موضوعاً آخر للنقاش..
ثم حدث نفسه:

- أنا دلوقت متأکد إن زیکولا ليست لها أي صلة بالوطن العربي إلا اللغة العربية..
حتى قاطعته صمته أسلیل:

- لماذا الصمت؟

فضحک: لا.. ولا حاجة.. لسه وقت كتير على المنطقة الوسطى؟

فنظرت أسلیل من نافذة العربية ثم أجبته:

- لم يتبق إلا القليل.. ثم تابعت:

- ستساعدني حين يكون عملي مع الرجال فقط.. أما النساء فلا أريد مساعدتك في شيء..

فضحک خالد مداعباً لها:

- ليه؟

فابتسمت ثم أکملت:

- يمكنك أن تتصرف وقها.. وأن تبحث عن كتابك.. ولحسن حظك تلك المنطقة صغيرة.. لا يوجد بها سوى قصر الحاكم، وبعض قصور الأثرياء..

* * *

مرّ الوقت.. ووصلت العربية إلى تلك المنطقة التي يقصدها.. ونظر خالد من نافذة العربية، واندهش حين وجد تلك القصور العالية وزخارفها الرائعة التي تُزيّنها من الخارج.. وشاهد الكثير من الحراس يقفون أمام قصر فعلم أنه قصر الحاكم.. حتى توقفت أمامه العربية، ونزلت أسيل ومعها خالد حاملاً حقيبته القامashية.. واتجها إلى داخله.. وخالد يتلفت حوله كلما سار، ويشاهد البراعة المعمارية مستمتعاً، ولاحظت أسيل ذلك بعدها تلألأ في خطواته.. فحدّثته مبتسمة:

- على مساعدى أن يسرع.. ليس هناك وقت للتأمل..

فابتسم، وأسرع حتى دخلا معًا إلى بيت القصر.. وهناك وجد رجلاً تبدو عليه الفخامة والنفوذ.. وبجواره العديد من الأشخاص الذين بدا عليهم الثراء أيضًا.. يرتدون ملابس مزركشة يكفي ثمن إحداها لإنقاذ عشرات الأشخاص من الذبح، ثم انحنت أسيل.. وانحنى معها خالد.. بعدها تحدث الحاكم إلى أسيل:

- لقد جئت في موعدك أيتها الطيبة.. ثم سألهما:

- من هذا؟ وأشار إلى خالد..

فأجبت: إنه مساعدى يا سيدي..

فتتابع الحاكم:

- لن تحتاجيه اليوم.. لا أريدك فقط سوى أن تداوى زوجتي.. أشعر أنها ليست بخير في الأيام السابقة..

فانحنىت أسيل مرة أخرى.. ثم عادت إلى خارج بيت القصر.. ومعها خالد وحدّثته مبتسمة:

- أرى أنك محظوظٌ.. لن تعمل اليوم، ولكنني سأرهقك بالعمل في الأيام القادمة..
ثم أشارت إليه أن ينصرف:

- لك اليوم بالكامل.. ابحث عن كتابك.. ربما تجد ذلك الشخص الذي اشتراه هنا..
أما أنا فعليّ أن أرى زوجة الحاكم.. لعلها بخير..

ابتسم خالد، وتركها وغادر.. وهو يحدث نفسه:
- أسيل.. حورية زيكولا..

* * *

انصرف خالد.. وبدأ يسأل كل من يقابلة عن شخص طويل وعريض مثله، ولهجته غريبة أيضاً، ولكنه يكبره سنًا، ويتكلم عن الخيال.. أو عن شيء يُسمى سرداد فوريك.. فلم يجد من يسألهم سوى علامات الدهشة والغرابة.. ولم يكن يعلم أحد - من يعلمون بقصر الحاكم - شيئاً عن ذلك الشخص الذي يقصده.. بعدها خرج من القصر.. واتجه إلى القصور الأخرى، ويعلم أنه سيجد صعوبة فيما يفعله.. ولكنه عزم على أن يتمسك بأمله.. وأن يحاول في سبيل حلمه بالعودة إلى بلده.. وبدأ يسأل الناس من جديد.. ولكنه كلما سأله أحداً عن ذلك الشخص أو ذلك الكتاب لم يجده.. وظل يسأل كل من يقابلة.. دون جدوى.. ومز الوقت وأصابه التعب، وبدأ اليأس يتسلب إلى قلبه حتى مَر عليه شخص فساله.. فأخبره بأن هناك مبني كبيراً به الكثير من الكتب.. يُسمى مكتبة الحاكم لعله يجد ذلك الكتاب به ..

أسرع خالد إلى ذلك المكان الذي وصفه له الرجل مقابل وحدتين من ذكائه.. وهناك وجد شخصاً يعمل به.. فسألته عن ذلك الكتاب لعل صاحبه قد باعه أو أهداه إلى تلك المكتبة.. فلم يجده الشخص.. وأخبره بأنه لا يعلم كثيراً عن تلك الكتب..

وسمح له أن يدخل إلى المكتبة مقابل خمس وحدات أخرى من ذكائه.. ووافق خالد على ذلك.. واتجه إلى داخل المكتبة..

بعدها بدأ خالد يبحث بين الكتب.. ويبحث بين الورicات المتناثرة.. يبحث في كل مكان بتلك المكتبة.. لا يريد أن يترك شبراً لا يبحث به.. ويستريح لبعض الوقت ثم يعاود بحثه مجدداً حتى لا يُضيّع وقته.. ويزيح الأتربة المتراكمة على بعض الكتب.. ويجلس من يعمل بتلك المكتبة يشاهد دون أن يساعد.. وخالد يواصل بحثه.. يحاول أن يجد أي عنوان لكتاب يمتد بصلة إلى سرداد فوريك.. ولكن دون فائدة.. فقد مر الوقت وأكمل بحثه دون أن يجد ما يريد، وغادر وعاد إلى أمام قصر الحكم فوجد أسيلاً في انتظاره بالعربة.. فسألها إن كانت قد انتهت هي الأخرى من عملها فأجابته بأنها انتهت من عملها بالفعل.. ثم سألها لماذا لم تغادر؟ فأجابته مبتسمة :

- وهل أغادر دون مساعدتي؟!.. هيـا.. ثم أمرت السائق أن يتحرك بهما إلى البحيرة..
بعدها سألهـ :

- هل وجدت شيئاً؟

ردـ خالد:

- للأسف لا.. سـلت ناس كـثير بـس مـلقتـش أي جـواب..

- لهم العذر في ذلك.. إنـك تـبحث عن شيء صـعب للـغاية.. تـبحث عن شخص لا تـعرفه.. وعن كتاب لم يـسمع به أحد..

- عـارـف إنه أـمـل ضـعـيف.. بـس لـازـم أـتـمسـك بيـه .

فـابتـسمـتـ أـسـيلـ:

- لا تـحزـن يا خـالـد.. إنـك مـازـلتـ بـاليـوم الـأـوـلـ منـ الـبـحـثـ.. وـعـلـيكـ أـنـ تـسـعـدـ بـأنـكـ اـنـتـهـيـتـ مـنـ مـنـطـقـةـ بـأـكـمـلـهـاـ.. حـتـىـ لوـ كـانـتـ صـغـيرـةـ.. ثـمـ صـمـتـ،ـ وـأـكـمـلـتـ:

- لـديـ خـيرـ سـيـجـعـلـكـ سـعـيـداـ..

نظرـ إـلـيـهـاـ خـالـدـ فـيـ لـهـفـةـ:

- إيه هو؟

ردت أسيل :

- لقد اكتشفت أن زوجة الحكم ليست مريضة.. وإنما ستستقبل مولوداً قريباً..

- حامل؟

- نعم.. وأرى من أعراض حملها، أنه قد مر ثلاثة أشهر على حملها..

فسألها مندهشاً:

- وأنا أكون سعيد ليه؟

ردت أسيل:

- إن أجبت ذكرًا سيكون هناك احتفال لأهل زيكولا بذلك الطفل تكريماً للحكم..

وينقام يوم زيكولا بعد مولده بسبعة أيام.. وبالطبع سيُفتح باب زيكولا قبله بيوم،
ويندبح أفقر من بالمدينة أيضًا..

ثم أكملت:

- هذا يعني أن يوم زيكولا قد يكون بعد ستة أشهر فقط من اليوم..

ثم صمتت، ونظرت عبر النافذة، وملعت عينها بالدموع.. وأكملت:

- وقتها تستطيع أن تخرج من زيكولا..

* * *

(10)

لم يتمالك خالد نفسه من الفرحة، وكأنه لا يصدق أذنيه.. وشعر بأن ما قالته أسييل يجعله يرقص فرحاً.. ثم نظر إلى أسييل:

- سنت شهور؟!

ردت أسييل:

- نعم.. إن أنجبيت ذكرًا..

قال في فرحة، وهو ينظر إليها:

- أنا متأكد إنه هيكون ذكر.. عارفة ليه؟

- لماذا؟ !

((لأنك وش السعد عليا.. أحلى حاجة حصلت لي في زيكتولا..)) : قال تلك الكلمات، وقد غطت السعادة وجهه.. ثم تحدث إلى نفسه:

- سنت شهور.. يارب يكون ولد.. ثم نظر إلى أسييل:

- متتخيليش أنا فرحان أد إيه.. أنا نفسي زوجة الحكم تولد النهارده قبل بكرة.. فعادت أسييل إلى ابتسامتها الرقيقة بعدما شعرت بسعادة خالد بهذا الخبر.. وقالت:

- أنا أيضًا سعيدة لأنك تشعر بالسعادة.. كنت أعلم أنك ستكون سعيداً هكذا..

ابسم خالد ثم نظر عبر نافذة العربية إلى السماءظلمة.. والتي كان بها نجم مميز في تلك الليلة.. يضيء منفرداً بها ومبعداً عن مجموعة نجوم أخرى.. ثم طلب من أسيل أن تنظر إلى ذلك النجم الذي أشار إليه:

- شایفة النجم اللي هناك ده؟

ردت أسيل:

- نعم.. إنه وحيد ومميز..

فضحكت:

- أنا هسميه أسيل.. ثم صمت وتحدى بعد لحظات:

- لو رجعت لبلدي يوم.. أكيد هلاقي النجم ده في السما..

فضحكت أسيل:

- أرى أن الفرحة جعلتك شاعراً..

فضحكت خالد مكملاً حديثه مداعباً لها:

- أكيد النجم مش في جمال أسيل.. بس هو جميل ومميز زي ما أسيل جميلة ومحببة..

فاحمر وجهها خجلاً.. وصمتت، وطلت تنظر إلى خالد الذي صمت هو الآخر، وكأنه هام بفكرة.. وسرح بين أحلامه..

* * *

كانت العربية تسير مسرعة، وخالف وأسيل بداخلها يتحدثان أحياناً.. ويصمتان أحابين أخرى.. وظلا هكذا حتى وصلت العربية إلى البحيرة.. وتوقفت هناك، ونزل خالد ثم تحدث إليه أسيل:

- الأسبوع القادم سنذهب إلى المنطقة الجنوبية..

فابتسم، وأومأ برأسه موافقاً.. ثم أكملت:

- أمامك سبعة أيام.. عليك أن تعود إلى عملك هنا.. لا تضيع وقتاً دون عمل ..

فسألها مندهشاً:

- وعملي كمساعد ليكي؟!

فابتسمت:

- إن احتجت مساعدتك في هذا الأسبوع فلن أتردد في هذا.. ولكن هنا يساعدني الكثيرون.. ثمتابعت:

- أترك لك المساعدة في المناطق الأخرى.. ولذا أمامك أيام لا تضيئها بالجلوس على شاطئ البحيرة.. اذهب إلى عملك مع صديقك يامن، واجلب الكثير من الأجر..

فابتسم خالد.. وهز رأسه موافقاً..

* * *

تحركت العربية مجدداً.. وخالف ينظر إليها حتى اختفت عن أنظاره.. ثم اتجه إلى شاطئ البحيرة.. أما العربية فواصلت تحركها في أحد الشواطئ المُنارة بالنيران حتى توقفت أمام بيت كبير.. تبدو من واجهته الفخامة والثراء، وله باب ضخم.. ونزلت أسيل، ودلفت إلى داخل البيت المضاء بالشمع، والذي امتاز بسقفه العالي، وجدرانه المنقوشة من الداخل، والأثاث الخشبي والنحاسي المطعم بماء الذهب.. ثم صعدت السلم الداخلي، واتجهت إلى حجرتها.. وألقت بنفسها على السرير المتواجد بها.. ثم نهضت مجدداً، وجلست أمام مرآة كبيرة.. وابتسمت برقّة وهي

تنظر إلى صورتها المنعكسة، وإلى شعرها الأسود الناعم الطويل الذي بدأت تتحسسه بيدها من الأمام إلى الخلف.. بعدها هامت للحظات، وبدأت تتحدث إلى نفسها:

- ما سر هذا الشعور بداخلك؟ .. وأى شعور هذا؟ !

- هل هو سعادة أم حزن؟

ثم نظرت إلى صورتها مجدداً بالمرأة.. وتحدثت إليها:

- لماذا حزنت حين علمت بقرب خروج خالد من زيكولا..

- لا.. أنا لم أحزن..

- لا، حزنت.. نعم حزنت، ثم سألت صورتها:

- هل تحببنا؟!

صمتت قليلاً ثم أجبت نفسها:

- لا أعلم.. إنني لم أعرفه سوى أيام قليلة..

- ولكنك أحببته..

- ربما أحببت حديثه وجرأته..

- أو ربما أتعجبني اختلافه عن باقي رجال زيكولا البلياء.. البخلاء، الذين لا يفكرون إلا في جمع ثروة تفديهم من الذبح.. حتى إنهم يخافون أن يفكروا ويستخدموا ذكاءهم، فيقلل ذلك من ثروتهم.. نعم يعجبني أنه يختلف عن غيره..

ثم قامت، وتحركت إلى نافذة الحجرة.. وأزاحت ستارها، ونظرت إلى السماء، وابتسمت حين رأت النجم الذي سماه خالد.. أسيل.. وظللت تنظر إليه كثيراً ثم قالت:

- ولكنه سيرحل..

* * *

في اليوم التالي اتجه خالد إلى عمله القديم.. وهناك وجد يامناً فصافحه، وبدأ يعلّمان معًا بتنقية الحجارة.. واندهش يامن من تلك السعادة التي بدت على وجهه، وما تبعها من حماسة في عمله فسأله:

- خالد، أراك سعيداً اليوم.. هل هناك خطب ما؟ .. هل وجدت كتابك؟

ضحك خالد:

- لا.. ولكن فيه خبر فرحة.. ثم أكمل:

- احتمال آخر من زيكولا بعد ست شهور بس..

يامن في دهشة:

- ستة أشهر فقط؟!.. كيف؟!!

ابتسم خالد:

- يوم زيكولا احتمال يكون بعد ستة أشهر بس..

يامن وهو لا يصدقه:

- ماذا تقول؟ .. يتبقى أحد عشر شهرًا على ذلك اليوم..

- لا يا صديقي.. أنا هقولك سر عرفته..

ثم أخبره بأن زوجة الحاكم ستضع مولوداً بعد ستة أشهر.. وأن أسيلاً أخبرته بذلك فابتسم يامن:

- أنا سعيد لك يا خالد.. ولكنني كنت أتمنى أن تبقى هنا..

ضحك خالد:

- أنا بحبك جداً يا يامن.. بس نفسي أرجع لبلدي.. ثم نظر إليه حازماً:

- بس لو خرجت من زيكولا هعمل إيه؟.. عشان كده لازم ألاقي كتاب سرداب فوريك قبل الست شهور الباقين..

فابتسم يامن:

- أتمنى أن تجده.. وأن تحقق ما تريده.. ثم تابع:

- إن أطفال زيكولا سيكونون محظوظين هذا العام إن أقيمت يوم زيكولا..

فنظر إليه خالد، وكأنه يسأله عن السبب.. فأكمل يامن:

- إنهم سيشاهدون لعبة الزيكولا بعدما لم يشاهدوها المرة السابقة حين هرب الفقيران..

خالد في دهشة:

- لعبة الزيكولا؟!

رد يامن:

- نعم.. ثم تذكر أنه لم يحدث خالداً عنها من قبل.. فأكمل حديثه:

- لم أخبرك بها سابقاً.. إنها اللعبة التي يُقال إن أرض زيكولا قد سُمّيت بهذا الاسم نسبة لها.. هي في الحقيقة ليست لعبة.. إنها منافسة.. وينتظرها الجميع هنا.. فهي ما تحدد الأفقر بالمدينة..

سؤاله خالد: أزاي؟!

أجابه:

- قبل يوم زيكولا بعده أيام يقوم الجنود بجمع الأكثر مرضًا وشحوبًا بالمدينة.. يجمعون الكثيرين من الناس.. وهناك يحدد الأطباء من هم الفقراء ومن هم المرضى حقاً.. حتى يتبقى منهم عدد قليل.. وهنا يأتي دور أسيل الطبيبة.. وهي من تحدد الثلاثة الأكثر فقرًا.. ثم يأتي دور لعبة الزيكولا في اليوم السابق للذبح.. أي يوم فتح باب زيكولا..

وصمت قليلاً، وضربت صخرة بفأسه.. ثم أكمل حديثه:

- لعبة الزيكولا تكون أمام الجميع.. وهي ببساطة: قرص خشبي يدور بسرعة معينة، وبه ثلاثة أسماء تتطاول من ذلك القرص.. ويقوم نحّاتو زيكولا بنحت تمثال لكل فقير من الفقراء الثلاثة.. ويوضع هذا التمثال على بعد أمتار أمام قرص السهام.. وعلى كل فقير أن يختار ثلاثة أماكن بتمثاليه كي يحميه من السهام..

- من يصيبه أكبر عدد من السهام يكون هو الفقير المختار.. وهكذا لا يظلم أحد في زيكولا.

فأسأله خالد:

- ومنين اللي اخترع اللعبة دي؟

رد يامن:

- لا أعلم، فقد وجدناها منذ ولدنا.. إنها تجعل كل فقير مسؤولاً عن حياته وعن قدره.. ربما يكون هناك فقير قد اختير أيام كثيرة من أيام زيكولا.. ولكنه ينجح في اجتياز لعبة الزيكولا.. وهذا قدره.

ففقط أطلعه خالد:

- هي سهلة اللعبة دي؟

- في الحقيقة أراها أسهل ما يمكن.. والكثير منا يتمنى بالاماكن التي تصيبها السهام.. ولكن حين يصيبك الغباء فإنك لا تستطيع تحديد تلك الاماكن.. وتحمي مناطق أخرى من تمثالك.. ثم تابع:

- عليك أن تحافظ على ذكائك حتى تجد كتابك وترحل عن هنا.. ولذا هيأ.. واصل عملك.. ثم ابتسِم وأكمل:

- ما رأيك في منافسة كبيرة في تكسير الصخور أيها السعيد.

* * *

مرت الأيام يوماً بعد يوم.. وحالد يذهب إلى عمله لقطع الأحجار.. ويعود إلى البحيرة ليلاً، وجلس أمامها لبعض الوقت ثم يغلب النعاس متأثراً بارهاقه.. أما أسيل فكانت تواصل عملها في مداواة المرضى.. ثم تعود إلى غرفتها، وتظل تنظر إلى السماء عبر شرفتها.. تبحث عن ذلك النجم.. أسيل.. وعمدت ألا تذهب إلى البحيرة في تلك الأيام حتى تتأكد من حقيقة مشاعرها تجاه حالد.. ورغم الصراع الذي كان يشتعل بداخليها ما بين الرغبة في الذهاب إلى هناك أو المكوث بحجرتها.. إلا أنها فضلت البقاء بحجرتها.. حتى مر الأسبوع، وجاء يوم ذهابها إلى المنطقة الجنوبية.. فاتجهت بعربتها إلى البحيرة حيث كان حالد في انتظارها.. فسألته في ابتسامة:

- مساعدني.. هل أنت مستعد للعمل؟

فابتسم حالد:

- أجل..

* * *

ركب حالد العربية مع أسيل.. وبدأت العربية في التحرك فسألته بعدما وجدت بعض الأوراق تظهر بين أغراضه:

- ما هذا؟!

فابتسم حالد:

- فكرت إني أسجل بعض الأحداث هنا في زيكولا..

فابتسمت وسألته:

- وماذا كتبت؟

فضحك:

- في الحقيقة مكتبهش إلا حاجات قليلة.

فجذبت أسيل الأوراق.. وقالت:

- سأرى ماذا كتبت حتى الآن..
حتى وجدت تلك الكلمات التي كتبها عنها خالد.. وأنها حورية زيكولا فاحمر وجهها..
ونظرت إليه بطرف عينها دون أن تنطق.. فشعر خالد بالخرج بعدما قرأت كلماته
وضحك مداعبًا لها:

- لا.. دي أسيل نجمة السما.. فضحكت ثم قالت:
- إنني لم أقل شيئاً.. ثم صمتت.. وبذلت تقرأها من جديد.. وظلت تقرأها، وتكررها
أكثر من مرة في سرها.. حتى قاطعها خالد:
- أنا عرفت عن لعبة الزيكولا ..

فسألته: ألم تكن تعرف عنها حتى الآن؟
رد خالد: لا.. اللي كنت أعرفه إنك مسؤولة عن اختيار أفقر ثلاثة بالمدينة..
أسيل: نعم.. فأنا طبيبة الحاكم ..

فسألها خالد: أنتي بتعرفي الأفقر ازاي؟
ضحكت أسيل:

- إجابتي كلمة واحدة: الخبرة.. ثم أكملت :
- حين ينتهي أطباء زيكولا من عملهم.. يتبقى عدد قليل اختار من بينهم الأفقر.. قد
يكون هناك المريض حقاً، وبالطبع إن شككت بذلك؛ أعدته إلى دياره، وفي الحق في
ذلك دون أن يراجعني أحد.. أما الفقراء فشحونهم مميز.. وأستطيع بخبرتي أن أميز
الأفقر منهم..

فسألها خالد:
- وهنا الفقر بيكون يمتلك كام وحدة ذكاء تقريباً؟

- إنها مسألة نسبية.. قد يمتلك شخص عشر وحدات، ويكون هناك من يمتلك أقل منه.. وقد يمتلك ألف وحدة، ولكنه يكون الأقل فيكون الأفقر..

فصححك خالد.. وسألها مجدداً:

- انتي تقدري تعريني أنا أمتلك كام وحدة؟
فابتسمت أسييل ثم وضعت يدها على جبينه.. ثم ردت:

- تمتلك ما بين ثمانمائة وتسعمائة وحدة..

فنطق خالد خائفاً:

- بس؟!!

ابتسمت أسييل كي تطمئنها: إنه ليس بالقليل..
ولكن الكل هنا بيقول عليا غني..

- نعم.. ولكن هنا من يخبرك بأنك غني يعني فقط أنك لست فقيراً..

- عادةً الفقراء هنا يمتلكون مائة وحدة أو أقل.. وعليك أن تخيل كيف يصلون إلى تسعمائة وحدة إن كانوا يوفرون باليوم بعد احتياجاتهم الضرورية وحدة أو وحدتين.. قد يحتاجون عاماً أو اثنين أو ثلاثة كي يصلون إلى ذكائك، في الوقت الذي تكون أنت به قد ضاعت ذكاءك، وأصبحت تمتلك ضعف تلك الوحدات إن عملت بجد في تلك الفترة من الزمن.. وهكذا تظل غنياً في نظرهم..

فتذكر خالد شيئاً وسألها:

- ولكن الفقير اللي ذبح المرة اللي فاتت كان بيملك بيت ضخم.. ازاي يكون فقير؟
وكان ممكن يبيعه مقابل ثمن كبير؟!

ردت أسييل: ربما حاول أن يبيعه بالفعل.. ولكن ماذا لو لم يتقدم أحد لشرائه..
بالطبع سيفقد قيمته وقتها.. ثم أكملت:

- حين يقترب يوم زيكولا يخشى الجميع أن يُفرطوا في وحدة واحدة من ذكائهم.. ربما إن علموا بخبر مولود الحاكم فلن يشتري أحد أي شيء حتى ذلك اليوم..

بعدها سأله خالد مداعبًا لها:

- وأسيل الجميلة تمتلك كام وحدة؟

ضحكـتـ أـسـيـلـ :

- أـسـيـلـ تـمـتـلـكـ الـكـثـيرـ..ـ أـكـثـرـ مـاـ تـخـيـلـ..ـ

* * *

مرَّ الوقت، وسائق العربة يأمر الحصان أن يسرع.. وخالفـ وأـسـيـلـ يـكـملـ حـدـيـهـماـ بـداـخـلـ العـرـبـةـ..ـ حـتـىـ وـصـلـتـ العـرـبـةـ إـلـىـ الـمـنـطـقـةـ الـجـنـوـبـيـةـ..ـ وـنـزـلـ خـالـدـ منـ العـرـبـةـ حـامـلـ أـغـرـاضـهـ وـحـقـيـقـةـ أـسـيـلـ..ـ فـوـجـدـ تـلـكـ الـمـنـطـقـةـ تـخـتـلـفـ عـنـ الـمـنـطـقـةـ الـتـيـ يـقـطـنـ بـهـاـ وـعـنـ الـمـنـطـقـةـ الـحاـكـمـ..ـ فـكـانـتـ مـبـانـهـاـ صـغـيرـةـ..ـ تـتـكـونـ مـنـ طـابـقـ وـاحـدـ..ـ وـكـانـتـ الـمـبـانـيـ قـلـيـلـةـ وـمـتـلـاـصـقـةـ..ـ وـالـشـوـارـعـ بـهـاـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـحـصـنـةـ وـالـحـمـيرـ،ـ وـمـاـ نـتـجـعـنـ عنـ ذـلـكـ مـنـ روـثـ الـحـيـوـانـاتـ..ـ ثـمـ نـظـرـ فـوـجـدـ آـلـاتـ زـرـاعـيـةـ قـدـيمـةـ..ـ حـتـىـ تـحـدـثـ أـسـيـلـ قـائـلـةـ:

- لا تندesh.. إنها المـنـطـقـةـ الـجـنـوـبـيـةـ،ـ مـنـطـقـةـ الزـرـاعـةـ بـزيـكـولاـ..ـ الـجـمـيعـ هـنـاـ مـزارـعـونـ وـيـعـلـمـونـ بـأـرـضـهـمـ..ـ وـيـمـدـونـ زـيـكـولاـ بـالـقـمـحـ وـالـأـرـزـ وـبـاقـيـ الـمـحـاصـيلـ..ـ وـكـلـ أنـوـاعـ الـفـاكـهـةـ ثـمـ أـكـمـلـتـ:

- الـيـوـمـ سـتـسـاعـدـنـيـ..ـ لـنـ تـسـتـمـعـ بـالـرـاحـةـ كـيـوـمـ مـنـطـقـةـ الـحاـكـمـ..ـ

فـابـتـسـمـ خـالـدـ:

- حـاضـرـ..ـ

* * *

سارت أسيل ومعها خالد يحمل حقيبتهما في أحد شوارع تلك المنطقة.. ثم دخل أحد البيوت.. وكان كباقي البيوت: مكوناً من طابق واحد لا أكثر.. وهناك استقبلتهما سيدة تقترب من الخمسين من عمرها ثم صحبتهما إلى حجرة بالبيت حيث كان يرقد زوجها، وساقه اليسرى مضمدة.. فنظرت أسيل إلى خالد:

- خالد.. أريدك أن تساعدني بأن أبدل له تلك الضمادة دون أن أحرّك الجبيرة أو أسبب له ألمًا..

فأوْمأ برأسه ثم قام برفع قدم هذا الرجل وثبّتها على ذراعيه، وبدأت أسيل تفك الضمادة القديمة.. وخالد ينظر إلى ما تفعله حتى أخرجت ضمادة جديدة من حقيبتهما.. ثم أخرجت مادة عشبية خضراء اللون ولزجة.. ووضعت القليل منها على ساق هذا الرجل ثم بدأت تلف الضمادة حول جبيرة ساقه.. وسألها الرجل

- متى أعود إلى عملي؟

فأجابته:

- إن عظام ساقك لم تلتتم بعد.. إنها ما زالت تؤملك، أليس كذلك؟
رَدَ الرجل: بلـ.. ولكن يجب أن أعمل.. لم أعمل منذ شهر.. وأشعر أن ثروتي تقل..
عليَّ أن أعوّض ذلك..

أسيل وقد ابتسمت: عليك أن تصمد حتى تلتئم عظامك ثم تعوّض ما فاتك من عملٍ في أيامك القادمة ونظرت إلى خالد:

- هل رأيت يا خالد كيف أُلْفِي تلك الضمادة؟
خالد: أيوه.. دي سهلة..

أسيل: حسناً.. عليك أن تكملاها حتى أعود إليك.. هناك فتاة مريضة سأطمئن على حالتها وأعود..

خالد وقد تحدث مثلها: حسناً..

بعدها طلب خالد من الرجل أن يثبتت قدميه في وضعهما.. ثم بدأ يكمل لف الضمادة حول ساقه كما كانت تفعل أسيل فرأته أسيل يفعلها ببراعة فتركته، وغادرت كما أخبرته.. وظلَّ خالد مع الرجل المصابة يلف الضمادة حتى انتهى.. ثم سأل الرجل :

- انت عايش مع زوجتك فقط؟

ردَّ الرجل : نعم ..

خالد : وأولادك فين؟!

ردَّ الرجل في حزن :

- إِنْهُمْ كبارُ الْآنِ .. لَقَدْ ترکوْنِي بعْدَمَا قسَّمْتَ عَلَيْهِمْ أَرْضِي ..

خالد في دهشة : قسَّمتَ عَلَيْهِمْ أَرْضَكَ؟

الرجل : نعم .. فقد أجبروني على ذلك .. وتعذّوا علَيَّ أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ .. وأَقْسَمُوا أَنْ يقتلوني إنْ لَمْ أُعْطِهِمْ تلْكَ الْأَرْضِ .. ثُمَّ تابَعَ :

- إِنْهُمْ مُثْلَنَا يَخْشُونَ الْفَقْرَ .. وَبَعْدَمَا أَخْذُوهَا مَا أَرَادُوا ترکوْنِي ..

فهمس خالد إلى نفسه :

- لا رحمة في زيكولا ..

حتى فوجئ بامرأة تدخل فجأة .. وتصرخ سائلة :

- أين الطبيبة أسيل .. أين الطبيبة أسيل ..

ردَّ خالد :

- إِنَّهَا سَتَأْتِي بَعْدَ قَلِيلٍ .. مَا زَادَ تَرِيدِنِهَا؟!

أجبات المرأة وهي تبكي : إن ابني قد مرض فجأة .. ويبدو أن مرضه شديد، وأخشى أن يموت قبل أن تأتي الطبيبة ..

فنطق الرجل، وأشار إلى خالد:

- إنه مساعدها.. ويبدو أنه ماهر مثلها..

فنظر إليه خالد وقد رفع حاجبيه :

- لا.. أنا مش ماهر.. أنا مش طبيب..

فجذبته السيدة:

- أرجوك.. سأعطيك كل ما تريده.. أريد أن يعيش ولدي..

وظلت تجذبه وتتوسل إليه.. وفالد يحاول أن يقنعها بأنه لا يعرف عن الطب شيئاً.. ولكنها لم تصدقه فلم يجد إلا أن يذهب معها كي تهدأ.. ثم طلب من الرجل أن يخبر أسيلاً- حين تعود - عن مكانه..

* * *

ذهب خالد مع تلك المرأة، والتي كانت تجري حافية القدمين.. وتجرّ خالد وتصرخ:

- لقد كان صحيحاً.. إنه لم يمرض من قبل..

حتى وصلا إلى بيتها، والذي كان بسيطاً، ويوجد بمنتصفه حوضٌ كبيرٌ مليءٌ بالماء.. ثم دخلا إلى حجرة صغيرة كان يرقد بها الطفل فاقداً وعيه على سرير صغير.. وخالد لا يعلم ماذا يفعل.. ويحاول أن يقول إنه ما زال مساعداً جديداً لأسيل، ولكنها لا تدع له فرصة أن يقول شيئاً.. وتصرخ: إن ابني سيموت.. إنه لم يكمل العشرة أعوام..

وخالد يقف حائراً.. وينظر إلى الطفل دون أن يتحرك.. والمرأة تصرخ:

- إنه يعمل بحد.. لا يمر يوم إلا ويعمل رغم سنه الصغيرة.. لا تهمه حرارة الشمس.. كل ما يهمه هو عمله..

حتى نظر خالد فجأة إلى الطفل حين سمع صرخات أمه.. وتذكّر أن شمس هذا اليوم كانت شديدة.. واقترب من الطفل فوجد جلده جاف للغاية.. وحين لامس

جبينه وجده ساخناً بشدة، ووجد الطفل بهذى بكلمات غير مفهومة.. فقام بحمله، واتجه به إلى ذلك الحوض الذي يوجد بمنتصف البيت.. ووضعه به بملابسها، واندھشت أم الطفل مما فعله خالد.. ولكنها تركته يمضي فيما يعلمه حتى سألهما:

- فيه مياه أبرد من مياه الحوض؟!

فردت: لا.. ولكنني قد اشتري ماءً بارداً من جيرانى.. ثم خرجت مسرعة فاكمـلـ خالـدـ عملـهـ، وأخـرـجـ الطـفـلـ منـ المـاءـ ثـمـ وضعـهـ مـرـةـ أـخـرىـ بـهـ.. حتى عـادـتـ أـمـهـ، وـمعـهـاـ منـ تـحـمـلـ أـوـعـيـةـ بـهـاـ مـاءـ بـارـدـ، وـسـكـبـتـهـ بـالـحـوـضـ.. ثم أمرـهـاـ أنـ تـقـومـ بـفـتـحـ نـوـافـذـ الـبـيـتـ:

- أـريدـ أـنـ يـدـخـلـ الـهـوـاءـ الـبـارـدـ إـلـىـ هـنـاـ..

فـأـسـرـعـتـ الـأـمـ إـلـىـ النـوـافـذـ تـفـتـحـهـاـ بـعـدـهـاـ أـخـرـجـ الطـفـلـ منـ المـاءـ وـجـرـدـهـ منـ مـلـابـسـهـ.. وـوـضـعـهـ عـلـىـ أـرـضـيـةـ بـارـدـةـ، وـتـرـكـهـ لـفـتـرـةـ وـلـاـ يـعـلـمـ مـاـذـاـ يـفـعـلـ غـيـرـ ذـلـكـ.. وـهـلـ مـاـ فـعـلـهـ صـحـيـحـ أـمـ لـاـ..

* * *

مرـ بـعـضـ الـوقـتـ، وـخـالـدـ يـنـتـظـرـ أـنـ تـأـتـيـ أـسـيـلـ.. وـلـكـنـهـ تـأـخـرـتـ، وـظـلـ هوـ بـجـوارـ الطـفـلـ وـالـذـىـ مـازـالـ فـاقـدـاـ لـوـعـيـهـ، وـأـمـهـ مـازـالـتـ تـصـرـخـ.. وـيـحـاـولـ أـنـ يـهـدـأـ مـنـ رـوـعـهـاـ، وـلـكـنـهـ فـشـلـ فـيـ ذـلـكـ.. حتى أـتـتـ أـسـيـلـ، وـوـجـدـتـ خـالـدـ يـجـلـسـ عـلـىـ رـكـبـيـتـهـ بـجـوارـ الطـفـلـ الـذـيـ يـرـقـدـ عـارـيـاـ عـلـىـ أـرـضـيـةـ الـحـجـرـةـ.. فـسـأـلـهـ فـيـ لـهـفـةـ:

- مـاـذـاـ فـعـلـتـ؟.. لـمـاـذـاـ تـضـعـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ هـكـذـاـ؟!.. وـمـاـذـاـ بـلـلـ هـذـاـ الـفـتـيـ؟!!

فـأـجـابـهـاـ :

- كانـ سـخـنـ جـدـاـ.. وـشـكـيـتـ إـنـهـ تـعـرـضـ لـضـرـبـةـ شـمـسـ..

فـبـدـأـتـ أـسـيـلـ تـفـحـصـ الطـفـلـ.. وـالـأـمـ مـازـالـتـ تـبـكـيـ بـجـوارـهـاـ.. حتى فـوـجـئـتـ بـالـطـفـلـ يـفـتـحـ عـيـنـيـهـ، وـيـبـحـثـ عـنـ أـمـهـ قـبـلـ أـنـ تـقـومـ أـسـيـلـ بـعـملـ أـيـ شـئـ، فـوـضـعـتـ أـسـيـلـ

يدها على جبينه.. ثم سألت خالد.. هل كانت حرارته مرتفعة عن ذلك؟ .. فوضع خالد يده فوق حارته قد انخفضت ولم يعد ساخناً كما كان.. فابتسم فرحاً :

- أية.. كان سخن عن كدة كتير..

فابتسمت أسيل ثم نظرت إلى أمها:

- إنه بخير الآن..

ثم أخرجت زجاجة من حقيبتها.. وأعطتها لأمه وأمرتها بأن تعطيه منها كل يوم حتى يصبح صحيحاً.. فشكرتها على ذلك ثم اتجهت إلى خالد وشكّرته.. وأخبرته بأنه طبيب بارع فضحك خالد :

- أنا مش طبيب.. صدقيني..

فسألته :

- كم تريده؟

رد خالد: لأنّـ أنا مش عايز حاجة.. ثم نظر إلى أسيل :

- أعطى أجر الطبيبة فقط..

فقالت أسيل :

- لا، أنا لن آخذ شيئاً سوى ثمن الدواء.. أما غير ذلك فهو لك.. لست أنا من أنقذه..

فابتسم خالد :

- وأنا مش عايز أي مقابل.. كفاية إنك اشتريتني الميه الباردة..

فشكرته السيدة مجدداً.. ثم تأملته لبعض الوقت، وظلت صامتة حتى اندھش خالد.. وغادر بعدها مع أسيل، والتي سأله:

- خالد.. هل أنت طبيب؟!

ضحك خالد: لا.. والله..

فسألته: كيف؟!.. في المرة الأولى أنقذت الفتى من الغرق وقلت إنها دورة إسعافات.. واليوم ربطت الضمادة ببراعة.. ثم أنقذت طفلاً آخر، لم أكن أستطيع فعل ما فعلته..

ردّ خالد:

- هي الصدفة فقط لا غير.. أنا كنت صغيراً وكنت يلعب مع أصحابي.. وفجأة ولد أغمى عليه مننا، وكان سخن زي الطفل ده.. ووقتها شفت الطبيب وهو بيعمل شبه اللي أنا عملته كده، وقال إنها ضربة شمس.. فلما لقيت النهارده الطفل، وأمهه قالت بالصدفة إنه بيعمل في الشمس.. افتكرت نفس المشهد القديم في بالي.. ولما تأخرت قررت إني أغامر لحد ما تيجي.. وقلت لنفسي أكيد مش هخسر حاجة بالعكس يمكن الدقائق دي تفرق في حياته.. والحقيقة مكتنش عارف النتيجة.. لكن التوفيق كان معايا والولد فاق فعلًا..

صمتت أسييل ثم قالت مبتسمة:

- يعجبني ذكاؤك يا خالد.. اليوم أثبتت أنك خير مساعد لي.. ولكن لماذا لم تأخذ أجرك هنا أيضًا من السيدة، وأنت تستحق ذلك..

ابتسم خالد: ده عمل خير.. وكان لازم أعمله، مش كل حاجة لازم آخذ مقابل لها.. هي زي كولا مفيش فيها حد يعمل خير أبداً..

ضحكـت أسيـل وأـكمـلت :

- كان يجب أن تأخذـه.. فإـنك قد استخدمـت ذـكـاءـكـ، والـذـكـاءـ ثـروـتكـ، وـحـينـ تـفـكـرـ بـذـكـاءـ بـالـطـبـعـ يـأـخـذـ مـنـ تـلـكـ الثـروـةـ..

فابتسم خالد :

- أنا عرفت ليه مفيش حد بيفِّنَّ في زيكولا.. ولكن أنا مش محتاج مقابل لإنقاذ إنسان..

فقالت أسيل مبتسمة: حسناً، يمكنك أن تذهب الآن لتبثث في تلك المنطقة عن كتابك.. وأنا سأزور بعض المرضى من السيدات ثم أنتظرك في العربية حتى تعود..

* * *

بدأ خالد بحثه في تلك المنطقة.. واندهش حين تذكّر حديث يامن عن كبر زيكولا.. فمناطقها ليست كبيرة كما صوّرها له.. ولكنها تحتاج فقط إلى وسيلة تنقله من منطقة إلى أخرى..

كانت المنطقة الجنوبية تمتد بكتلة الأراضي الزراعية.. والتي مرّ عليها خالد، ورأى المساحات الشاسعة المزروعة بالقمح، ومحاصيل أخرى.. واندهش كيف تكون تلك الزراعات بالأراضي الصحراوية؟.. ولكنه تذكّر شيئاً هاماً لم يغفله وهو عمل أهل زيكولا الذي يجعلهم يزيلون جبلًا إن أرادوا حتى لا يذبحوا.. وبدأ يسأل الناس عن ذلك الكتاب، وعن الشخص الذي يشبهه ولكنه يكبره سنًا.. ولكنه كما توقع.. كلما سأله أحداً لم يجده، ولم يعرف عن أي كتاب يتحدث.. وسخر منه البعض حين سمعوه يسألهم عن ذلك الكتاب.. ولكنه لم يستسلم للإيس، وواصل سؤاله لكل من يقابلة.. وسأل من يعملون بالأراضي عن الكتاب وعن صاحبه، ولكنه لم يعرفوا أيضاً.. حتى جلس أسفل شجرة، وأخرج أوراقه وقلمه من أغراضه.. وكتب في أعلى الصفحة :

- المنطقة الجنوبية..

ثم كتب أسفلها:

يبدو أن المنطقة الجنوبية هي الأخرى لا يوجد بها ذلك الكتاب أو صاحبه.. ولا يعلم أحد من أهلها عن سرداد فوريك.. أما ما أدهشني في تلك المنطقة هو اهتمامها المميّز بالزراعة.. وعدم اهتمامها بغيرها..

هنا كباقي مناطق زيكولا التي رأيتها.. الكل يعمل بجد، ولا يضيئون وقتهم.. فصنعوا من الصحراء تربة خصبة.. وهذا ما جعلني أعرف لماذا لا تحتاج زيكولا أن يفتح سورها.. إنها تعتمد على أبناء زيكولا في كل شيء.. ولا تعتمد على البلاد الأخرى في شيء.. هنا المنطقة الجنوبية تنتج المحاصيل الزراعية التي تكفي زيكولا.. والمنطقة الشرقية التي أقطن بها تمتاز بالصناعة، وخاصة الصناعات التي تحتاجها زيكولا مثل صناعة الطوب للمباني، وصناعة الملابس، وصناعات أخرى.. والمنطقة الغربية كما أخبرني يامن توجد بها سوق كبيرة يمكنك أن تشتري أي شيء من صناعة وإنتاج أبناء زيكولا..

إنهم يحققون اكتفاءً ذاتياً في كل شيء بسبب عملهم، وخوفهم من الفقر.. وهذا ما جعلهم يشعرون بأن زيكولا أقوى البلدان الموجوة في هذا العالم.. وأعتقد أنني أوافهم على ذلك.. فقوتهم تعني عدم اعتمادهم على أحد.. حتى توقف عن الكتابة حين وجد السيدة التي أنقذ طفليها تقترب منه.. فاندهش من ذلك، حتى اقترنت وسألته:

- هل تبحث عن رجل طويل وعرich مثلك، ولهجته غريبة مثلك أيضاً، ولكنك أكبر سنًا؟!

فأجابها خالد في لففة:

- نعم.. انتي تعرفيه؟

أكملت السيدة :

- لقد ذكرتنياليوم بيوم مِّنْ منذ أعوام طويلة.. كنت وقها في السابعة عشرة من عمري، وكانت أعمل بالمنطقة الشمالية.. حتى قابلت رجلاً يشبهك، ولهجته مثل لهجتك، وزوجته كانت تختلف عن نساء زيكولا.. وقدَّم إليَّ معروفاً مثلاً فعلت اليوم.. وأقنعني بأن أعود للعمل هنا.

فسألها خالد في لففة:

- يعني هو في المنطقة الشمالية؟

ردت: لا أدرى أين هو الآن.. لكنه كان هناك منذ عشرين عاماً.. أتمي أن تجده هناك..

ثم ابتسمت وأكملت:

- حين انتهيت من إنقاذ ولدي تذكريه حين رأيتها.. وبعدما غادرت أخبرني رجل بأنك تبحث عن رجل غريب به تلك الصفات.. ولكنك سالت الكثير ولم تسالني أنا..

فقال خالد:

- أنا من خوفي على ابنك نسيت أسألك، ثم سألهما:

- انتي متأكدة من كلامك عن الرجل ده؟

أجابته: أجل.. إني أتذكريه جيداً..

فأكمل خالد: كان معاه كتاب بيتكلم عن سرداد فوريك؟

ردت: لا أدرى.. فقد قلت لك عما أعرفه.. ولكن نصيحتي لك لا تطبع وقتك بالبحث هنا.. هنا الجميع يعملون بالزراعة ولا يحبون الكتب أو القراءة.. وأنا أعرف جميع سكان تلك المنطقة.. ولا يوجد بينهم من يمتلك صفات الرجل الذي تقصده.. أتمي أن يكون هو من أخبرتك عنه..

فابتسم خالد:

- شكرًا ليكي.. أنا مش عارف أشكرك ازاي..

ابتسمت: لست أنا من يستحق الشكر.. إن لم تفعل ما فعلته مع طفلي في الصباح أعتقد أنني لم أكن لأترك ابني مريضاً، وأبحث عنك حتى أجدى لك لأخبرك بهذا..

فابتسم خالد ثم استأذن منها، وغادر مسرعاً إلى عربة أسيل.. يجري فرحاً، يريد أن يبلغ أسيل بذلك الخبر، وذلك الأمل الذي سطع من جديد.. حتى وصل إلى العربية فلم يجد أسيلاً بها..

* * *

ظلَّ خالد في انتظار أسيل.. ويشعر قلبه بقرب خروجه من زيكولا، ويذكر كلام تلك السيدة ويتسم، ويحدث نفسه بتلك الصدفة، وأن تكون من تخبره بذلك سيدة أنقذ طفلها من الموت.. ثم فكر في ذلك الرجل الذي يشبهه، وزوجته كما قالت السيدة، وأنها تختلف عن نساء زيكولا.. هل هي أمه؟ .. هل تتحقق أحلامه ويجدهما في زيكولا؟

يشعر بأن حديث تلك السيدة يؤكِّد ظنونه.. ثم يعود ليسأَل نفسه.. هل يجدهما هناك بعد عشرين عاماً، أم يكون الحظ عاثراً تلك المرة هي الأخرى.. حتى وجد أسيلاً تقترب من بعيد، وتحمل حقيبتها فأسرع إليها.. وأخذ منها الحقيبة، وسار بجوارها تجاه العربية.. ثم نطق سعيداً:

- أسيل.. أنا لقيت أمل جديد.. ثم أخبرها بما أخبرته به أم الطفل.. واختتم حديثه حين ركبا العربية، وسألها:

- إننا هنروح المنطقة الشمالية إمتي؟

فصمتت أسيل قليلاً ثم نظرت إليه، وقالت:

- أنا لا أذهب إلى المنطقة الشمالية..

* * *

(11)

اندهش خالد وسائل أسيلاً على الفور:

- لا تذهبى ؟ !!! ليه؟!!

صمتت أسيلاً مجدداً.. ثم نظرت عبر نافذة العربية التي بدأت في التحرك، وكأنها تتذكر شيئاً ثم نظرت إلى خالد، وتحدىت بصوتها هادئاً:

- لقد أعطيت وعداً من قبل بآلاً أذهب هناك..

- وعد؟!!

ردت أسيلاً: نعم.. تذكر أني أخبرتك بأنني دخلت إلى زيكولا بين الأسرى والعيبد حتى اشتراكي رجل حكيم علمي الطب.. فأواماً خالد برأسه موافقاً دون أن يتحدث.. ثم أكملت:

- كان هذا الرجل يعاملني كابنته، ويخشى عليَّ من كل شيء.. حتى أخبرته ذات يوم أنني سأذهب إلى المنطقة الشمالية يُ أداوي أحد المرضى حين طلب مي أحد الأشخاص ذلك.. ففوجئت به يرفض بقوة، وطلب مني أن أعده بآلاً أذهب هناك طبلاً حياتي.. فوعدته بذلك ..

فسألها خالد:

- وإيه السبب؟!

فاجابت: حين سأله عن ذلك لم يقل لي سوى أنها أرض كسامي زيكولا.. ولم يخبرني شيئاً آخر حتى موته.. وأنا مازلت أحافظ على وعدني.. وأنا على يقين أنه محق في ذلك.. ثم تابعت بعد صمت:

- لم أجد في حياتي من يحبني قدره ..

صمت خالد مندهشاً، وبدا الحزن على وجهه.. وأشار أن يكمل صمته، وكأنه يفكر ماذا سيفعل.. حتى ابتسם، ونظر إلى أسيل والتي لم تفارق عيناه نجوم السماء:

- وأنا مش هكون سبب إنك تخلفي عدك.. أنا بشكرك على مساعدتك لي الفترة اللي فاتت.. وأكيد مش هطلب منك أكثر من كده..

فردت أسيل في اتسامة هادئة:

- هل ستذهب إلى هناك؟

فابتسم:

- أكيد.. لازم أذهب..

فابتسمت أسيل مجدداً: حسناً.. أتمنى أن تجد كتابك هناك.. ولكن إن لم تجده فعليك أن تعود إلى.. أقصد إلى العمل معي على الفور.. أين أجد مساعدًا في مهارتكم؟!

فضحكت خالد:

- لما أرجع مصر هشتغل دكتور..

ضحكـت أـسيـلـ، ووـاـصلـ خـالـدـ مـدـاعـبـتـهـ لـهـاـ.. وأـكـمـلاـ حـدـيـثـهـماـ عـنـ أـرـضـ زـيـكـولاـ، وـعـنـ الطـفـلـ الـذـيـ أـنـقـذـهـ مـنـ ضـرـبةـ الشـمـسـ، وـالـرـجـلـ الـمـصـابـ الـذـيـ ضـرـبهـ أـبـنـاؤـهـ، وـأـخـذـواـ أـرـضـهـ.. حـتـىـ وـصـلـتـ الـعـرـبـةـ إـلـىـ الـبـحـيرـةـ فـنـزـلـ خـالـدـ، وـوـدـعـ أـسـيـلـ الـقـيـ سـأـلـتـهـ:

- متى ستذهب إلى المنطقة الشمالية؟

فصمت مفكرة: مش عارف.. هحاول يكون في وقت قريب..

فابتسمت:

- عليك أن تخبرني قبل أن تذهب.. وإن كتبت شيئاً آخر عن أسليل.. النجم.. لا بد لي أن أقرأه.. ثم أمرت سائق العربة أن يتحرك فضحك خالد ثم اتجه إلى الشجرة التي يجلس بجوارها دائمًا..

* * *

ظل خالد كعادته يفكّر.. يفكّر فيما أخبرته به أم الطفل وذلك الرجل الذي يشبهه، ويذكر الصورة التي أعطاها له جده يوم نزوله السردار وضاعت مع أغراضه هناك.. صورة أبيه وأمه.. تداعبه أحلام اليقظة بأن يعود مرة أخرى إلى بلدّه ومعه أبوه وأمه بعد سنوات كثيرة.. ويبتسم حين يتخيّل فرحة جده بذلك، والتي قد تقتله.. ثم يعود ليذكر حديث أسليل.. وذلك الوعود الذي أعطته بالآن تذهب إلى المنطقة الشمالية.. وقولها بأنّها أرض الكسالى.. ويسأّل نفسه متعجبًا.. كيف يعيش الكسالى بزيكولا؟!!.. حتى غلبه النعاس بعدما حلّ به إرهاق ذلك المهاجر..

* * *

مر الليل سريعاً.. وأشارقت الشمس، وهبّ خالد من نومه، وقرر أن يذهب كعادته إلى عمله مع يامن.. يريد أن يعلم الكثير عن المنطقة الشمالية.. حتى يصل إلى هناك، وزاد ضيقه حين وجد من يأخذون منه وحدتي كل يوم، فأعطاهم ذلك.. ثم أكمل سيره حتى وجد يامنًا الذي سأله على الفور:

- هل وجدت كتابك؟

فردَّ خالد :

- للأسف لسه.. بس فيه أمل إني الأقيه.. فيه امرأة قالت لي إنّها قابلت رجل له نفس صفات صاحب الكتاب من عشرين سنة..
يامن في دهشة: عشرون سنة؟!!.. وتريد أن تجده!!

- هو صعب.. بس لازم أتمسك بأي خيط يدلني على الكتاب.. عشان كده لازم أروح
المنطقة الشمالية..

فاندهش يامن مجددًا:

- المنطقة الشمالية؟؟!!

خالد: أيوة.. ثم سأله:

- انت وعدت حد انت كمان إنك متروحش هناك؟!

فضحك يامن:

- لا.. لقد ذهبت إلى هناك مرة من قبل.. أتمفي إن ذهبت إلى هناك أن تعود سريعاً..

فزادت الحيرة على وجه خالد:

- إيه اللي هناك؟!

فجلس يامن ثم جلس خالد بجواره.. حتى تحدث يامن:

- أهل زيكولا يعلمون أن تلك المنطقة تختلف كثيراً عن باقي مناطق زيكولا..

فسأله خالد، وكأنه لا يفهم شيئاً: أزاي؟!

أكمل يامن: سأخبرك.. أرض زيكولا هي أرض العمل.. الجميع هنا يعملون
ويكسبون أجورهم مقابل عملهم.. أما تلك المنطقة فإنها تجمع كساي زيكولا..
ولهذا ستجد صعوبة حين تذهب إلى هناك.. عليك أن تسأل كل شخص لأن
الكثيرين منهم لا يعرفون بعضهم.. ثم أخذ نفساً.. وأخرج زفيرًا، وأكمل:

- إنهم لا يعملون مثلنا.. إنهم يكسبون أجورهم بأعمال أخرى.. ثم صمت وأكمل:

- ستجد أهلها فنتين P الفتنة الأولى من الأثرياء الكسالي الذين ورثوا الكثير من
الذكاء.. الكثير من الثروة التي يجعلهم يعيشون أثرياء، وينفقون ببذخ حتى

يموتون.. وفئة أخرى فقراء، يخشون الذبح ولا يريدون أن يعملوا عملاً شاقاً..
فوجدوا طرقاً أخرى يجنون بها ثروتهم..

- هل ترى هؤلاء؟ .. وأشار إلى من يأخذون تلك الوحدات مقابل حمايتهم ..
فردَّ خالد: أية..

فأكمل يامن :

- إنهم من المنطقة الشمالية التي تزيد أن تذهب إليها.. هم يعيشون هناك هكذا..
فضلوا أن يستغلوا قوتهم في كسب ثروتهم، فانتشروا في باقي أراضي زيكولا.. أما
النساء هناك فأثنن استغللال جمالهن..

ثم صمت، ونظر إلى خالد وأكمل :

- أنت تعلم كيف تجني امرأة ثروة من جمالها دون تعب.. وخاصة وأن هناك
الكثيرين من الأثرياء الكسالي.. إنها أرض الرزيلة يا صديقي..

* *

صمت خالد حين سمع ما قاله يامن، وابتسم حين تذكر وعد أسيل وأنها على حق
في ذلك ثم زادت ضربات قلبه حين تذكرة أن صاحب الكتاب.. أباه.. قد يكون بتلك
المنطقة.. حتى قاطع يامن تفكيره:

- إنها بعيدة عن هنا كثيراً.. فكيف ستذهب إلى هناك.. أم الطيبة ستساعدك..
ردَّ خالد:

- لا.. أسيل ساعدتني بما فيه الكفاية.. قولي يا يامن، منين أقدر أستأجر حصان
قوي لمدة تلات أيام..

فأجاب يامن :

- ثلاثة أيام قدتكلفك قرابة الخمسين وحدة..

فأكمل خالد:

- مش مهم.. أنا هقدر أعوّضهم بعد كده.. أنا قررت إني هروح بكرة المنطقة الشمالية.. عاوز أستغل كل يوم هنا في زيوكولا..

فابتسم يامن:

- حسناً، دعني أوف لك حصاناً قويًا.. وسأرشدك نحو الطريق إلى المنطقة الشمالية، وأتمنى أن تجد كتابك هناك.. ثم حمل فأسه، وقال لخالد:
- هياً، علينا أن نعمل اليوم كثيراً بعدما أضعنا الكثير من الوقت في الحديث..

* *

في صباح اليوم التالي، اتجه يامن إلى شاطئ البحيرة، ومعه الحصان القوي الذي وعد خالد به.. حتى وجده هناك فابتسم خالد حين رأه ومعه ذلك الحصان، وشكراً كثيراً على ذلك ثم حمل أمتعته، واحتضن يامنًا، وضحك:

- هشوفك قريب ..

فابتسم يامن :

- أرجو أن تعيد الحصان صحيحةً.. إنني أتحمل مسؤوليته حتى تعود.. لو علم صاحبه أنك سترذهب إلى المنطقة الشمالية لما أعطاني حماراً.. فضحك خالد ثم امتطى ظهر الحصان.. وكاد يأمره أن يتحرك حتى صاح يامن:
- انتظر..

ثم أخرج ورقة بيضاء رسمت عليها بعض الخطوط السوداء، وتحدد إلى خالد:
- تلك خطوط بدائية رسمتها للطريق نحو المنطقة الشمالية.. ثم أشار إلى خط أسود طوله يخرج من مربع قد رسمه:
- هذا المربع هو منطقتنا.. وهذا الخط هو الطريق الذي تسلكه حين تخرج من هنا حتى تصل إلى تلك المنطقة..

فابتسم خالد.. وأخذ منه الورقة، ووضعها بين أغراضه:

- أشكرك يا يامن.. بعد أشكرك يا صديقي..

بعدها أمر خالد حصانه أن يتحرك.. وببدأ يتحرك ببطء حتى أسرع رويداً رويداً في طريقة إلى بيت أسيل.. وكاد يصل بيتهما حتى رأى عربتها تسير مبتعدة عنه، فأسرع بحصانه إلى العربية.. وسار بجوارها ثم ضحك حين وجدها تجلس بالعربة شاردة الذهن، ولا تراه.. فظلَّ يسير بجوارها دون أن يتحدث حتى نظرت إلى جانبها عبر النافذة ففوجئت به على حصانه، فضحكـتـ وحدـثـتهـ:

- منذ متى تسير بجوارنا؟!

ضحك خالد:

- من بدري.. يا ترى بتفكري في إيه؟

ابتسـمتـ: لا شيء.. إنـيـ أـشـرـدـ معـ نـفـسـيـ كـثـيـراـ.. ثـمـ نـظـرـتـ إـلـىـ حصـانـهـ:

- هل اشتـرـيتـ حصـانـاـ؟ـ؟ـ

فردَّ خالد: لا.. أنا أـجـرـتهـ.. وزـيـ ماـ وـعـدـتـكـ إـنـيـ أـشـوـفـكـ قـبـلـ ماـ أـرـوـحـ هـنـاكـ،ـ أناـ قدـامـكـ أـهـوـ..

ابتسـمتـ أـسـيـلـ ثـمـ سـأـلـتـهـ:

- هل ستذهب إلى المنطقة الشمالية الآن؟

فردَّ خالد: أيـوهـ..

فصـمـتـ أـسـيـلـ ثـمـ سـأـلـتـهـ فيـ هـدوـءـ:

- خـالـدـ.. هلـ سـتـعـودـ إـلـىـ هـنـاـ إـنـ وـجـدـتـ كـتاـبـكـ أوـ أـبـاكـ..

فـنـظـرـ خـالـدـ أـمـامـهـ ثـمـ صـمـتـ لـبعـضـ الـوقـتـ.. وـابـتـسـمـ:

- أـكـيدـ لـازـمـ أـرجـعـ.. ثـمـ أـكـملـ مـدـاعـبـتـهـ لـهـاـ:

- ده يامن هيقتلني لو مرجعتش عشان الحصان..

ضحكت أسيل، وضحك خالد.. وواصلاً تحركهما في طرقات زيكولا.. وخالد على حصانه يسير بجوار العربية، وأسيل تجلس بناقتها كمن تجلس أمام نافذة غرفتها.. حتى وصل إلى أطراف المنطقة الشرقية.. فقالت أسيل بعدما أشارت إلى طريق ممهد:

- هذا الطريق يقودك إلى المنطقة الشمالية..

فابتسم خالد ثم نظر إليها:

- أتمنى إني ألاقي الكتاب وأرجع لهنا في أسرع وقت.

ثم أمرَ حصانه أن ينطلق نحو ذلك الطريق.. وأسيل تنظر إليه بينما تسير عربتها في طريق آخر.. وتبتسم حين تجد شعر خالد الطويل يتطاير مع الهواء، وجسده القوى يمتطي ذلك الحصان ببراعة.. وكأنه ولد فارساً.. حتى احتفى عن أنظارها فأغمضت عينيها، وتمنت أن يتحقق ما يريد.. أما خالد فواصل طريقه نحو المنطقة الشمالية.. يريد أن يصل إلى هناك في وقتٍ قليل.. يحفز حصانه أن يسرع.. ثم يخرج تلك الورقة التي أعطاها له يامن، وينظر إليها، وإلى خطوطها ويوافق سيره مجدداً.. وكلما يحل به التعب ينال القليل من الراحة فيوقف حصانه، ويترجل، ويشرب القليل من الماء ثم يكمل طريقه نحو تلك المنطقة.

* * *

بدأت الشمس في المغيب، وحلَ الليل.. حتى وصل خالد إلى أطراف المنطقة الشمالية فترجل.. وسار على قدميه، وحصانه يسير بجواره.. واندهش حين رأى بيوت تلك المنطقة وتنوعها ما بين ما هو فخم للغاية، وما هو متواضع ويبدو عليه الفقر.. وأكمل مسيرة بين شوارع تلك المنطقة.. وزادت دهشته من الصمت الذي يسودها حتى زالت تلك الدهشة سريعاً حين توغل بشوارعها.. فوجد الكثير من الناس يلهون ويدمرون ويترافقون مع أنغام الموسيقى التي غطت ضواحي تلك

المنطقة.. وتذكر كلمات يامن عن فتياتها حين رأى زمّن الذي يختلف عن زمّي باقي فتيات المناطق الأخرى فكان أكثر عراءً وإغراءً.. وواصل سيره حتى وجد مكاناً يجتمع به الكثير من الناس.. فاقترب منهم فوجد نزلاً بين اثنين من الأقواء، وسمع أحد الأشخاص بجواره يقول لآخر: لقد راهنت بخمس عشرة وحدة على هذا الرجل، وأشار إلى أحدهما فاندهش خالد، وأكمل سيره.. حتى بدأ يسأل أحد الفتيان عن الرجل الذي يبحث عنه فلم يجبه.. وسأل غيره فلم يجبه هو الآخر.. وسائل الكثرين من الناس فلم يجبه أحد.. وظلّ يسير بين هؤلاء الناس الذين تبعث من أفواههم رائحة نتنة، ويترنحون فأدرك أنها رائحة خمر.. وبين ضحكات فتيات الليل المدللة التي تملأ كافة الأركان.. حتى جلس بجانب الطريق، وبجواره حصانه ففوحى بشخص صخم يأتيه.. ويطلب منه عشر وحدات من الذكاء مقابل أن يحميه هو وحصانه.. وإلا سيأخذ ذلك الحصان منه.. فصمت خالد قليلاً ثم وافق وحدته:

- ساعطيك ما تريده، ووحدتين إضافيتين مقابل أن ترك الحصان عندك حتى أعود لأخذه غداً.

فوافق الرجل.. وأعطاه خالد الحصان كي يكون أكثر حرية.. وواصل جلوسه ومراقبته لأهل تلك المنطقة من بعيد.. حتى مَرَ الليل دون أن يغفو له جفن..

* * *

في صباح اليوم التالي، ظلّ خالد متظطرًا أن يرى أحدًا يسأله، فلم يجد ما أراده.. وكان المدينة أصبحت مدينة الموتى.. الشوارع خالية، يسودها صمت رهيب.. فنهض وبدأ يتحرك، ويتوجه بشوارعها علىه يجد أحدًا.. ولكن دون جدوى، فأكمل سيره حتى جلس بمكان آخر، وأخرج قلمه وأوراقه، وبدأ يكتب:

- المنطقة الشمالية.. أرض كسالي زيكولا.

ثم كتب تحتها:

- إنها المنطقة الرابعة التي أزورها في زيكولا.. بعد يومي الأول هنا.. تأكيدت أنهم يختلفون عن باقي أهل زيكولا.. هم لا يعملون كما أخبرني يامن، وحياتهم بالمساء كما رأيت بالأمس.

الكثير منهم ورثوا فلا يعملون، ويمرحون ويشربون ويتراهنون.. أما الفقراء منهم.. الفتى يجد ثروته في قوته فيستخدمها لتحقيق ثروته من الذكاء.. والفتاة تجد ثروتها في أنوثتها وجمالها فتستخدم ما تمتلكه في تحقيق ثروة دون عناء.

ثم صمت مفكراً.. وتوقف قليلاً عن الكتابة.. ثم أكمل مجدداً:

- أرى أن الكثيرين من تلك المنطقة سيكونون ضحايا الذبح قريباً.. فالقوى سيضعف ذات يوم، والجمال غير باقٍ..

ثم ضحك، وتوقف عن الكتابة، وحدث نفسه:

- بقيت فيلسوف يا خالد.. زيكولا غيرت فيك كتير.. ثم أبى كتابته بأن كتب مجدداً:

- إنها أضعف مناطق زيكولا..

ثم وضع قلمه، وأوراقه مرة أخرى بين أغراضه.. وبدأ يتحرك بين شوارع تلك المنطقة من جديد.. وضاق به صدره حين وجد نفسه وحيداً بتلك الشوارع ، وعلم أنه لابد وأن يتذكر حتى المساء..

* * *

غربت الشمس.. وبدأ الظلام يملأ السماء، وأشعلت النيران لتضيء المدينة، وبدأ الناس يخرجون إلى الشوارع.. وبدأت الموسيقى من جديد، وخرجت الفتيات إلى الخارج.. كل فتاة تحاول أن تجذب رجلاً إليها.. حتى امتلأت الشوارع بالأشخاص في تلك المنطقة التي تواجد بها خالد.. فبدأ يسأل هذا وذاك عن ذلك الرجل الطويل العريض صاحب الكتاب، واقترب ليسأل كبار السن.. ربما عرفوه حين كان هنا

منذ عشرين عاماً، ولكن لا فائدة.. وبدأ اليأس يدق قلبه، وكأنه لن يجد هذا الرجل أبداً، وسار والحزن على وجهه.. حتى سمع صوت من خلفه يناديه:

- أنت...

فالتفت خالد ليجد الفتاة يشعر أنه قد رآها من قبل.. حتى تذكر أنها الفتاة التي قابلها يوم زيكولا.. وطلبت منه أن يرافقها ورفض.. ولكنها اليوم أكثر عراة.. فاندهش حين وجدتها:

- انتي!!

ضحكـت الفتـاة:- نـعـم.. أـتـذـكـرـنـيـ؟ـ!

خـالـدـ: نـعـمـ..

فـضـحـكـتـ الفتـاةـ: حـسـنـاـ.. عـلـيـكـ أـنـ تـأـتـيـ مـعـيـ..

فـسـأـلـهـاـ فيـ دـهـشـةـ: آـجـيـ مـعـاـكـ فـيـنـ؟ـ!

فـجـذـبـتـهـ منـ يـدـهـ ثـمـ دـخـلـاـ إـلـىـ مـكـانـ مـجاـوـرـ إـضـاءـتـهـ خـافـتـةـ.. وـبـهـ الـكـثـيرـ مـنـ النـاسـ..
كـلـ رـجـلـ يـجـلـسـ مـعـ فـتـاةـ، فـبـدـأـ الشـكـ يـتـسـرـبـ إـلـىـ قـلـبـهـ وـسـأـلـهـاـ:

- اـنـتـيـ عـاـيـزـةـ مـنـيـ إـلـيـهـ؟ـ؟ـ

رـدـتـ الفتـاةـ: أـنـاـ؟ـ !!ـ ثـمـ صـمـتـ وـأـكـملـتـ:

- إـنـكـ الرـجـلـ الـوـحـيدـ الـذـيـ رـفـضـ أـنـ يـصـطـحـبـيـ منـ قـبـلـ.. وـلـهـذاـ أـجـدـ عـرـضـيـ لـكـ..
ثـمـ أـكـملـتـ:

- إـنـيـ هـنـاـ أـفـعـلـ مـاـ يـحـلـوـ لـرـجـالـ مـقـابـلـ الـكـثـيرـ مـنـ الـوـحدـاتـ.. وـلـكـنـيـ لـاـ أـرـيدـ مـنـكـ
شـيـئـاـ.. سـأـصـطـحـبـكـ اللـيـلـةـ دـوـنـ مـقـابـلـ..

فـهـضـ غـاضـبـاـ:

- وأنا مش موافق.. أنا مش زي اللي بيقولك هنا.. ثم تحرك ليغادر فجذبته
ليجلس.. وسألته:

- هل تعجبك فتاة أخرى؟

فردًّا منفعلاً:

- لا.. ثم سألهما:

- انتي عايشة حياتك كده ازاي؟!

فضحكت الفتاة ساخرة:

- حياتي.. ما بهاء؟!!

أكمل خالد: ازاي تبيعي نفسك لأي حد؟

فضحكت الفتاة مجددًا.. ثم تناولت كوبًا به خمر:

- وكيف أعيش في زيكولا أيها الوسيم.. كيف أحصل على الذكاء.. الثروة..

فأخرج نفسًا طويلاً، وحدّث نفسه متبرماً:

- الذكاء ..

ثم أكمل:

- اعملي زي بنات زيكولا اللي بيعملوا بشرف في المناطق الأخرى.. انتي مفكريتش لما جمالك يروح هتقدرى تحصلى على ذكائك ازاي؟..

فضحكت الفتاة.. وبدأ عليها تأثير الخمر، وشقق لسانها:

- وقتها سأكون حققت مخزونًا كبيرًا من الثروة.. أما بنات زيكولا فيعملن.. ثم تابعت:

- وأنا أيضًا أعمل.. وكلامنا يحصل على أجره.. هيًّا انتهز الفرصة قبل أن يضيع جمالٍ.. إن الكثيرين في الخارج يتمنون أن يجلسوا مكانك الآن أيها الوسيم..

فظهر الغضب على خالد.. وكأنه فقد أمله في حديثه معها، وصاح بها غاضباً:

- مثلك عار على زيكولا ..

ثم هض، وتحرك بضع خطوات مبتعداً عنها.. فصرخت غاضبة:

- عار!!!.. إنني أفضل حالاً من آخر أعرفه، قتل أباه كي يرثه..

ثم هدا صوتها.. ووضعت رأسها على المنضدة التي أمامها من تأثير الخمر،
وغمقت بصوت سمعه خالد:

- وفي النهاية لم يرث سوى كتاب لعين.. احتفظ به أبوه أكثر من عشرين عاماً..

ثم أغمضت عينها..

* * *

(12)

توقفت قدمًا خالد عن الحركة، واتسعت حدقتا عينيه، وزادت ضربات قلبه حين سمع كلماتها.. وعاد إليها مسرعًا.. وسألها في لهفة:

- أنتي قلتني إيه؟ !

فوجدها قد وضعت رأسها على الطاولة.. وغابت عن الوعي.. فسألها مجددًا وصاح بها لكنها لم تجبه، فحاول أن يجعلها تفتح عينيها وأن تكرر ما قالته مرة أخرى، وضرب بيده على الطاولة حتى تفيق، ولكن دون جدوٍ. حتى أمسك برأسها وأعادها إلى الخلف ثم جلس أمامها ففتحت عينيها ببطء.. ونظرت إليه في ذهول، فسألها:

- أنتي قلتني إيه في آخر كلامك؟

فابتسمت ونظرت إليه ثم سأله:

- من أنت؟!

فنهض وسأل نادلًا أين يجد غرفة خالية، فأشار النادل إلى باب إحدى الغرف فأسرع وحمل الفتاة على كتفه والتي ضحكت برعونة حين قام بحملها.. وسار بها تجاه تلك الغرفة وسط نظرات الفتيات الأخرى اللاتي هما مسن حين وجدهنَّ يحملنَّها وكأن الغيرة أصابتهن.. حتى وصل إلى باب الغرفة فدفعه بقدمه ودلف بها إلى الداخل - وما زالت تضحك - ثم طرحتها على أرضية الغرفة.. وأكمل سيره للداخل

ووجد إناءً كبيراً به ماء فحمله، وعاد به إليها وسكته بالكامل فوق رأسها فصرخت من برودة الماء فسألها:

- افتكرتني أنا مين؟

فنظرت إليه دون أن تجيب، فأسرع وحمل إناءً آخر وسكته فوق رأسها، فصرخت:

- تذكريك.. أرجوك.. لا حاجة لمزيد من الماء.

فسألها على الفور:

- مين اللي قتل أبوه عشان يرثه.. وفي الآخر ورث كتاب؟

صمتت الفتاة، وكأنها تتذكر ثم سالتها:

- هل حدثتك عن ذلك؟

ردَّ خالد متلهفًا: أيةوة ..

فنظرت إليه الفتاة:

- حسنًا.. ماذا تريده منه؟

فأجابها: أنا عاوز أوصل له بأي طريقة.. لازم أوصل له.. لازم ألاقي الكتاب وصاحبه.. أنتي تعرفيه؟

فنهضت وتحركت خطوات بملابسها المبللة وشعرها المبلل وجلست على أحد الكراسي، ونظرت إليه:

- نعم أعرفه.. وقد أدلك عليه الآن إن أعطيني عشرين وحدة من ذكائص..

فأسرع تجاهها وقال :

- وأنا موافق..

فضحكت الفتاة:

- حسنًا.. سأصطحبك إلى هناك.. ولكن انتظر حتى أبدل ملابسي..

* * *

اتجه خالد مع الفتاة، والتي بددلت ملابسها إلى أحد الشوارع البعيدة.. وأخبرته بأن بيت صاحب الكتاب في نهاية ذلك الشارع.. وخالد يسير وعقله لا يتوقف عن التفكير، ويفكر بما قالته الفتاة بأن هذا الشاب قتل أباه كي يرثه.. ويخشى أن يكون ما يفكرة به حقيقةً تصدمه بعد لحظات.. حتى وصلا إلى أمام بيت متواضع، فسألها خالد:

- هو جوّة؟!

فرد الفتاة: نعم..

فأندهش وسألها:

- وليه هو مش بالخارج زي باقي أهل المنطقة الشمالية؟!

فأجابته:

- إنه هكذا.. بعد أن قتل أباه وفوجئ بعدم امتلاكه لشيء.. أصابه اليأس، فهو يجلس بيته كثيراً.. وتزداد حالته سوءاً، وكأنه ينتظر أن يذبح يوم زيكولا.

ثم طرقت الباب، وبعد لحظات قام شاب في العشرين من عمره بفتحه.. فأشارت إليه الفتاة:

- ها هو صاحب الكتاب.. أما أنا فعليًّا أن أعود إلى عملي.. وغمزت إلى خالد بطرف عينها، وأكملت:

- هناك من ينتظرونني..

فنظر إليها خالد وقال: شكرًا على كل حال..

* * *

غادرت الفتاة.. ونظر خالد إلى هذا الشاب الذي يقف أمامه، وظل يتأمله حتى
سأله الشاب:

- من أنت؟!

فزادت دهشة خالد حين وجد صوت هذا الشاب يشبه صوته.. فسأل الشاب
مجدداً، وظهر الغضب على وجهه:

- من أنت؟

فرد خالد: أنا أطلب منك المساعدة ..

فسأل الشاب: مساعدة؟!

فأجابه:

- أية.. أنا عرفت إنك ورثت عن والدك كتاباً احتفظ به لمدة عشرين سنة..
فأخرج الشاب نفساً عميقاً: نعم..

فابتسم خالد: هل تأذن لي بالدخول ونتحدث قليلاً.. ثم تابع حين شعر برفض
الشاب:

- وسأعطيك خمس وحدات ذكاء مقابل هذا الحديث.
فقال الشاب:

- حسناً، ولكن لا تضيع وقتي.. عليك أن ترحل سريعاً، أنا لا أحب الغرباء..
دخل خالد معه إلى الداخل.. ولاحظ مدى الفقر الذي يعيش فيه، وتلك الحياة
البائسة، والتي ظهرت على ملابسه وعلى أرضية بيته حيث زجاجات الخمر
الفارغة، وظل يترقبه ويتأمله حتى سأله:

- انت قتلت والدك فعلًا؟

فرد الشاب غاضباً:

- وما دخلك؟!

قال خالد: أرجوك، أجبني..

فنهض الشاب، وتحرك خطوات مبتعداً عنه.. وحمل زجاجة خمرٍ في يده.. ثم نظر إليه:

- نعم قتلتـه.. إنه لم يجلب لي سوى الفقر.. وتتابع:

- أعتقد أن أمي ماتت قدیماً بسبب جنونه..

فـسؤالـهـ خـالـدـ عـلـىـ الفـورـ:ـ أـمـكـ..ـ مـاتـتـ؟ـ!!ـ

فـأـجـابـهـ:

- منذ زمن قديم.. إنـفيـ لاـ اـتـذـكـرـهاـ حـتـىـ..ـ لـيـهـاـ عـاـشـتـ وـمـاتـ هـوـ..ـ

فـسؤالـهـ خـالـدـ لـيـهـ بـتـكـرـهـ كـلـ الـكـرـهـ دـهـ؟ـ!

فردـ الشـابـ بـعـدـ ماـ شـرـبـ القـلـيلـ مـنـ الـخـمـرـ:

- إنـفيـ أـكـرـهـ لـأـنـهـ كـانـ مـجـنـوـنـاـ..ـ هـلـ يـعـقـلـ أـنـ يـنـفـقـ أـحـدـ مـخـزـونـهـ مـنـ الذـكـاءـ مـقـابـلـ
كتـابـ لـعـينـ..ـ ثـمـ يـنـفـقـ مـاـ تـبـقـىـ لـهـ مـنـ ذـكـاءـ فـيـ التـفـكـيرـ فـيـ هـذـاـ الـكـتـابـ..ـ يـكـفـيهـ حـظـاـًـ
أـنـ وـجـدـ مـنـ أـفـقـ مـنـهـ بـزـيـكـوـلاـ..ـ وـإـلـاـ ذـبـحـ قـبـلـ أـقـتـلـهـ بـسـنـوـاتـ..ـ

فـسؤالـهـ خـالـدـ:

- ماـ اـسـمـكـ؟ـ

أـجـابـهـ:

- اـسـمـيـ هـلـالـ..ـ إـنـهـ مـنـ سـمـانـيـ بـهـذـاـ الـاسـمـ..ـ

فـسؤالـهـ خـالـدـ عـلـىـ الفـورـ:

- وـاسـمـ وـالـدـكـ إـيـهـ؟ـ

فأجابه ساخطاً:

- كان يدعى حسني..

فدقَّ قلب خالد بقوه.. واحمرَ وجهه، وكأن الحقيقة التي كان ينتظراها قد لفحته..
ونطق :

- حسني عبد القوي؟!

فاندهش الشاب:

- نعم.. هل تعرفه؟!

فصمت خالد.. وتساقطت بعض دموعه.. وانحنى بظهيره للأمام، ووضع رأسه بين يديه، وأكمل بصوت هادئ:

- كان أبوك غريباً عن هنا.. وجاء إلى زيكولا من سبع وعشرين سنة.. هو وأمك..
وكان يحذلك عن مصر.. وعن سرداد فوريك..

فزادت دهشة هلال، ونظر إلى خالد، والذي أكمل:

- ولكنه مقدرش يحميك من طباع زيكولا.. وأصبح همك مثلهم.. الثروة..

ثم نهض، واقترب منه، وخطف زجاجة الخمر من يديه، ووضعها بعيداً.. ثم سأله:

- هل لاحظت الشبه القليل بيبي ولينك؟.. هل لاحظت أن صوتي يشبه صوتك؟ ثم
تابع:

- أنت هلال حسني.. وأنا اسمي خالد حسني..

ثم عاد خطوات إلى الخلف، وأخذ نفساً عميقاً وأخرجه ببطء ثم أكمل بعدما نظر
إليه:

- أنا أخوك، وأنت قلتلت والدنا.. لأنك ابن زيكولا..

فصاح هلال به:

- يبدو أنك مجنون أنت الآخر، ثم دفعه:

- هياً أخرج من هنا..

فصاح خالد غاضبًا، ومازالت الدموع على وجهه: أنا فعلًا أخوك..

دفعه هلال مجددًا:

- اخرج أهلاً المجنون.. هل أنا بحاجة إلى مزيد من الجنون كي تأتيني أنت الآخر؟!!

فنظر إليه خالد، وكأنه يراه وهو يقتل أباً ثم مسح دموعه وسأله:

- أين الكتاب؟

فأجابه هلال غاضبًا:

- وماذا تريد من الكتاب؟!

فردَّ خالد: أنا بحاجة للكتاب لأنني عايز أرجع بلدي.. وممكن تجيء معايا..

فضحك هلال ساخرًا:

- أرى أنك تشبه أبي في جنونه.. انتظر..

ثم نظر إليه وعقد حاجبيه، وسار إلى إحدى الغرف ثم عاد مجددًا إلى خالد، ومعه كتاب قديم أوراقه سميكه وقديمة.. فاسرع إليه خالد، وخطفه منه حين لمح عنوانه.. سرداد فوريك.. وبدأ يقلب صفحاته المصفرة في لهفة ودق قلبه بقوه، حتى وصل إلى صفحة في منتصف الكتاب مكتوب بها بخط يدوى كبير.. الطريق إلى سرداد فوريك.. وكاد يقرأ ما بها حتى احتطافه هلال منه، وقال ساخرًا:

- هل تريده هذا الكتاب؟!

ردَّ خالد في لهفة:

- أيةوة..

فضحك، وحدّث نفسه:

- لقد أصبح للكتاب فائدة، ثم نظر إلى خالد:

- حسناً.. عليك أن تشربه..

صمت خالد قليلاً ثم سأله:

- وكم تريده؟

فابتسم، وتحرك خطوات جيئةً وذهاباً، وتحددث:

- أرى أنك في حاجة ضرورية إلى الكتاب..

فنطق خالد: نعم..

فأكمل هلال:

- حسناً.. إن كنت تريده، فعليك أن تعطيني ربعمائة وحدة من ذكائك..

فصاح خالد على الفور: ربعمائة وحدة؟!!

فرد هلال في هدوء، وتناول زجاجته مرة أخرى:

- نعم.. أهيا الغني.. ربعمائة وحدة..

فقال خالد: صدقني، أنا أخوك..

فضحك هلال ساخراً:

- ليتني أتأكد أنك أخي أهيا المجنون.. أقسم لك إنني لو تأكدت من ذلك لقتلتك كي أرثك..

فصمت خالد، وزاد ضيقه ثم سأله:

- هل ترك أبوك شيئاً آخر؟

فأجابه: إنه لم يترك سوى هذا الكتاب.. هل ما زلت تريدين شراءه، وضحك ساخراً، وأكمل:

- هيأ.. إنها ربعمائة وحدة فقط..

فصمت خالد مرة أخرى.. وكأنه يفكر، وطال صمته حتى نظر إلى هلال:

- أعطني مهلة شهرين.. وهرجع أشتريه مقابل الربعمائة وحدة.

فتساءل هلال متعجبًا:

- ألا تمتلكهم الآن؟!

فتحرك خالد خطوات، ثم نظر إليه:

- أمتلكهم.. ولكني أحافظ على مخزوني من الذكاء.. وهقدر أوفّر من عملي ثمن الكتاب.. وهرجع لك بعد شهرين من اليوم.. أرجوك حافظ على الكتاب..

فجلس هلال، وعاد بظهره للخلف:

- حسناً.. سأنتظرك حتى تعود، ولكن إن تأخرت يوماً واحداً عن الشهرين.. سأمزق عن كل يوم تأخرته عشر ورقات، حتى لو وصل بي الأمر أن أمزقه بالكامل.. إنه لا يهمني بشيء.. هيأ لا تضيع وقتك.. عد إلى حيث جئت..

فأوما خالد برأسه ثم تركه، وغادر، وأخرج زفيراً طويلاً، وحدث نفسه:

- إنه أخي.. وقاتل أبي..

* * *

غادر خالد بيت هلال، صاحب الكتاب.. وسار بين الناس وبين موسيقاهم وصرخاتهم التي لا تتوقف.. وعقله يشتعل بالتفكير.. تتضارب برأسه الكثير من الأفكار، ويتباطط قلبه ما بين شعور وآخر.. يسأل نفسه هل يسعد لأنّه وجد كتابه، أم يحزن حين علم بقتل أبيه وموت أمّه، حتى لو لم يرهما من قبل.. وهذا الشاب المتهور الذي قد يكون أخيه، ومدى جشعه.. والمقابل الكبير الذي طلبته كي يعطيه كتابه.. وكيف سيوفر ربعمائة وحدة في شهرين.. وإن عاد ليأخذ كتابه هل يأخذه

ويترك أخاه، أم يأخذه معه.. حتى أمسك رأسه، وكأنه لم يعد يستطيع التفكير..
وحدث نفسه بصوت هامس:

- هدي دلوقتي إني آخذ الكتاب..

ثم سار إلى المكان الذي جلس به حين آتى إلى المنطقة الشمالية.. فوجد من أعطاه حصانه، فاتجه إليه كي يسترده؛ فلم يعطه الحصان إلا بعدما أعطاه وحدتين آخرين.. ثم أخذ حصانه.. واتجه إلى مكان آخر، وأثر أن يظل به حتى تشرق الشمس فيعود إلى المنطقة الشرقية حيث أسيل ويامن وعمله معه.

* * *

في صباح اليوم التالي، أعد خالد أغراضه، وامتطى حصانه ثم بدأ يتحرك بين الشوارع الخالية إلى أطراف المنطقة الشمالية، حتى وصل إلى بداية طريقه نحو المنطقة الشرقية فالتفت بحصانه نحو تلك المنطقة، وكأنه يودعها حتى يعود إليها مجدداً بعد ستين يوماً.. ثم التفت مجدداً تجاه الطريق، وأمر حصانه أن ينطلق.

مرّ الوقت، وخالف في طريقه إلى المنطقة الشرقية.. لا يشغل تفكيره سوى ذلك الكتاب، وماذا سيكون في تلك الصفحة المكتوب بها الطريق إلى سرداد فوريك.. يشعر بأن أمل خروجه قد ازداد.. لا يحتاج إلا تلك الوحدات التي طلبها هلال كي يأخذ كتابه.. أمله.. حتى وصل إلى المنطقة الشرقية بعد غروب الشمس فاتجه إلى البحيرة، ففوجئ بنار مشتعلة في مكانه بجوار الشجرة.. ووجد يامن ينتظره، فترجل، واحتضنه حتى سأله يامن على الفور:

- هل وجدت كتابك؟

فابتسم خالد:

- نعم..

فسأله في لهفة:- وأين هو؟

فكان يجيئه.. ولكنه فوجئ بصوت أسيل يأتي من خلفه:

- خشيت ألا تعود..

فالتفت إليها خالد فوجدها تمسح دموعها ثم اقتربت منه، واحتضنته وابتسمت:

- جئت إلى هنا وتنميت أن أراك..

فابتسم يامن حين وجد أسيلاً تحتضن خالد، وتنحنح، فابتسمت أسيل في خجل ثم جلست بجوار خالد، كأنها لا تزد أن تفارقه.. وببدأ خالد يروي لها ما حدث له بالمنطقة الشمالية لكنه لم يتحدث عن فتاة الليل، وما حدث معها حين وجد أسيلاً تسأله عن كل شيء حدث هناك وعن فتيات تلك المنطقة، فأخبرهما بأن أحدهما آخر قد دله على هذا الشاب.. هلال.. حتى أنهى حديثه فسألته أسيل :

- هل هو أخوك حقاً؟!

فأجاب خالد: كل الدلائل تقول إنه أخي.. أبوه صاحب الكتاب وأسمه حسني عبد القوي.. وحكي له عن مصر..

فتتحدث يامن:

- ربما يكون شخصاً آخر من بذلك.. مصر، وله نفس الاسم، ولكنه قد لا يكون أبا لك..

فقال خالد: لكن الولد شبهي إلى حد ما.. وصوتي يشبه صوتي.. لكن طباعه طباع زيكولا ..

فابتسم يامن :

- تقصد طباع المنطقة الشمالية.. ثم سأله:

- وكيف ستتوفر بعمانة وحدة من الذكاء في شهرين إن كنت توفر من العمل باليوم بعد غذائك وحمايتك وحدة واحدة أو وحدتين على الأكثر..

فصمت خالد حتى نطقت أسيل:

- ربما تعمل معي، وأعطيك أربع وحدات باليوم..

فابتسم يامن، وتحدّث:

- إنّ عملنا يحتاج إلى النهار بأكمله، وإلى راحة بالليل كي يعود إلينا نشاطنا الذي نواصل به عملنا..

فصمتت أسيل، وظل خالد صامتاً حتى نطق:

- أنا أقدر أكل كل يوم خبز..

فضحك يامن: حسناً.. أصبح لديك أربع وحدات باليوم.. تأخذ سبع وحدات، وتدفع وحدتين للحماية، ووحدة للخبز.

ثم أكمل :

- هكذا لن تكمل الأربععائة وحدة بعد ستين يوماً..

فصمت خالد مرة أخرى.. ثم أكمل :

- أنا ممكن أوفّر ست وحدات في اليوم.. وفي نهاية الشهرين هيكون عندي 360 وحدة.. وقها هضيف أربعين وحدة فقط من مخزونني.. وأقدر أشتري الكتاب ..

فقطاعته أسيل تحذره :

- مخزونك من الذكاء يا خالد.. أرى أنك بدأت تستنزف منه الكثير.

فنظر إليها خالد مبتسمًا، وأكمل:

- أكيد هعمل بعد الشهرين لحد ما يجي يوم زيكولا، وأقدر أعوض كل مخزونني..

فضحك يامن، والذى صمت حتى انتهى خالد وأسيل من حديثهما ثم قال:

- إنك قوي بالحساب يا صديقي.. ولكن كيف ستتوفر ست وحدات باليوم أهيا الذكي..

فابتسم خالد ثم نظر إليه، وسألـه :

- أين عمال زيكولا الآن؟

فأجابه: الكثير منهم يأكلون أو يمرحون أمام بيوتهم.

فنهض خالد ثم نظر إلى أسيل، وطلب منها أن تعود إلى بيتها فرفضت، ونظرت إليه متعجبة:

- ماذا ستفعل؟.. سأتي معك ..

فابتسم خالد ثم سار ومعه يامن وأسيل، واللذان لا يعرفان نيتها.. واتجهوا إلى شوارع المدينة حتى دخلوا إلى أحد المطاعم الذي يقدم الخبز والدجاج.. ووجد به خالد الكثير من العمال ممن يعملون معه في تقطيع الصخور.. ثم اتجه إلى صاحب المطعم، وسألته :

- كم سعر الدجاج هنا؟

فرد الرجل: الدجاج مقابل خمس وحدات..

فسألته مجدداً:

- وكم عامل يأكل من دجاجك؟

فضحك الرجل ساخراً، ثم أشار إلى من يأكلون:

- انظر إليهم.. إنهم لا يأكلون سوى الخبز.. ربما أبيع دجاجة حين يأتيوني غني مثلك إلى هنا..

فابتسم خالد ثم صمت، وأكمل حديثه:

- ما رأيك أن تبيع كل يومين كل ما تملكه من دجاج؟

فنظر الرجل ويامن وأسيل إلى خالد في دهشة، وكأنهم لا يفهمون ما يقصد.. حتى أكمل وسائل الرجل:

- هل تريده ذلك؟

فأجابه الرجل: بالطبع..

فابتسم خالد: حسناً.. أريدك أن تجعل سعر وجبة الدجاج أربع وحدات، وليس خمس.

فظهر الغضب على وجه الرجل.. وسأل خالد:

- هل تمنح؟ !

فأجابه خالد، وما زالت ابتسامته على وجهه:

- لا.. اجعل السعر أربع وحدات، وسأضمن لك مكسباً لم تحلم به يوماً.

فصمت الرجل، و كانه يفكّر، وما زال الصمت على وجه يامن وأسئل حلّى رد الرجل:

- حسناً.. سأجعله أربع وحدات.. ولكن ماذا ستفعل؟ ثم نظرت أسيّل إلى خالد:

- خالد، لا أفهم شيئاً حتى الآن..

فابتسم خالد: انتظري ..

ثم اتجه إلى صالة المطعم حيث يأكل العمال، ووقف بمنتصفها ثم سأله بصوت عالي:

- من يأكل خبراً؟

فابتسم الجميع، ورفعوا أيديهم بالخبز فصمت ثم سأله:

- ومن يريد أن يأكل دجاجاً كل يومين؟

فاندهش من يأكلون، وواصلوا أكلهم، ولم يُعِروا حديثه اهتماماً بعدهما ظنوا أنه يمنح حتى أكمل:

- دون أن يدفع شيئاً مما يدخله كل يوم..

فسألـه أحدـ من يأكلـون:

- هل جنت أهلاً الغريب؟!

فأجابه خالد: لم أجن.. ولكنني أريدكم أن تفعلوا مثلي.. سأكل دجاجاً كل يومين..
ثم أكمل:

- أنا أكسر الصخور، وأمتلك من القوة ما يكفيي لأن أجده على مخاوي، ثم تابع:
إنني أدفع وحدتين للحمامة كل يوم لمجموعة من الكسالي، وتأكل من تعبي..
إنني لن أعطي أحداً من تعبي عشر وحدة من اليوم، حتى لو قتلوني.. أفضل أن
أذبح يوم زيكولا.. ولا أعطي أحداً شيئاً مقابل خوفي..

فتوقف من يسمعونه عن مضغ الطعام، وأسيء تتربّط رد فعلهم، وتنظر إلى خالد
في إعجاب حتى همس إليها يامن:

- إنه بارع في استخدام لهجتنا، لقد ترك لهجته كي يحدّثهم ..
فأشارت أسيء إليه أن يصمت كي تستمع إلى خالد.. حتى تحرك خالد بعض
الخطوات بين طاولات الطعام وأكمل:

- إنني وحدي لن أستطيع إيقافهم.. ولكننا معًا سنستطيع ذلك.. سنجعلهم
يعملون مثلنا، وإلا يذبحون يوم زيكولا.. لن يأكلون حقّنا بعد اليوم.. ثم وقف
بجوار طاولة يجلس حولها ثلاثة أشخاص فنظر إليهم، وأكمل:

- لا أعلم كيف يخيفونكم، وعددهم ضئيل للغاية.. أعلم أنهم أشرار، وأنكم
طيبون، ومتسامرون، ولكن إن اجتمعتم فسيكتب عنكم التاريخ ذات يوم أنكم
اجتمعتم كي تزيلوا الظلم عنكم ..

ثم سار خطوات أخرى، وهذا صوته:

- في عالمي، هناك من يشبهونكم.. وما زالوا ينتظرون يوماً ليجتمعوا.. وما زال
التاريخ يسجل ذلّهم.. وعلا صوته مجدداً:

- اليوم يطلبون منكم وحدتين.. غداً سيطلبون ثلاثة.. بعده سيطلبون أربع.. خمس.. من يدري؟ ربما يجعلونكم تعملون لديهم..

بعدها تحرك إلى أحد أركان صالة الطعام، ثم التفت إليهم:

- أعلم أنكم تتعاملون بوحدات الذكاء.. وأن الذكاء عملتكم.. ولكن حان الوقت لاستخداموه مرة واحدة بحياتكم.. استخدموه كي تعيشوا.. استخدموه كي تفخروا بأنفسكم.

فصاح يامن:

- أنا لن أدفع كي يحمياني أحد.. أستطيع أن أحمي نفسي..

وصاحت أسيل:

- وأنا كذلك.. من يريد أن يأخذ معي شيئاً فليقتلني أولاً..

وصاح فتي آخر:

- وأنا لن أدفع..

وبنهاية رجل غيره :

- وأنا أفضل أن أكل الدجاج كل يومين.. لن أدفع..

وصاح عجوز يجلس بعيداً:

- وأنا لن أدفع.. لقد دفعت الكثير.. لن أدفع حتى أموت..

ونهض فتي قوي، ورفع فأسه:

- وأنا سأكسر عظامهم.. إنما ليست أقوى من الصخور التي أكسرها..

حتى صاح الجميع: نحن لن ندفع.. لن ندفع.. لن نأكل خبراً مجدداً.. سنأكل ما يحلو لنا.. فابتسم خالد، واحمّر وجهه ثم اتجه إلى يامن، واحتضنه ثم احتضنته

أسيل وأغمضت عينها، وحدّثت نفسها: "كم أحبك يا خالد"، ثم فتحتّما، وهمسَت في أذنه:

- سُيُّكتب هذا اليوم في تاريخ زيكولا.

فهمس إليها خالد مبتسمًا:

- إنني أنظر إلى وجهك فأجد الأمل يا أسيل..

فابتسمت أسيل، واحمّر وجهها.. ثم نظر خالد إلى يامن:

- هيّا يا يامن.. عليك أن تعيد الحصان إلى صاحبه.. وأن تستريح كي نعمل غدًا معًا..

ثم نظر إلى العمال الذين يتراقصون فرحاً، وتتابع مبتسمًا:

- سأبدأ من الغد توفير ثمن كتابي.

* * *

(13)

هكذا استطاع خالد أن يحرّك عقول عمال زيكولا، وأن يقنعهم بـألا يدفعوا تلك الوحدات مقابل حمايّتهم مجدداً.. حتى صاحوا فرحين بأنّهم لن يدفعوا، وترافقوا فرحاً بذلك، وزادت سعادته أسيلاً ويامن بما فعله.

* * *

في اليوم التالي اتجه خالد مبكراً إلى عمله فوجده عشرة ممن يأخذون وحدات الحماية يقفون بطريقه كعادتهم، واقتربوا منه كي يأخذوا ما يريدون فابتسم وواصل سيره حتى أوقفه أحدهم بعنف، وصاح به:

- هيئاً.. ادفع وحدتيك ..

فابتسم مجدداً، وواصل سيره فأوقفه الرجل مرة أخرى، وطالبه بالوحدتين من جديد.. فرد في برود:

- أنا لن أدفع..

فظهر الغضب على وجوههم وضحك أحدهم ساخراً :

- لن تدفع؟!!

فأجابه: نعم..

فقال الرجل غاضباً:

- أتعلم ماذا سيحدث لك؟

فردٌ خالد مبتسماً:

- لا ..

فزاد الغضب على وجوههم جميعاً.. وهموا أن يضربوه حتى فوجنوا به يشير تجاه غبار كثيف بالجو.. وضحك:

- انظروا ..

فنظروا إلى ذلك الغبار بالأعلى ثم نظروا إلى أسفله فوجدوا المئات من العمال، وبأيديهم فؤوسهم وألاتهم اليدوية.. يقودهم يامن، ويقتربون عدواً تجاههم.. حتى قال خالد:

- عليكم أن تهربوا وإلا ستدفعون الكثير اليوم ..

فصرخ زعيمهم إلى أحدهم:

- اذهب لتجلب الآخرين ..

ولم يكمل حديثه حتى اقترب العمال، وألقى أحدهم بفأسه إلى خالد فابتسم ولوح بها، ثم تحدث بصوت عالي إلى العمال:

- إنهم لا يصدقون أننا لن ندفع لهم من اليوم ..

ثم أكمل بعدما لمعت فأسه :

- علينا أن نثبت لهم ذلك ..

ثم ضرب بفأسه أحدهم، وما إن فعل ذلك حتى صاح العمال ثم انهالوا على بقائهم بالضرب، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك اليوم.. حتى من ذهب ليجلب بقائهم توارى بعيداً وهرب مع الآخرين حين وجدوا زملاءهم يُضربون كمن وقع عليهم جبلاً من الفؤوس والعصي.. حتى هدا العمال مرة أخرى، وسالت الدماء على وجوه آخذه الوحدات.. فسألهم خالد:

- أمازلتم تريدون الوحدات؟ فلم ينطقوا..

فنظر إلى بعض العمال:

- إنهم ما زالوا يريدون..

فواصلوا ضربهم مجدداً.. حتى صرخوا:

- إننا لا نريد شيئاً.. إننا لا نريد..

فصاح يامن غاضباً:

- حسناً.. عليكم أن تتركوا تلك المنطقة إن لم تعملوا.. إن رأيناكم هنا مجدداً فلن
نكتفي بما حدث اليوم..

فصرخ أحدهم:

- حسناً.. حسناً..

ثم هضوا مسرعين هربون بعيداً، فصاح العمال فرحين، وبدأوا يتراقصون،
ويغنون:

- سنأكل الدجاج.. سنأكل الدجاج.. نحن أقوياء..

ثم احتضن يامن خالداً، وهمس إليه:

- ربما يأتيون ببقيتهم غداً..

فضحك خالد:

- معتقدش.. هما خلاص عرفوا إن انتوا اتحدتوا.. والمرة الجاية ممكن تقتلواهم..
شفتاليوم الوحيد اللي استخدمو فيه الذكاء.. وحمل فأسه، وجذبه من يده:

- هيئا يا صديقي، لدينا الكثير من العمل..

فضحك يامن:

- أصبحت تتحدث مثلنا..

فضحوك خالد، واستعاد لهجته مرة أخرى:

- خلاص أنا بقىت من أبناء زيكولا..

ثم عاد إلى لهجة زيكولا:

- هياً، سأنافسك اليوم في العمل.. وسأعمل ضعف ما تعلم.

فضحوك يامن:

- أرى أنك تحلم..

فرد خالد ضاحكاً:

- أحلم ؟ !! سترى.. ثم أسرع إلى مكان العمل جريأا، فتبعه يامن مسرعاً: انتظر..

* * *

بدأ خالد يعمل بقوة.. لا يشغل تفكيره شيء سوى أن يوفر ثمن كتابه.. يمر اليوم تلو الآخر، يعلم أن عمله شاق للغاية، ولكنه يدرك أنه العمل الأكثر ربحاً في زيكولا.. يحاول أن يحفز نفسه بأن ينافس يامن كل يوم في تكسير تلك الصخور.. ويضحك حين يجد فتاة أو أخرى تنظر إلى جسده القوي اللامع تحت أشعة الشمس.. فيكمل عمله، ويترك يامن يداعب تلك الفتيات.. حتى ينتهي من عمله فيذهب إلى ذلك المطعم كي يتناول غذاءه.. ويبتسم حين يجد الكثير من العمال يأكلون الدجاج بينما أصبح هو الوحيد الذي يأكل خبزاً.. ثم يعود إلى البحيرة فيلقي بجسده في ماءها ثم يستلقى على شاطئها.. ويخرج أوراقه وأقلامه ليسجل ما حصل عليه من وحدات، وما تبقى له على ثمن الكتاب، وما تبقى له من أيام.. حتى تأتي أسيل فتجلس بجواره لبعض الوقت ثم تعود إلى بيتها بينما يظل هو ساهراً حتى يغله النعاس.. فينام حتى صباح اليوم الذي يليه.

حتى جاء يوم وانتهى من عمله.. ففوجئ بفتاة تقترب من بعيد ودق قلبها صاخباً حين وجدها تشبه "مني" - الفتاة التي أحياها لسنوات طويلة قبل أن يأتي إلى زيكولا -

حتى مررت بجانبه فوجدها تختلف عنها قليلاً.. واندھشت حين وجدته ينظر إليها في ذهول، حتى يامن أصابته الدهشة هو الآخر.. فسألها مداعباً له:

- هل تعجبك؟!.. إن كنت تريد أن تتزوجها، أخبرني فقط ..

فضحك خالد:

- لا.. شكرًا..

بعدها غادر ، ولم يتجه إلى المطعم تلك الليلة كعادته بل ذهب إلى شاطئ البحيرة، وعقله منشغل بتلك الفتاة التي تشبه مني.. وكأنه تذكر سنوات مضت، وحدث نفسه :

- مني؟! ثم أكمل:

- يا ترى اتجوزتي الدكتور ولا لا؟!

ثم جلس على شاطئ البحيرة أمام نار أوقدها، وأخرج ورقة من أغراضه.. نصفها العلوي مليء بكتاباته.. وبدأ يكتب بنصفها السفلي:

- لم تعد سوى أيام قليلة على إتمامي الشهرين، وأذهب كي آخذ كتابي.. ولكنني قد قابلتاليوم فتاة تشبه مني التي أحببها ست سنوات.. وكانت أمنية حياتي أن أتزوجها ذات يوم.. لولا أبوها المجنون.. ثم صمت مفكراً قليلاً ثم أكمل كتابته:

لا أعلم ما سر أن أجد تلك الفتاةاليوم.. هل لأنذكر مني بعدما لم أفكّر بها منذ دخولي زيكولا.. حين انشغل عقلي بالبحث عن كتابي.. لا أعلم..

ثم توقف، ونظر بعيداً إلى البحيرة، وأخذ نفساً عميقاً وأخرجه ببطء.. ثم نظر إلى الورقة والتي امتلأت بالكتابة عدا جزءاً صغيراً بأسفلها، فكتب به:

- ما أعلمك جيداً أنني لم أحب غير مني طوال عمري.

وانتهت الورقة التي يكتب بها، فأخرج ورقة أخرى ونظر إلى الورقة السابقة حيث انتهى ثم أكمل:

- لم أحب غيرها طوال عمري قبل أن آتي إلى زيكولا.. حتى وجدت أسيلاً التي يزداد
شعورى كل يوم بحاجتها.. أما أنا فأأشعر تجاهها بـ ..

حتى شعر بأقدام تقترب من خلفه.. فوجد أسيلاً تقترب، فضحك ثم أخفى أوراقه
بين أغراضه.. واقتربت منه، وسألته:

- ماذا تفعل؟

فابتسم:

- ولا حاجة..

فصمت ثم أكملت:

- كنت أتوقع أن أجده تتناول طعامك بالمطعم.. وذهبت إلى هناك فلم أجده..
يبدو أنك توفر طعامك..

فقال ضاحكاً: لا.. أنا مش بخييل للدرجة دي.. أنا فضلت إني آجي للبحيرة..

فابتسمت أسيلاً:

- إن البخل ليس عيباً هنا في زيكولا كما تعلم.. لقد بدأ أهالي زيكولا يدخلون
ثرواتهم بالفعل بعدما شعروا باقتراب يوم زيكولا إن كان مولود الحاكم ذكرًا.. ربما
يكون بعد ثلاثة أشهر أو أكثر بأيام قليلة.. من يدري؟!

ثم أكملت مبتسمة: لولا تلك الوحدات التي وفرها الكثيرون من آخذني وحدات
الحماية لما أكلوا دجاجاً حتى انتهاء ذلك اليوم.. وضحكـت وأردفت:

- أتوقع أن يكون فقير هذا العام لديه أكثر من مائة وحدة..

فضحـكـتـ خـالـدـ :

- وأنا نفسي أسيـبـ زـيكـولاـ قبلـ ماـ أـشـوفـ الفـقـيرـ بـيـنـ بـيـنـ.. ثـمـ سـأـلـهـاـ: وـانـتـيـ مشـ عـايـزةـ
تسـيـبـيـ زـيكـولاـ؟

فأجابته:

- إن تركي لزيكولا قد يكون أصعب قرار بحياتي.. لا أعتقد أنني سأتخذ هذا القرار حتى يكون لدى مبرر قوي للغاية.. ثم نهضت:

- هيا عليك أن تنام.. أما أنا فسأعود إلى بيتي لدى أيضًا الكثير من العمل باكرا..
فابتسم خالد، وكأنه يقلدها:

- مبرر قوي للغاية؟!!

فضحكت أسيل:

- للغاية..

* * *

غادرت أسيل، ومر الليل، وأتى ما بعده من نهار.. وخالد يواصل عمله، ويتمنّى أن تمر الأيام المتبقية سريعاً.. وتولّت الأيام يوماً بعد يوم.. وخالد يوفر ما يستطيع توفيره من وحدات.. ولا يترك يوماً دون أن يعمل.. لا ينفق من أجره شيئاً سوى وحدة واحدة حين يأكل الخبز.. حتى إنه كان يوفرها بعض الأيام.. وقد يمر يومان دون أن يضع لقمة بحلقه.. حتى جاء اليوم الأخير من الشهرين وكان بعمله مع يامن، والذي حدّثه مبتسمًا:

- لقد انتهت المهمة اليوم..

فحمد خالد ربه ثم قال:

- أخيراً.. كنت مستني اليوم ده بفارغ الصبر.

فسألته يامن:

- كم جمعت من الأربعمائة وحدة؟

فصمت خالد مفكراً، وكأنه يحسب ما جمعه بدقة:

- أعتقد إني جمعت حوالي 350 وحدة.. وهضيف لهم خمسين وحدة من مخزوني..

فقطاعه يامن:

- تقصد مائة وحدة.

فرد خالد مندهشاً: مائة؟!

أكمل يامن :- نعم.. هل نسيت أنك ستأجر الحصان مرة أخرى.

فضرب رأسه بيده.. وكأن ذلك الحصان لم يكن بحسبانه.. حتى صمت وأكمل:

- أنا كنت هشتري حصان أوفر لي.. ثم تابع:

- مش هتفرق خمسين من مية.. المهم إني آخذ الكتاب..

فضحلك يامن:

- حسناً.. سأوفر لك الحصان مجدداً.. وسأنتظرك حتى تعود.. إنني أريد أن أرى

أعلى كتاب بزيكولا.. أعتقد أنها ستكون لحظة تاريخية لي..

فضحلك خالد:

- وأتمنى أنها تكون تاريخية لي أنا كمان.

* * *

في صباح اليوم التالي، امتطى خالد الحصان الذي أحضره يامن.. وكان نفس الحصان القوي الذي استأجره المرة السابقة حين ذهب إلى المنطقة الشمالية.. وانطلق نحو تلك المنطقة.. تعلو وجهه ابتسامة أمل لم يشعر بها من قبل.. يأمر حصانه أن يسرع.. هيأا.. إلى الأمل.. إلى خروجي من زيكولا.. يشق الطريق بقوة.. ويتطاير قميصه مع الهواء لتظهر عضلات جسده القوية، وذراعه القوي الذي يمسك بليجام حصانه بإحكام.. ينطلق بحصانه، ويخشى أن يتأخّر عن موعده فيميز هلال المجنون صفة واحدة من كتابه.. ويأمره بأن يزيد من سرعته.. ويمزّ الوقت، وتتحرك الشمس.. ويواصل طريقه دون أن يستريح.

حتى وصل إلى أطراف المنطقة الشمالية مع غروب الشمس.. فأسرع ينطلق في شوارعها، والتي كانت خالية إلا من القليل من الأشخاص الذين بدأوا في الخروج مع حلول الليل، وبعض فتيات الليل اللاتي خرجن إلى شوارع تلك المنطقة.. وأكمل طريقه نحو بيت هلال.. أخيه.. صاحب الكتاب.

* * *

وصل خالد إلى بيت أخيه، فترجل مسرعاً.. وعقل حصانه بجوار بابه.. ثم أعطى فتى يجلس أمام هذا البيت وحدتين مقابل أن يحمي حصانه حتى يعود.. ثم طرق بابه ففتح هلال ووجده أمامه، فضحك قائلاً:

- المجنون الذي يريد الكتاب..

فصمت خالد ولم يرد ثم دلف معه إلى داخل البيت.. فوجد رجلين تبدو عليهما القوة، ويظهر الشر بأعينهما.. حتى تحدث هلال:

- لقد جئت في موعدك تماماً.

فردَّ خالد:

- إنني أريد الكتاب الآن.

فابتسم هلال اتسامة خبيثة :

- بالطبع يا عزيزي، لقد جئت إلى من السماء.. إنني كنت أخشى أن أذبح يوم زيكولا.. أما بعد ذلك الكتاب فلن أعمل عاماً على الأقل.. إنني اليوم أحترم أبي كثيراً.. ثم نظر إلى خالد:

- يبدو أنك على استعداد الآن لتعطيني الخمسمائة وحدة مقابل الكتاب.

* * *

فصاح خالد في غضب :

- خمسمائة !!

فضحك هلال، وكأنه مندهش:

- نعم.. أنسىت اتفاقنا؟!

فصاح خالد مجددًا:

- كان اتفاقنا أربعمائة وحدة..

فصمت هلال ثم تحرك خطوات.. وتحدث إلى أحد الرجلين:

- إنه يقول أربعائة.

ثم نظر إلى الآخر:

- إنني لا أذكر ذلك..

ونظر إلى خالد:

- ربما لم تفهم قصدي وقتها.. ربما كنت أقصد أن تعطيني أربعائة وحدة إن أخذته قبل شهرين ..

- أما بعد تلك المدة فلابد أن يزيد الثمن.. لا أعلم سر هذا الغباء في زيكولا.

فشاط خالد غضباً، وكاد يلكمه.. ولكنه تمالك أعصابه حين نظر إلى هذين الرجلين، وما يخفيانه من شر.. ثم تحدث في هدوء:

- لسه بقول إنك أخي..

فضحك هلال ونظر إلى الرجلين:

- لقد أخبرتكم أنه مجنون.. ثم نظر إليه:

- اعتقادك تملك الكثير.. لن تصبح فقيراً إن أعطيتني المائة وحدة الإضافية.

ثم تحرك إلى إحدى الغرف، وعاد وبيه ذلك الكتاب وحدث الرجلين:

- إن الوقت يمر، ومازال صديقنا يفكّر.. حسناً، سأمزق آخر ورقة بالكتاب.. وهم أن يمزقها فامسك خالد بيده، ونظر في عينه بقوه:

- أنا موافق إني أشتري الكتاب مقابل الخمسمية وحدة.

فضحك هلال:

- حسناً.. وأنا أعطيك الكتاب.

فانتزعه خالد في غضب، واحتضنه بين ذراعيه، وتحدد كأنه يتحدث إلى الكتاب: المهم إن الكتاب معايا.. الوحدات اللي فقدتها أقدر أعوّضها قبل يوم زيكولا إن شاء الله.. لسه تلات شهور على يوم زيكولا لو كان المولود ولد.. لو عملت زي الفترة اللي فاتت أقدر أوفر حوالي خمسمية وحدة.. وأستعيد كل مخزوني وأكتر.. ثم نظر إلى هلال، والذي بدأ يشرب الخمر مع الرجلين وقال:

- أتمنى إنك متكونش أخي فعلاً.. وأكمل :

- لأنك عار..

فضحك هلال ببرود:

- هياً.. اخرج من هنا أيها الجنون قبل أن نأخذ منك الكتاب مجدداً..

فردَّ خالد:

- وفتها.. اقتلوني أوّلاً..

ثم أخذ كتابه، وخرج، وأغلق الباب خلفه بعنف.. ثم امتطى حصانه، وأسرع به يغادر ذلك المكان.. وتناسى ما دفعه من وحدات إضافية.. وأصبح همه أن يقرأ ما بهذا الكتاب.. حتى وصل إلى مكان لا يوجد به الكثير من أهالي تلك المنطقة، وجلس بجوار عمود أُنيرت فوقه نار للإضاءة.. وأخرج كتابه مسرعاً، وبدأ يتصفّحه،

ويقلب صفحاته في لهفة.. ويقرأ بعينيه سطوره مسرعاً.. ينظر إلى صفحاته الصفراء.. وما كُتب بها بخط اليد، وكأنه أمل انتظره لسنوات..

* * *

وجد خالد صاحب الكتاب يذكر في بدايته أنه قد كتب هذا الكتاب في القرن الثامن عشر.. وأن تلك النسخة هي النسخة الثانية له، بعدما ضاعت نسخته الأولى دون أن تكتمل.. فتذكّر خالد صفحات الكتاب العشر البالية، والتي تحدثت عن سرداد فوريك، وقرأها قبل أن يأتي إلى زيكولا حين أعطاها له صديق جده.. مجنون السرداد..

ثم قلب خالد صفحات الكتاب في سرعة.. فوجد تلك الصفحات العشر فتجاوزها، حتى وصل إلى تلك الصفحة والتي انتهت بأنه اكتشف ما هو أهم من كنوز فوريك.. فكانت مثلاً توقع خالد بأنه سيتحدث عن اكتشافه لأرض زيكولا..

ثم قلب بعض الصفحات، فوجده يتحدث عن أهل زيكولا، وعن تعاملهم بوحدات الذكاء، ويوم زيكولا، وذبح الأفقر كل عام، وما تركه ذلك من طباع على هؤلاء الناس.. فقلب تلك الصفحات مسرعاً.. وكلما قرأ شيئاً يعرفه تجاوزه.. لا يريد أن يضيع ثانية واحدة.. حتى وجد صفحة مكتوب بها..

((لقد أفننت عمري أبحث عن سر تلك الأرض.. ولكنني لم أجده حتى لحظة كتابة كتابي هذا.. ولكنني أعلم تماماً أنني لست المصري الوحيد الذي أتي إلى تلك الأرض.. لقد عثرت صدفة على بعض المخطوطات، والتي أخبرتني بعضاً من الحقائق التي وضعتها نصب عيني..))

فاندهش خالد.. وأكمل قراءةً:

((لقد ذكرت المخطوطات البالية أن الكثيرين قد أتوا إلى تلك الأرض بعد بناء سرداد فوريك.. فبعدما شيد ذلك السرداد ببراعة معمارية لم يكن لها مثيل.. أُعجب به ((فوريك)) ذلك الثري، كثيراً، ووضع به كل ما يملك من كنوز وثروة لم

يكن لها مثيل في ذلك العصر.. حتى طمع الكثيرون بها فاتجها إلى السرداري يسرقوها.. وحين علم فوريك بذلك أمر حارسه بأن يغلقوا أبوابه.. فظلوا داخله دون أن يجدوا مخرجاً.. حتى مات بعضهم، وظلّ الباقيون يبحثون عن مخرج حتى وجدوا ذلك المخرج إلى تلك الصحراء.. والتي لم تكن بها سوى تلك المدينة، وسورها القوي الذي لم يكن قد اكتمل وقتها.. فاستقروا بها، وظنوا أن تعاملهم بوحدات الذكاء ما هو إلا عقاباً لهم على نزولهم السرداري ومحاولتهم سرقة كنوز فوريك.. وبعدها كثر عددهم.. وعاشوا مع سكان زيكولا الأصليين.. وتکاثروا بينهم..))

((وقول المخطوطات إنهم لم يتذكروا شيئاً عن حياتهم السابقة، سوى تقويمهم الذي كتبوه على سور زيكولا منذ دخولهم إليها.. ولغتهم العربية والتي بدأوا يعلموها سكان زيكولا.. حتى إنهم نسوا دينهم، وأصبح الكثيرون منهم من الكسالي الذين اتجهوا للمنطقة الشمالية في ذلك الوقت قبل قرون.. حيث يكسبون ثرواتهم دون أن يعملوا بجد..))

وواصل خالد تصفحه لصفحات الكتاب متوجلاً.. وكأنه لا يهمه ما فاته مما ذكره الكتاب.. يبحث عن هدفٍ واحدٍ لا يريد غيره.. وأخذ يقلب حتى وصل إلى تلك الصفحة التي قرأها منذ شهرين وكتب بمنتصفها:

"الطريق إلى سرداري فوريك .."

فأخذ يقرأها متلهفاً.. حتى وجد الكاتب يقول :

- إنني جئت إلى زيكولا مرتين.. وأعلم جيداً الطريق إلى ذلك السرداري، ولكنني أحببت العيش هنا.. ولن أغادر حتى الموت..

ثم قرأ خالد بعض السطور مسرعاً.. ووصل إلى سطر يقول:

- حين سرت بسرداري فوريك لأول مرة، وببدأ انهياره.. وأسرعت هريراً خوفاً من ذلك الانهيار.. لم يدر بخلدي وقتها أنه يدفعني إلى طريق بريده السرداري... فتذكر خالد نفسه حين كان بالسرداري وحدث الانهيار، وأكمل قراءة:

- ولكنني تذكرت بأن هناك طريقاً آخر قد أبعدي عنه انهيار السرداد.. وأدركت أنه طريق العودة مجدداً.. بعدما انهار طريق مجيفي.. واختفي بالصحراء..
فدقَّ قلبه بقوه، وأكمل:

"- إن جاء أحد من بعدي، ولم يقرأ كتابي.. سيظن أنه لابد أن يخرج من زيكولاكي
يعود إلى مصر مجدداً.. وهذا الغباء ذاته.. من يأتي إلى تلك الأرض ويريد أن يعود
إلى دياره، وأن يصل إلى سردارب فوريك مجدداً.. لابد أن يدخل زيكولا.. ويكون
كالشمس، وينتحت في الصخر.. فيجد باب السردار الآخر أمام الرأس مباشرة.."
وانتهت الصفحة، ومعها انتهت صفحات الكتاب.. فأعاد خالد القراءة مرة أخرى
بعدما لم يفهم شيئاً:

- من يريد أن يصل إلى سردارب فوريك، لابد أن يدخل زيكولا، ويكون كالشمس،
وينتحت في الصخر.. سيجد باب السردار الآخر أمام الرأس مباشرة..

ثم سأله نفسه:

- أي شمس؟! وأى رأس؟!

ويقصد إيه بالنحو في الصخر؟ !!

أى رأس؟!!

وقلب صفحات الكتاب مجدداً.. وسأل نفسه.. وسأل الكتاب.. أي شمس؟.. أي
رأس؟.. ثم نهض وتحرك مسرعاً، ودخل مكاناً به الكثير من أهالي المنطقة
الشمالية.. يشربون الخمر، ويتراقصون.. فصاح بأحددهم، وأشار إلى تلك
الصفحة بكتابه:

- هل تفهم ذلك؟

- كيف أنتحت في الصخر أمام الرأس؟!

فضحكت الرجل :

- هل أنت مجنون؟!

فسائل آخر فلم يجده.. فسائل غيره فلم يجده.. وظل يسأل كل من يقابلها عما قرأه، كالمجنون فلم يجده أحد.. ثم جلس على إحدى الطاولات.. وبدأ يقرأ تلك السطور الأخيرة.. ويكررها بصوت عالٍ.. ولكن لم يفهم منها شيئاً.. حتى وجد أمامه كأساً من الخمر فشربه دون أن يدرك أنه خمر.. وشرب منه مجددًا.. وظل يقرأ ويفكر دون أن يصل لشيء.. وكلما انتهى ذلك الكأس أمامه ملأه النادل من جديد.. حتى ظهر تأثير الخمر عليه.. فوقف فوق الطاولة التي كان يجلس عليها.. وأمسك زجاجة الخمر بيده، والكتاب بيده الأخرى.. ثم صاح ضاحكاً في سخرية إلى من يجلسون بذلك المكان:

- ظللت أحلم أن أجد هذا الكتاب.. وأبحث في كل مكان بتلك المدينة اللعينة.. ثم شرب قليلاً من الخمر، وتتابع:

- وحين وجدته.. ظللت أعمل، وأعمل، وأعمل.. لا أكل.. ولا أنام حتى أحصل عليه..
ثم صمت، وضحك مقهقاً، وأكمل:

- وقد حصلت عليه اليوم.. مقابل خمسمائة وحدة من ذكائي..

فنظروا إليه.. وكأنهم لا يصدقونه فأكمل، وقد احمر وجهه من الخمر:

- لا تندهشوا.. لو طلب مني ذلك المعتوه.. الذي قد يكون أخي، أكثر من ذلك لدفعه.. ثم شرب كثيراً من الزجاجة، وأكمل بعددما ترتج فوق الطاولة، وبالأسانه يتلعلم بالحديث:

- وفي النهاية علمت لماذا لم يستطع أبي الخروج من هنا، ومعه هذا الكتاب..
فتسأله سكير يجلس على طاولة بعيداً:

- لماذا أنها المجنون؟

فأشار إليه خالد ضاحكاً ثملاً:

- سأخبرك أهلاً السمين.. لابد أن القصة قد أعجبتك.. سأخبرك..
- يبدو أن صاحب هذا الكتاب اللعين خشي أن يذهب أحدكم إلى ذلك السرداً..
لا أعلم لماذا خشي أن تذهبوا إلى هناك.. ليت أهل زيكولا يذهبون إلى بلدي
فيجعلونهم يعملون.. ولا يعتمدون على غيرهم، مثل زيكولا.. ثم ضحك عالياً:
- لقد وضع لغراً بأخره..

ثم جلس على الطاولة ، ووضع رأسه بين يديه.. ثم رفعها مجدداً، وضحك ضحكة
يشوّها ألم كبير:

- كان يعلم أنكم تعاملون بالذكاء.. كان يعلم أنكم أغبياء.. لن تستخدموا ذرّة ذكاء
واحدة لتفكروا في هذا اللغز.. وهذا صوته:
- ويبدو أنني سأظل مثل أبي.. طوال عمري أبحث عن ذلك المخرج.. إنني غبي مثلكم.
- ثم نهض مجدداً فوق الطاولة.. ورفع الكتاب بيده ، وصاح بصوته السكير:
- والآن.. من يريد أن يشتري هذا الكتاب مقابل عشر وحدات من الذكاء؟

* * *

(14)

ظلَّ خالد هكذا يهذِي لما أصابه من ألم الصدمة. ولم يجبه أحد فعاد مجدداً،
وصاح بصوته :

- لا يستحق عشر وحدات؟!.. صدقوني إنه ثمين.. ثم أكمل:
- حسناً.. خمس وحدات؟

فلم يجبه أحد مرة أخرى فتمتم إلى نفسه بكلمات غير مفهومة ثم نزل من فوق الطاولة.. وسار خارجاً من ذلك المكان وسط سخرية كل من يقابلونه وتحرسات فتيات الليل.. يسير متزحجاً لا يدرِي بشيءٍ من حوله، وفي يده كتابه يلوح به إلى من يقابلة، ويضحك ثملاً.. حتى عاد إلى المكان الذي يقف به حصانه.. وما إن وصل إليه حتى سقط وكأنه فقد وعيه.

* * *

في صباح اليوم التالي، كان خالد نائماً على جانبي أحد شوارع تلك المنطقة بجوار حصانه.. حتى فتح عينيه فجأة حين فوجى بفيضٍ من الماء البارد ينسكب فوق رأسه.. وما إن نظر أمامه حتى وجد تلك الفتاة التي أرشدته إلى هلال من قبل.. فتاة الليل.. وبيدها إناء فارغ، ووضاحت:

- لست وحدك من تسكب الماء..

فنهض خالد مسرعاً، ونظر إلى ملابسه المبتلة.. وأمسك رأسه من الألم ثم نظر إليها غاضباً، فأسرعت مبتعدة عنه، وحدّته ضاحكة:

- هيأ عد إلى حيث جئت.. لن يفيدك أن تبقى هنا..

فصمت، ولم يتحدث ثم أمسك بلجام حصانه، وامتطاه.. وبدأ يتحرك به ببطء مبتعداً عن الفتاة.. حتى صاحت إليه:

- كنت أتمنى ألا أراك هكذا ليلة أمس.. ثم صمت، وصاحت مرة أخرى:

- كنت أظنك أقوى من ذلك..

فأوقف خالد حصانه ثم التفت إليها.. وتحدث بصوت هادئ:

- أنا آسف..

ثم استدار مجدداً، وأمر حصانه أن ينطلق بين شوارع تلك المنطقة إلى أطرافها حيث طريقه إلى المنطقة الشرقية..

* * *

كان الحصان في طريقه نحو المنطقة الشرقية.. وخالد يريد أن يلقي بنفسه من فوقه ندماً عما فعله ليلة أمس.. لا يصدق أنه ثمل ولم يتحمل صدمة لغز الكتاب.. يتحدث إلى نفسه ويؤتمنها.. كانت المرة الأولى التي يشرب خمراً.. لا يتذكر عما تحدث إلى السكارى.. ولكنه لم يود لحظة واحدة أن يكون هكذا.. ينظر إلى السماء ويستغفر ربه.. ويحدث نفسه بأنه لن يفعلها مجدداً.. ثم تذكر الكتاب، وذلك اللغز.. ماذا يقصد كاتبه؟.. كيف يكون كالشمس؟.. كيف ينحت في الصخر؟.. وأي رأس تلك؟.. وظل هكذا حتى وصل إلى أطراف المنطقة الشرقية مع حلول الليل.. واتجه إلى شاطئ البحيرة.. وما إن وصله حتى غلبه النعاس من التعب وألم رأسه الشديد.. فآخر أن يستريح حتى صباح اليوم التالي..

* * *

في صباح اليوم التالي، استيقظ خالد من نومه، ولم يكدر يفتح عينيه حتى وجد أسيلاً تأتي إليه مسرعة.. وسألته في لهفة:

- هل حصلت على كتابك؟

فابتسم ابتسامة يعتز بها حزنٌ:

- نعم..

ثم همض، وسار بضع خطوات تجاه البحيرة.. وألقى بنفسه في ماءها.. يرتدي بنطاله، ونصفه العلوي عارٍ بعدما ألقى بقميصه على شاطئها.. وأخذ يغمر جسده بالماء، حتى سألته أسييل، وهي تقف أمام البحيرة:

- خالد.. هل دفعت الكثير من مخزونك؟ !!

فصمت خالد، وأكمل سيره إلى داخل البحيرة، ثم أكملت:

- خالد.. أراك شاحبًااليوم، وشحوبك مميز.. إنك أنفقـتـ الكـثـيرـ منـ ثـروـتكـ..
تجاوزـتـ ثـمنـ الـكتـابـ..

فتوقفـ ثمـ التـفتـ إـلـيـهاـ:

- أـيـوـةـ.. هـلـالـ طـلـبـ مـنـيـ مـائـةـ وـحدـةـ إـضـافـيـةـ..

حتـىـ صـاحـ صـوتـ فـيـ دـهـشـةـ:

- مـائـةـ وـحدـةـ؟؟!!

فالتفتـ أـسـيـلـ فـوـجـدـتـ يـاـمـنـاـ قـدـ جـاءـ.. فـأـكـمـلـ خـالـدـ إـلـيـهـماـ:

- نـعـمـ، مـائـةـ وـحدـةـ.. لـقـدـ طـلـبـ مـنـيـ خـمـسـمـائـةـ وـحدـةـ مـقـابـلـ ثـمـنـ الـكتـابـ، وـإـلـاـ قـطـعـ
صـفـحـاتـهـ ..

ثـمـ سـارـ خـارـجـاـ مـنـ المـاءـ.. وـالـمـيـاهـ تـنـسـاقـتـ مـنـ جـسـدـهـ وـبـنـطـالـهـ الـمـبـلـلـينـ، ثـمـ اـرـتـدىـ
قـمـيـصـهـ، وـسـأـلـ يـاـمـنـاـ:

- ليه مرحتش عملك؟

فضحك يامن :

- أخبرني أحد أنك جئت بالأمس بعد حلول الليل، فجئت كي أخذ الحصان، وأعيده إلى صاحبه، وأرى أثمن كتب زيكولا.. بعدها قد أذهب إلى عملي أو لا أذهب اليوم.. إن تلك اللحظة لا يضيعها عاقل، ثم سأله:

- أين الكتاب؟

فصمت خالد حتى نطقـت أسيـل:

- خالـد.. مـالي أـراك حـزـيناً؟!

فتـحرك خـالـد إـلى جـوار شـجـرـتهـ، وأـخـرـجـ الـكتـابـ منـ بـيـنـ أـغـرـاضـهـ ثـمـ أـلـقـاهـ إـلـىـ يـامـنـ.. وـتـحدـثـ سـاخـراـ:

- دـهـ أـغـلـىـ كـتـابـ فـيـ زـيكـولاـ..

فالـتقـطـهـ يـامـنـ فـرـحاـ، وـظـلـاـ يـتأـمـلـهـ وـأـكـمـلـ خـالـدـ:

- للـأـسـفـ كـنـتـ مـفـكـرـ إـنـيـ مـجـرـدـ مـاـ الـاقـيـهـ هـقـدـرـ أـخـرـجـ مـنـ هـنـاـ بـعـدـ يـوـمـ زـيكـولاـ.. بـسـ تـقـرـيـبـاـ الـيـ يـدـخـلـ زـيكـولاـ صـعـبـ إـنـهـ يـسـيـمـهاـ..

فـقـاطـعـتـهـ أـسـيـلـ فـيـ دـهـشـةـ:

- أـلمـ يـتـحدـثـ الـكتـابـ عـنـ سـرـدـابـ فـورـيـكـ؟!!

فرـدـ خـالـدـ:

- الـكتـابـ تـحدـثـ عـنـ فـورـيـكـ، وـعـنـ مـصـرـ.. وـالـغـرـيبـ إـنـ الـكتـابـ بـيـقـولـ إـنـيـ مـمـكـنـ أـخـرـجـ قـبـلـ يـوـمـ زـيكـولاـ.. وـإـنـيـ مـشـ مـضـطـرـ أـنـتـظـرـ لـلـيـوـمـ دـهـ.. وـإـنـيـ عـشـانـ أـرـجـعـ لـبـلـدـيـ كـانـ لـازـمـ أـدـخـلـ زـيكـولاـ.. ثـمـ أـخـذـ نـفـسـاـ عـمـيقـاـ وـزـفـرـهـ بـقـوـةـ:

- لـكـنـهـ تـرـكـ لـفـزـاـ فـيـ نـهـاـيـتـهـ.. لـمـخـرـجـ السـرـدـابـ..

أسيل: أي لغز؟

فنظر إلى يامن ثم سأله أن يقرأ آخر سطور الكتاب.. فبدأ يامن يقرأ:

" من يأتي إلى تلك الأرض، ويريد أن يعود إلى دياره، وأن يصل إلى سرداد فوريك مجددًا.. لابد أن يدخل زيكولا.. ويكون كالشمس، وينحدر في الصخر.. فيجد باب السرداد الآخر أمام الرؤس مباشرة.."

بعدها صمت يامن، وكأنه لم يفهم شيئاً.. وصمت مثله أسيل.. وصمت خالد حتى نطق :

- أول مرة أحس إني ضعيف كانت في اللحظات اللي قريت فيها اللغز.. مش عارف إيه اللي حصل لي.. حسيت إني بعد ما مسكت الأمل بيادي.. راح فجأة.. وكأنه تبخر، وشربت خمراً للأسف ..

ففقط اطعنه أسيل :

- شربت خمراً؟ !

فرد خالد: أية للأسف.. أعتقد إن تصرفي ده كان نتيجة الصدمة..

فقالت أسيل:

- أو نتيجة لشيء آخر، وهو فقدانك لذكائك.. إنك فقدت وحدات كثيرة من ذكائك في وقت قليل.. لا تنس أن مخزونك كان قد زاد بعد ادخالك لثمن الكتاب.. ثم أنفقته فجأة، ومعه مائتا وحدة إضافية لهلال وثمن استئجار حصانك.. أي شخص مكانك كان سيتصرف بغرابة.. كان سيفعل أي شيء بعيداً عن شخصيته الحقيقية.. ولن يلومه أحد.. إنه تصرف لا إرادى.. إنك أصبحت مثلنا يا خالد..

فصمت خالد.. ثم نطق يامن:

- وهل لا يوجد حل لهذا اللغز في الكتاب ذاته؟!

فأجابه:

- لا.. أنا قررت الكتاب بسرعة.. وكان بيتكلم عن أهل زيكولا، وعن حياتكم، واللغز موجود في آخر الكتاب بس..

ثم أكمل:

- أنا متأكد إنه لغز سهل.. ممكن يكون سهل للغاية.. بس محتاجنا نفكّر..

فقال يامن على الفور في دهشة:

- نفكّر؟!! ثم التفت بوجهه، وكأنه يهرب فظهر الغضب على وجه خالد، وصاح به:

- أيوة.. صاحب الكتاب أكيد كان عارف إن زيكولا مفيش حد فيها بيفكر، أو يستخدم ذكاءه من شدة بخلهم.. بس انتوا لازم تساعدوني.. ثم نظر إلى أسيل:

- أسيل.. لازم تفكّر.. لازم تساعديني.. أنتي غنية.. يعني ذكية، أنتي أذكي مننا بمراحل..

فصمتت دون أن ترد ثم نظر إلى يامن:

- وانت عارف زيكولا أكثر مي.. لازم تفكّر.. لازم..

ثم صاح إلى الاثنين بعدما صمتا، ولم ينطقا:

- عارف إن تفكيركم بذكاء هيقلل من ثروتكم.. بس هتحسوا بالفخر لو قدرتوا تحلّوا اللغز ده..

فلم يردا مجددًا.. فصمت خالد، وجلس أمام البحيرة، وأعطى ظهره لهما حتى نطق يامن:

- حسناً.. سأفكّر يا خالد، ولكن عليّ أن أعيد الحصان إلى صاحبه الآن.. وأن نذهب إلى عملنا سوياً.

فصاح خالد:

- لن أعمل الآن..

فاقتربت أسيل منه:

- خالد، لا تيأس.. أعتقد أنك قوي بما يكفي لتجد حلاً لهذا اللغز..

فردٌ خالد مبتسماً:

- قوي؟!.. إن اللغز يحتاج إلى ذكي.. إن رجال زيكولا أقوىاء، ولكنهم ليسوا أذكياء..
إن اللغز يحتاج إلى من يفكّر.. وأنا سأفكّر..

ثم نظر إلى يامن الذي كاد يغادر، وصاح به:

- يامن.. اجلس.. لن تذهب إلى عملك قبل أن نجد حلاً لهذا اللغز..

فاندهش يامن حتى أكمل خالد، وهذا من ثورته:

- اجلس يا يامن.. سأعطيك أجرك عن عملك، ولكن فكر معي.. أريد مساعدتك،
ثم نظر إلى أسيل:

- أسيل.. ستجدين معنا الحل.. فابتسمت أسيل، وردت:

- حسناً..

ثم جلس كلاهما، وتحرك خالد أمامهما جيئة وذهاباً، وببدأ يتحدث:

- أنا فقدت تقربياً خمس مخزونني من الذكاء في الأيام اللي فاتت.. بس لسه عندي
اللي يكفي إني أفكّر.. وأنا هفكّر لآخر لحظة في حياتي.. ثم رفع الكتاب بيده،
وتحدّث إلى ما:

- اللغز بيقول..

- يكون كالشمس.. وينحدت في الصخر.. والباب أمام الرأس..

- يكون كالشمس.. ينحدت في الصخر.. الباب أمام الرأس..

ثم نظر إلى يامن:

- فيه تماثيل موجودة في زيكولا؟

فرد يامن: لماذا؟!

فأجابه: قد يكون يقصد رأس تماثيل..

فصمت يامن قليلاً ثم تحدث:

- لا أعتقد.. وأكملت أسيل:

- لا توجد تماثيل في زيكولا إلا تلك التي ينحثها نحاتو زيكولا لفقراء يوم زيكولا.. حين تلعب لعبة الزيكولا، ثم تُحطّم جميعاً.. أصحابهم الذين ينجون من اللعبة من يحطموها.. إنها نذير شؤم لهم ..

فصمت خالد، وتحرك بعض الخطوات جيئة وذهاباً مرة أخرى، وهمس إلى نفسه:

- لا يوجد تماثيل..

بعدها نظر إلى أسيل:

- كيف أنجت في الصخر يا أسيل؟

فصمت قليلاً ثم تحدثت:

- إنك تكسر الصخور بالفعل.. فضحك يامن:

- وأنا أيضاً.. فنظر إليه خالد غاضباً، فصمت ثم أكمل خالد إلى أسيل:

- ولكن لا توجد رؤوس هنا في المنطقة التي أكسر بها الصخور.. ثم صمتوا جميعاً، حتى نطق خالد بعدما أطلق صفيرًا هادئاً:

- وكيف أكون كالشمس؟!!

فضحك يامن:

- إنك مضيء مثلها يا خالد، وغضبك مثل حرّها الشديد.. فقاطعه غاضباً:

- ليتني تركتك تذهب إلى عملك.. اصمت يا يامن.. لا أريدك أن تتحدث.. إنك اليوم أغى مما كنت أتخيل..

فصممت يامن، وعاد بظهره إلى الخلف راقدًا أمام البحيرة.. وخالد ما زال يفكّر،
ويتحدّث إلى نفسه.. وأسيل تترقبه في صمت، حتى نظر إليها:

- أسيل.. ساعدني..

فابتسمت أسيل :

- حسناً يا خالد.. إنني أفكّر الآن مثلك.. ثم أكملت :

- لا توجد روؤس ، وأنت كسرت الصخور بالفعل.. هل قرأت الكتاب جيدًا؟

فرد خالد:

- أعتقد..

فصممت مجددًا.. وببدأ الوقت يمر.. وخالد لا يكف عن الحركة.. وأسيل تضع رأسها بين يديها، وتفرك شعرها الناعم وكأنها تفكّر.. ويامن نائماً على ظهره، واضعاً إحدى قدميه فوق ركبة رجله الآخر.. حتى غربت الشمس، ولم يصلوا إلى شيء.. حتى نطق خالد في يأس :

- أرى أنني أصبحت غبيًا بالفعل..

فتتحدّثت أسيل مبتسمة :

- سنجد الحل يا خالد.. سنجد..

ويامن يستمع إليهما - وما زال راقدًا -، وينظر إلى النجوم التي تملاً السماء.. حتى تحدّث إلى خالد:

- أنا اعتذر حقًا يا خالد.. إنني أريد أن أساعدك، ولكنني لا أستطيع ذلك.. كانت أمي تخبرني دائمًا أن إيمانًا صديق عمري أكثر من ذكاء.. ولكن أين نجد إيمانًا الآن.. إنه في المنطقة الغربية يكسر الصخور مثلنا..

فالتفت إليه خالد، وسألها في لهفة:

- يكسر الصخور؟ !!

فرد يامن مندهشاً من لهفة خالد: نعم..

فسألهمَا خالد: هو فيه منطقة صخرية غير المنطقة الشرقية؟

فأجابت أسيل:

- نعم.. المنطقة الغربية أيضاً منطقة صخرية.. نعم، إنك لم تذهب إليها..

فصمت خالد كأنه يفكر.. ولعثت عيناه، وتحرك تجاههمَا مسرعاً.. ووضع بعض الأخشاب في النار التي أشعلها يامن من قبل كي تزداد إنارةها.. ثم تحدث:

- لما كنت في سردارب فوريك.. انقسم السردارب إلى طريقين.. أنا أخذت طريق منهم.. والسردارب أبعدني عن طريق تاني.. طريق المخرج..

بعدها جلس على الأرض أمام يامن الذي همض وجلس، وأسيل التي تابعته في ترقب.. ثم أمسك بقطعة خشب صغيرة، وبدأ يرسم على الرمال أمامهمَا.. ورسم خططاً طويلاً، وتحدث:

- إن كان ده طريق السردارب الرئيسي..

ثم رسم خططاً متفرعاً منه، ويسير تجاه يامن وأسيل.. وأكمل حديثه:

- وأنا أخذت الطريق ده لحد ما جيت في الصحراء خارج زيكولا..

ثم رسم خططاً آخر متفرعاً من الخط الرئيسي أيضاً.. ولكنه معاكسٌ للفرع الذي رسمه من قبل، وأكمل:

- والطريق ده اللي السردارب أبعدني عنه.. طريق المخرج على حسب كلام الكتاب..

ثم وقف على قدميه، وتحرك خطوتين للخلف، وابتسم:

- الآن تأكيدت أن زيكولا أخذت من ذكائي الكبير.. ازاي مفكّرتش في ده..

ثم أشار إليهمَا بأن ينظروا إلى الفرع الذي رسمه تجاههمَا، ونطق:

- هو ده الطريق إلى شرق زيكولا.. أكيد هو..

ثم أشار إلى الخط المتفرع المعاكس له وهدأ صوته، وابتسم:

- وهو ده الطريق إلى غرب زيكولا..

وأكمل :

- المنطقة الوحيدة التي لم أزرها في زيكولا.. المنطقة الغربية..

ثم نظر إلى السماء حيث النجوم التي بربت.. ثم نظر إلى يامن وأسيل:

- لم يقصد بالشمس أني مضيء يا يامن..

- إنه قصد بالشمس.. حركتها ..

- من الشرق إلى الغرب.. إنه أسهل مما تخيلت.. إنه سهل للغاية، ولكن لشخص لم يفقد ذكاءه.. شخص عايز يفكـر..

فضحـك يامن، وابتسمت أـسـيل.. ثم توقفـت عن ابتسامتـها، وتحـدـثـت:

- ولكن بيـقـى الرأس..

فابتـسمـ خـالـدـ: سـاجـدـها ..

فـقـاطـعـهـ يـامـنـ:

- وما الذي يؤكـدـ لكـ أنهاـ حقـاـ المنطقةـ الغربيةـ؟

فـأـجـابـهـ خـالـدـ بـلـهـجـتـهـ بـعـدـمـاـ تـنـوـعـتـ لـهـجـتـهـ مـاـيـنـ لـهـجـتـهـ الأـصـلـيـةـ وـلـهـجـةـ زـيـكـولاـ:

- لـسـتـ مـتـأـكـداـ.. وـلـكـنـ لـمـ يـعـدـ وـقـتاـ سـوـىـ لـلـمـجاـزـفـةـ.. إـنـ خـشـيـتـ المـجاـزـفـةـ سـأـظـلـ مـثـلـ أـيـ.. هـنـاـ طـوـالـ عـمـرـيـ.. وـتـابـعـ :

- سـأـذـهـبـ إـلـىـ هـنـاكـ.. وـأـعـتـقـدـ أـنـيـ سـأـجـدـ تـلـكـ الرـأـسـ بـسـهـوـلـةـ.. لـابـدـ وـأـنـ يـكـونـ بـقـيـةـ اللـغـزـ أـسـهـلـ مـاـ نـتـخـيـلـ.. فـضـحـكـتـ أـسـيلـ :

- يـبـدوـ أـنـ الذـكـاءـ فـيـ بـلـدـكـ يـخـتـلـفـ عـنـ الذـكـاءـ هـنـاـ.. وـأـكـمـلـتـ :

- لو فقد أحد مثلك، خمس ذكائه لما نطق..

فابتسم خالد: أتمنى أن تكون شكوي سليمة.. وأن يكون صاحب الكتاب قصد يخلية سهل كده..

فضحك يامن، وأمسك بلجام الحصان الذي كان يقف بجوارهم:

- حسناً يا ذكي.. ولكن المنطقة الغربية أبعد من المنطقة الشمالية.. هل ستستأجر حصاناً يكفلك المزيد من ذكائك؟!

فصمت خالد مفكراً.. حتى نطقت أسيل:

- لا.. إنه استأجر حصاناً إلى المنطقة الشمالية لأنني لم أكن أذهب إلى هناك.. أما المنطقة الغربية فسأذهب إليها بعد عدة أيام.. هل تنتظر، وتأتي معي؟

فابتسم خالد، ورد على الفور:

- أيةوة.. هنتظر..

فابتسمت أسيل :

- حسناً.. عليك أن تعمل حتى نذهب إلى هناك.. عليك أن تحاول إعادة أجزاء ولو قليلة من ثروتك.. فابتسم خالد ثم نظرت أسيل إلى يامن:

- وأنت؟ .. لا تريد أن تساعد صديقك هناك؟ .. فنظر إليها يامن مندهشاً حتى أكملت:

- إنني أريد مساعدًا آخر مع خالد.. ولكنني لن أدفع لك أكثر من أربع وحدات بالليوم، وملابس جديدة لك..

فصمت يامن ثم ضحك:

- مساعد طيبة؟!!.. حسناً لم لا؟! ثم تمت إلى نفسه:

- مساعد طيبة صباحاً.. وباحث عن رأس مجهرولة مع صديق بعد الظهرية.. لا أظن أن هناك ما يمنع ذلك..

بعدها تحدثت أسيل إلى خالد:

- الآن سأغادر يا خالد.. وسأقابلكما هنا صباحًا بعد ستة أيام حتى نتجه سوياً إلى هناك، ثم نظرت إلى يامن :

- وأنت، ستأتيك أحد الملابس الجديدة قبلها بيوم.. ثم غادرت، فضحك خالد ونظر إلى يامن :

- ستكون مساعدًا لمساعد الطبيبة.

فرد يامن ضاحكاً :

- أظن أنها تريديني أن أكون سائقًا لعربتها ..

ثم أمسك بلجام الحصان، وهم ليغادر :

- الآن عليَّ أن أتركك.. إنني لم أضع شيئاً في حلقي منذ الصباح.. هل ستأكل أنت الآخر؟

فرد خالد :

- لا.. أنا سأناط.. ربما أكل غداً.. ثم تابع :

- إن طعامي الآن يأخذ من ذكائي.. وأنا أحتاج كل وحدة حتى أجده ذلك الرأس وذلك المخرج..

فابتسم يامن :

- حسنًا، أراك غداً في العمل.. وسأخبر العمال بأنني أمسكت أثمن كتب زيكولا بيدي.. كتاب ينقد فقيرين من ذبح يوم زيكولا.. ثم ضحك، وغادر هو الآخر.. وظلَّ خالد بمفرده بجوار شجرته على شاطئ البحيرة ..

* * *

مرت الأيام يوماً تلو الآخر، وخالد يعمل مع يامن.. ويقرأ الكتاب أكثر من مرة بالليوم، ويفارن بين ما ذكره الكتاب عن أهل زيكولا وبين ما كتبه هو في أوراقه.. ويحاول أن يسأل الكثيرين ممن ذهبوا إلى المنطقة الغربية من قبل، لعل أحدهم يدرك سر ذلك الرأس.. يعلم أن ذهابه إلى هناك مجازفة وقد لا تكون ما يقصده صاحب الكتاب.. ولكن لم يجد حلاً آخر ..

حتى جاء اليوم السادس، وكان في انتظار أسييل وعريتها عند البحيرة.. حتى وجد يامنًا يقترب من بعيد، وقد ارتدى زئانًا جديداً، جلباباً أزرق قصيراً ومزركشاً، ويظهر من تحته بنطال فضفاض.. ويسير متباھياً بزيه، وينفض كل لحظة عن أكمامه.. فضحك خالد حين رأه، ثم سأله يامن على الفور:

- ألسْتُ وسيماً في هذا الزي؟

فضحك خالد :

- إن ملابسك أجدد كثيراً من ملابسي..

فضحك يامن :

- إنني أعمل بمقابل.. أما أنت فتعمل مقابل ذهابك إلى مناطق زيكولا..

بعدها وصلت عربة أسييل، وما إن رأى يامن السائق حتى همس إلى خالد:

- يبدوا أنني لن أعمل سائقاً.. سأعمل مساعدًا حقاً.

فضحك خالد حتى ظهرت أسييل من نافذة العربة، ونادت بصوتها في ابتسامة:

- هيئاً..

فحمل خالد جميع أغراضه، وكانت لفافة من القماش بها أوراقه وكتابه، وبعض كسرات الخبز القديم.. وركب مع يامن العربة بمواجهة أسييل، والتي أمرت السائق أن يتحرك نحو المنطقة الغربية..

* * *

انطلقت العربية، وبداخلها خالد ويامن وأسيل.. ويامن ينظر عبر النافذة مسرورًا حتى أثار دهشة أسيل.. ويريد أن يخرج عبر النافذة كي يراه من يعمل معهم بزته الجديد.. أما خالد فظل صامتاً، ونظر عبر النافذة الأخرى.. وأسيل ترقبه في صمت حتى نطق:

- هل وجدت شيئاً آخر لذلك اللغز؟

فأجابها:

- لا.. كل ألمي أن يكون ظننا صحيحاً.. ويكون فعلاً هناك المخرج ..

فصمت ثم ابتسمت، وقالت:

- تريد أن تغادر زيكولا في أسرع وقت.. لن تنتظر يوم زيكولا حق.. ثم سأله:

- ماذا ذكر الكتاب عن تاريخ زيكولا؟

فرد مبتسمًا، وفضل أن يجيبها بلهجتها:

- إن صاحب الكتاب لم يعرف هو الآخر سر زيكولا.. يبدو أنه لا أحد يعلم سر تلك الأرض.. ولكنه ذكر كيف تحدثتم العربية..

فسألته أسيل: كيف؟!

فقلب خالد صفحات الكتاب على عجل، وأشار إلى صفحة به:

- يقول الكتاب أن هناك من جاءوا من بلدي إلى هنا من قبل، عبر سرداد فوريك منذ قرون.. وهم من علموا أهل زيكولا اللغة العربية.. أما بعض المناطق المجاورة فقد علمها من جاء من بلدي ولم يدخل زيكولا..

فضحك يامن، وقاطعه:

- حسناً.. إننا ندين لكم بالكثير ..

فابتسم خالد، وأكمل :

- ويقول أيضًا.. إنهم ممن سكنوا المنطقة الشمالية..

فصمت يامن ثم أكمل ضاحكاً:

- لا ندين كثيراً ..

وسأله أسيـل :

- هل ذكر أين زيكولا من أرضك؟

فأجابـها :

- لا، لم يذكر ذلك.. الشـي الذي أعلمـه أنا وصـاحـبـ الكـتاب.. أنـ الطـرـيقـ بـيـنـ أـرـضـيـ وأـرـضـكـ هـوـ سـرـدـابـ فـورـيـكـ.. وأـكـمـلـ بـعـدـمـاـ قـلـبـ بـعـضـاـ مـنـ صـفـحـاتـ الكـتابـ :

- هو الآخر لم يستطع أن يجد تفسيرـاـ لـوـجـوـدـكـ، وـوـجـوـدـ تـلـكـ الصـحـراءـ، وـالـأـرـضـىـ، وـأـبـارـ المـيـاهـ الـتـيـ تـوـجـدـ بـهـاـ، وـتـلـكـ السـمـاءـ، وـتـلـكـ الشـمـسـ.. فـقـالـ إـنـ زـيـكـولاـ أـرـضـ أـخـرـيـ لـأـحـدـ يـعـلـمـ أـيـنـ هـيـ.. سـوـىـ أـنـهـاـ نـهـاـيـةـ سـرـدـابـ فـورـيـكـ.. يـبـدـوـ أـنـهـاـ سـتـظـلـ سـرـاـ أـبـدـيـاـ لـأـعـلـمـ أـحـدـ ..

* * *

بعـدـهـاـ أـكـمـلـ التـلـاثـةـ حـدـيـثـهـمـ عـنـ الكـتابـ.. وـبـدـأـ خـالـدـ يـقـرـأـ لـهـمـاـ بـعـضـاـ مـنـ صـفـحـاتـهـ، وـأـنـدـهـشـاـ كـثـيرـاـ حـيـنـ قـرـأـ لـهـمـاـ عـنـ سـرـدـابـ فـورـيـكـ، وـتـصـمـيمـهـ الـبـدـيـعـ، وـكـيفـ يـكـونـ مـضـاءـ لـلـيـلـةـ الـبـدـرـ فـقـطـ، وـكـيفـ تـمـتـ تـهـويـتـهـ، وـحـيـنـ يـجـدـهـمـاـ لـأـيـصـدـقـانـ مـاـ يـسـمـعـانـهـ يـخـبـرـهـمـاـ بـأـنـهـ قـدـ رـأـيـ ذـلـكـ بـالـفـعـلـ حـيـنـ مـرـّ مـنـهـ.. وـمـرـ الـوقـتـ، وـالـثـلـاثـةـ يـكـمـلـوـنـ حـدـيـثـهـمـ.. وـيـتـنـقـلـوـنـ مـنـ حـدـيـثـهـمـ عـنـ الكـتابـ وـمـاـ بـهـ إـلـىـ هـلـالـ، ذـلـكـ الـجـشـعـ الـذـيـ أـخـذـ مـائـةـ وـحدـةـ إـضـافـيـةـ، وـضـحـكـاـ كـثـيرـاـ حـيـنـ أـخـبـرـهـمـاـ خـالـدـ بـأـنـهـ قـدـ ثـمـلـ، وـلـاـ يـتـذـكـرـ شـيـئـاـ عـمـاـ تـحـدـثـ بـهـ إـلـىـ النـاسـ فـيـ تـلـكـ الـلـحـظـاتـ هـنـاكـ.. ثـمـ بـدـأـوـاـ يـتـحـدـثـوـنـ عـنـ تـلـكـ الـمـنـطـقـةـ الـتـيـ يـتـجـهـوـنـ إـلـيـهـاـ، وـنـظـرـ خـالـدـ إـلـىـ يـامـنـ، وـقـالـ :

- انت قلت لي قبل كده إن المنطقة الغربية بها سوق كبيرة.. بيتم فيها بيع وشراء جميع منتجات زيكولا الزراعية أو الصناعية..

فأجابه يامن:

- نعم.. تلك المنطقة يقصدها الكثيرون رغم بعدها عن منطقتنا. وقاطعته أسيل:

- ولكنها أكثر قرئاً إلى منطقة الحاكم التي نمر أمامها الآن..

فنظر خالد عبر النافذة، فوجد قصور المنطقة الوسطى، وأكمل يامن:

- وقريبة أيضاً من المنطقة الجنوبية.. منطقة الزراعة، وعرفت دائمًا أنها أرض الشراء والبيع في زيكولا.. وأن الأسعار بها أرخص كثيراً من مثيلاتها في المناطق الأخرى.. فيلجاً إليها الكثيرون من أهالي زيكولا..

فتتحدثت أسيل:

- إهـا منطقة تجار زيكولا.. وهم يعيشون بها رغم أنها منطقة يصعب العيش بها..
ثم أكمل يامن:

- ومنذ سنوات قريبة أصبحت المنطقة المنافسة لمنطقتنا في صناعة الطوب من الصخور.. بعدما بدأوا يستغلون طبيعتها الصخرية في صناعة الطوب مثلنا، وبها الكثير من العمال الأقوباء، منهم إياد صديقي..

فصمت خالد.. ثم ضحك ساخراً:

- كان في الأول هدفي إني ألاقي الكتاب، ولقيت الكتاب.. دلوقتي هدفي إني ألاقي رأس مجحولة..

ثم عاد بظهره إلى مسند المهد الذي يجلس عليه، وأكمل ساخراً من نفسه في حزن:

- خايف ألاقي الرأس، يكون عليّ إني ألاقي حاجة تانية غيرها..

فابتسمت أسيل:

- وإن كان.. ستجد كل ما تريده.. أنت القوي.. أنت الذكي.. أنت تختلف عن غيرك يا خالد.. أنت من وجدت كتابك، وأنت من وجدت حل لغزه.. وأنت من ستخرج نفسك من هنا..

فابتسم يامن، وظل يترقب خالد وأسيل حتى ساد الصمت داخل العربية..

* * *

غriet الشمسم، وحل الظلام بالسماء.. وعاد يامن بظهوره إلى الخلف، وأغمض عينيه، وَكَانَ النعاس قد غلبه.. أما أسيل فلم تفارق عيناه السماء.. حتى صاحت بخالد:

- انظر هناك.. ثم أشارت إلى السماء:

- إنه أسيل..

فنظر خالد إلى السماء، ونظر إلى ذلك النجم اللامع ثم نظر إليها:

- أنا بتفاعل به، وتفاعل بوجهك يا أسيل..

فاحمر وجهها خجلاً كعادتها.. وابتسمت، وظلت تنظر إلى النجم بالسماء، وخالد ينظر إليها، ويبتسم حين يجدها تحرّك رأسها وعينيها مع ذلك النجم مع مرور العربية.. لا تريد أن يغيب عنها الحظة واحدة.. ثم يضحك حين ينظر إلى يامن فيجده قد انزلق بجسده بين المعددين، وقد تعمق في نومه.. حتى نظر عبر النافذة بعيداً فوجد نيراً بعيدة، فعلم أنهم قد اقتربوا من تلك المنطقة التي يقصدونها..

* * *

وصلت العربية إلى أطراف المنطقة الغربية فأيقظ خالد يامن على الفور، ففتح عينيه في ابتسامة حين وجد نفسه متلقاً داخل العربية.. ثم نهض، وعَدَّل من جلوسه وملابسِه، ثم تحدثت أسيل:

- سنتجه الآن إلى مكان لنبت به حتى الصباح.. هنا يوجد مكان خاص لطبيبة الحاكم.. أنا.. ولمساعدي.. أنتما..

فابتسم يامن:

- رائع.. خشيت أن أنام على جنبي أحد الشوارع مثلما يفعل صديقنا دائمًا..

فابتسم خالد، ثم أكملت أسيل:

- سنبدأ عملنا في الصباح، وبعد الظبرة لن أحتج مساعدتكما.. فاذهبا لتبثعا عن مخرج ذلك السردار..

بعدها توقفت العربية أمام أحد البيوت، ونزل الثلاثة.. تقدمهم أسيل، ويليها خالد.. ثم يامن، والذي حمل جميع الحقائب، ومن بينهم أغراض خالد، واتجهوا إلى داخل ذلك البيت حيث كان أحد الأشخاص في استقبالهم..

* * *

في صباح اليوم التالي، نهض خالد مسرعاً، وأيقظ يامن.. ثم اتجها مع أسيل إلى عملها.. ومعهم ذلك الرجل الذي استقبلهم الليلة الماضية.. وأخذوا يتنقلون من بيت إلى بيت، وأسْيَلْ تفحص كل المرضى.. وإن احتاج أحدهم لضمادة ترك خالد ليضمده.. ويامن لا يفعل شيئاً سوى أن يحمل الحقائب، ويتباهى بملابسِه الجديدة، وكلما مرَّت فتاة بجواره يضع الحقائب أرضًا ثم ينفض عن أكمامه حتى تمر فيحمل الحقائب مجدداً.. وخالد يراه ويضحك..

أما أسيل فكانت تستشيط غضباً، ولكنها تعود لتضحك حين تجد خالد يضحك لذلك.. وظلوا يتنقلون بين شوارع تلك المنطقة.. وخالد ينظر إلى بيتهما، والتي بدا على الكثير منها الثراء.. ولكنها ليست في ثراء قصور المنطقة الوسطى.. يعلم أنها

بيوت تجار زيكولا، ولا بد أنهم أثرياء.. تتكون أغلىها من طابقين، وتمتاز ببراعة معمارية من الخارج.. وجدران صخرية سميكة، ونقوش مميزة على واجهتها ونوافذها، وليس عتيقة مثل مباني المنطقة الشرقية.. حتى مرّت الساعات، فأخبرتهما أسيل بأنهما ستكملاً مداواة النساء، أما هما فعلى ما ينصرفوا ويبحثا عن هدفهم..

* * *

انصرف خالد ويامن على الفور، وتخلص يامن من ملابسه الجديدة، وارتدى زيه القديم الذي أحضره معه.. وسارا معاً في شوارع المنطقة الغربية.. يبحثان عن أي شيء.. يبحثان عن ذلك الرئيس الذي لا يعلمون ماهيته.. حتى وصلا إلى منطقة شاسعة، وبها الكثير من أهل زيكولا.. رجالاً ونساء.. فأخبر يامن خالد بأنها سوق زيكولا الكبير، حتى اقتربا.. فوجد خالد بهذا السوق الكثير من المحاصيل الزراعية، والفاكه والخضروات التي يعرفها، وببعضها لا يعرفه ولم يره من قبل ويترافق الناس حوله، وتلك المنتجات التي صنعها أهل زيكولا.. ملابس جديدة، جلابيب، وقمصان، وفساتين.. متراصّة.. رسمت من ألواهها لوحات رائعة.. والبائعون ينادون بأسعارهم من الوحدات، والصخب يعمّ المكان، وخالد ويامن يتحركان بصعوبة بين هذا الرحام، حتى سأله خالد، وقد أعلى صوته كي يسمعه:

- كيف يشتري هؤلاء الناس؟! ألا يخافون على ثرواتهم؟

فأجابه يامن، وأعلى صوته هو الآخر:

- إن الأسعار هنا ليست باهظة كمناطق الأخرى، كما أخبرتك.. هنا يشترون تلك المنتجات، ويأخذونها ليبيعونها في المناطق الأخرى بأسعار أكثر غلاءً للأثرياء.. فيحقّقون المزيد من الثروة.. ثم أكمل:

- وهناك سلع كالسلع الزراعية، لا نستطيع أن نستغّفي عنها.. وهم يعرفون جيداً كيف يربّحون من تجارة..

ثم واصلا سيرهما بين الزحام، وعيّن خالد تتنقل هنا وهناك.. تبحث عن ذلك الرئيس.. ويسأل من يقابلهما عن رأس تمثال أو تمثال شهير بتلك المنطقة.. أو أي رأس يعرفونه.. ولكن الجميع أنكروا وجود تماثيل أو أي رأس بتلك المنطقة.. حتى أصايبما التعب، وجلسا بجوار أحد البيوت، وشربا من الماء الذي أحضره يامن معه.. حتى تحدث يامن محمّسا خالد:

- ۱۰ -

ثم جرى نحوه، واحتضنه كثيراً ثم تحدث إليه قليلاً، وأتى به إلى خالد:

- إنه خالد الذي قابلته معه يوم زيكولا.. هل تتذكرة؟!

فابتسم ایاد:

- الغريب؟!! نعم، إنني أتذكرة.. هل أصبحتما أصدقاء؟

فڑحک یامن: نعم..

فَسْأَلَهُ أَبَادٌ مَحْدُّداً:

- وماذا جاء يكما إلى هنا؟!! هل تريدان أن تشتريا شيئاً ما؟ ثم نظر إلى يامن:

- ولماذا لم تخربني بمحيطك سابقاً.. أخشى دائمًا مفاجأتك..

فَضَحِكَ يَامِنْ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ خَالِدٌ:

- ايا د.. تلك المنطقة صخرية؟

فأجابه: نعم.. إنها أكثر المناطق وعورة في زيكولا.. إن الأرض هنا صلبة للغاية.. ولا
تصلح للزراعة..

فقطعه خالد، وسائله:

- هل توجد تماثيل في تلك المنطقة.. أبحث عن رأس.. لا أدرى أي رأس..

فصرمت إياد مفكراً:

- لا.. تلك المنطقة أسكنها منذ زمن.. ولا توجد بها أي رؤوس.. لا بد أنكما أخطأتما المكان..

فصرمت خالد، وبدا عليه التوتر:

- ولكن الكتاب بيقول أتحت في الصخر.. وإن أكون كالشمس.. وأقرب تفسير للغز هي المنطقة الغربية..

فنظر يامن إلى إياد:

- أرجوك يا إياد.. أعلم أنك ذكي.. فكر معنا.. تذكر أن خالد صديقي، وأريده أن يصل إلى مراده..

فابتسم إياد، وشرب من ماء يامن، وأكمل إلى خالد:

- أنا أود ذلك.. ولكنني لا أفهم شيئاً مما قلته من حديثك عن الكتاب.. صدقني لا يوجد لديك دليل مما سمعته الآن.. سوى النحت في الصخر.. نعم، تلك المنطقة أرضها الصخرية شهيرة هنا.. حتى يُقال إن طبيعة تلك الأرض الصخرية هي من تحكمت في بناء سور زيكولا..

ولم يكدر يكمل حديثه، حتى فوجئ الثلاثة بأسيل تأتي إليهم، وتلهث، وكأنها أنت عَدُوا، ووضعت يدها على صدرها.. تريد أن تلتقط أنفاسها، ونظرت إلى خالد والعرق على وجهها، وقالت:

- خالد.. لقد وجدت ذلك الرأس الذي تبحث عنه..

* * *

(15)

دق قلب خالد، وانتفخ بقوة، وكل من يامن وإياد هكذا، وسألها خالد على الفور:
- فين؟!

فجذبته من يده:
- هيّا..

ثم انطلقت، وبدها تمسك بيده، وتبعهما يامن وإياد، وأسرعوا بين الزحام،
واصطدموا بالكثير من الناس.. وكلما سبّهم أحد ابتسموا له وأكملوا عدوهم،
وخلال يسأل أسيل عن الرأس ولكنها تبتسم وتطلب منه أن ينتظر قليلاً.. ثم
يواصلون تحركهم بين الزحام، وما زالت يداهما متشابكتين.. لا ينفصلان سوى كي
يمر أحد الأشخاص بينهما، وما يلبث أن يمر حتى تتشابك اليدين مرة أخرى..
ويامن وإياد يسرعان خلفهما، ويزيحان بأيديهما من يقابلهما.. لا يريدان أن يفقد
بصريهما خالد أو أسيل.. حتى خرجوا من السوق إلى أحد الشوارع الأقل زحاماً،
وأسرعوا إلى نهايته.. تقودهم أسيل وما زالت صامتة لا تزيد أن تتحدث.. وخلال
يتبعها، وقلبه يدق وأنفاسه تتتسارع..

حتى وصلوا إلى الطرف الغربي للمنطقة الغربية، ولم تكن هناك سوى بيوت قليلة
أغلبها ليست بفخامة مثيلاتها من البيوت الأخرى بتلك المنطقة وقد ظهر سور
زيكولا، وارتفاعه الذي يصل إلى خمسة طوابق فتوقفت أسيل وحاولت أن تلتقط
أنفاسها.. ثم أشارت أمامها، وقالت:

- انظر هناك..

فنظر خالد أمامه، ونظر معه يامن وإياد.. يبحثون عن رأس بذلك المكان فلم يجدوا شيئاً حتى سألهما خالد:

- فين؟!

فابتسمت أسيل، وما زالت أنفاسها سريعة:

- إنه ليس رأس تمثال كما حُيل إليك وإلينا.. إنه رأس آخر تماماً.. فاندهش ونظر مجدداً، ولكنه لم يفهم ما تقصده حتى نطقـت:
- خالد.. انظر إلى سور زيكولا ذاته..

فنظر الثلاثة إلى سور زيكولا الذي كان يبعد عنهم قرابة المائة متراً.. فسألهما خالد:
- أتقصدـين ما أفكـر به؟

فابتسمـت:

- نعم.. ثم أكـملـت:

- انظر إلى سور زيكولا في تلك المنطقة، وانظر إلى مسارـه، وكيف تم تصـمـيمـه.. ثم تابـعـتـ، وخـالـدـ يـنـظـرـ إلىـ السـورـ يـتأـمـلـهـ:

- لم أنم بالأمس، وقرأت كتابـكـ، وبدأت أـفـكـرـ بكلـ كـلـمةـ بهـ، وحاـولـتـ أنـ أـسـتـخـدـمـ ذـكـائـيـ كـيـ أـجـدـ هـذـاـ الرـأـسـ.. ولـكـنـيـ لمـ أـصـلـ إـلـىـ شـيـءـ.. حـتـىـ شـاءـ الـقـدـرـ أـنـ أـدـاوـيـ عـجـوزـاـ مـرـيـضـةـ بـعـدـمـاـ غـادـرـتـمـاـ الـيـوـمـ.. وأـخـبـرـتـيـ صـدـفـةـ أـنـ طـبـيـعـةـ تـلـكـ الـمـنـطـقـةـ الصـخـرـيـةـ تـحـكـمـتـ فـيـ بـنـاءـ سورـ زـيـكـولاـ، كـمـاـ أـخـبـرـهـاـ الـقـدـامـيـ.. وـهـنـاـ بـدـأـتـ أـفـكـرـ منـ جـدـيدـ.. فـقـاطـعـهـاـ إـيـادـ:

- نـعـمـ.. إـنـيـ كـنـتـ سـأـخـبـرـكـ بـأـنـ أـرـضـ الـمـنـطـقـةـ الـغـرـبـيـةـ عـلـىـ هـيـنـةـ مـثـلـثـ يـحـيـطـ بـهـ سورـ زـيـكـولاـ، لـوـلـاـ أـنـ قـاطـعـتـنـاـ الـطـبـيـبـةـ..

فـأـكـمـلـتـ أـسـيـلـ:

- نعم يا خالد.. إنها المنطقة الوحيدة في زيكولا التي شُيد بها سور زيكولا كضلعٍ مثليٍ.. بينما زاوية منفرجة..

ثم صمتت، وأكملت:

- انظر إلى تلك الزاوية يا خالد بين ضلعي السور الضخمين.. إن كنا نراها نحن زاوية من الداخل فهي - في التوقيت ذاته - الرأس من الخارج.. رأس المثلث.. فصالح يامن بعد أن تركهم، واقترب من السور الضخم:

- انظروا..

فاقترب الثلاثة منه فأشار إلى رسمة صغيرة منحوتة بجدار تلك الزاوية، وأكمل:

- توجد رسمة لشخص ما.. ولكنني لا أعرف من هو..

فرد خالد في لهفة بعدها تذكر شيئاً ما:

- الرسمة.. أنا شفت الرسمة دي مرة قبل كده.. الرسمة دي تشبه رسمة نفس الرجل الغني اللي كانت في السرداد، وكنت عايز أصوّرها.. ومن بعدها حصل اتهيأر السرداد..

فتحدث يامن مبتسماً:

- هذا دليل أن ما قالته أسييل صحيح.. فدق قلب خالد بقوة، وتحدث بصوت هادئ:

- نعم أعتقد أن أسييل على صواب.. وجود تلك الرسمة هنا يؤكّد ذلك.. لا بد أن صاحب الكتاب من نقشها، وأدرك أنه لن يعرفها إلا شخص عبر سرداد فوريك.. شخص سعى بكل ما لديه كي يصل إلى حل لغزه، ويستحق الوصول إليه، ولكنني لم أكن أتخيل أن يكون الرأس رأس مثلثٍ ضلعاًه سور زيكولا ذاته!!

ثم نظر إلى أسييل:

- أنا بشكرك يا أسيل لأنك استخدمت ذكائك، وقدرتني توصلي لحل لغز كان صعب إني أحلمه لوحدي..

فسألته:

- خالد.. لماذا لا أراك سعيداً بإيجادنا الرأس الذي نبحث عنه..

فصمت قليلاً ثم أجابت:

- إن اللغز يقول إن الباب أمام الرأس مباشرة..

ثم أكمل:

- هذا يعني أن باب السرداد خارج هذا السور..

فصمتوا جميعاً كأنهم لم يفكروا في ذلك، وزالت فرحتهم، حتى نطق إياد:

- علينا أن نغادر هذه المنطقة الآن.. إن حرس سور زيكولا لا يحبون أن يتواجد أحد بالقرب منه.. وهم يمرون بين الحين والآخر..

* * *

ابعد الأربعة عن سور زيكولا، ووقفوا مجدداً على بعد قرابة المائة متراً منه.. وقال يامن:

- إن كان باب ذلك السرداد خارج سور زيكولا فلماذا ذكر صاحب الكتاب أن من يريد أن يعود إلى بلده فليمير أولًا بزيكولا؟

فردت أسيل:

- حين قرأت الكتاب بالأمس، ذكر صاحبه أن سور زيكولا لم يكن قد اكتمل بناؤه حتى وقت قريب من كتابته لكتابه.. منذ قرنين.. ثم أشارت إلى سور زيكولا وأكملت:

- ربما كان هذا الجزء هو الجزء الأخير الذي تم بناؤه.. بعدهما استغرق الكثير من الوقت، كما حكت لي العجوز عما تعرفه.. ثم نظرت إلى خالد:

- هذا يعني أنّ صاحب الكتاب حين ذكر أنه عاد إلى وطنه ثم جاء إلى هنا مجددًا قد وصل إلى ذلك المخرج قبل اكتمال بناء السور.. ثم ذكر أنه لم يغادر بعدها.. ربما كان لحبه لزيكولا كما كتب ذلك.. أو لاكتمال بناء السور.. فزاد ذلك من اللغز تعقيداً، ولكنّه ترك تلك الرسمة دليلاً قوياً لمن يصل إلى هنا..

ثم صمتت فتحدث خالد، وظهر اليأس على وجهه:

- ده معناه إني لازم أنتظر تاني يوم زيكولا.. وأخرج يوم فتح باب زيكولا، وأقدر أوصل لمخرج السرداد من خارج زيكولا..

فقال إياد:

- هذا مستحيل يا صديق..

فرد خالد، وتبدل يأسه إلى توتر:

- لماذا؟

فرد إياد:

- إن الأرض ممهدة داخل زيكولا، وهذا نتاج قرون طويلة من عمل أهلها.. ولكن خارجها، خارج هذا السور.. تختلف الطبيعة عن هنا كثيراً، إن زيكولا هي غرب عالمنا.. لا توجد بلاد أخرى في هذا الاتجاه الغربي.. أو على جانبيها الشمالي أو الجنوبي.. إن جميع البلدان توجد شرق زيكولا فقط.. لم نسمع يوماً عن أحد مر بجانبها على الإطلاق.. ويقولون أن الأرض بجوارها تختلف بين الجبال العالية، والكثبان الرملية، والرمال المتحركة.. هذا يعني الهلاك لكل من يفكر فيما تفك فيه.. لم ولن يمر أحد بجانبها..

ثم جلس بمكانه، وأكمل:

- لهذا لا تخشى زيكولا أي هجوم من البلاد الأخرى سوى من اتجاه الشرق، والذي يحميه سور زيكولا القوي.. ثم صمت، وتتابع:

- وجود الرأس خلف هذا السور لا يعني سوى شيء واحد.. أنه قد حُكم عليك بالبقاء هنا طوال حياتك..

فظهر الغضب والحزن على وجه خالد، ونظر إلى أسيل:

- أخبرتك أني حين أجد الرأس سأبحث عن شيء جديد.. كنت أعلم هذا.. إنها دائرة أدور بها.. ليس لها نهاية..

ثم جلس، ووضع رأسه بين يديه:

- لا بد من وجود حل.. لا بد..

ووضع يامن رأسه بين يديه هو الآخر، وحدث نفسه:

- الباب أمام الرأس..

حتى أسيل ظلت تتحرك جيئةً وذهاباً، وتحدث نفسها:

- عليكِ أن تكملِي تفكيرك يا أسيل.. معرفتك للرأس ذاتها لم تكفي.. إنكِ من أذكي أذكياء زيكولا.. لا بد وأن تجدي حلّاً.

أما إياد فظل ينظر إلى السور، ويقلب نظره بين أركانه.. حتى نهض خالد، وأشار إلى السور:

- لا بد أن أخرج.. لن أمكث هنا وأعلم أن عودتي إلى وطني خلف هذا السور..

ثم نظر إليهم:

- إن الكتاب يقول: انحني في الصخر.. هذا يعني شيئاً واحداً..

فسألته أسيل: ماذا؟

فأجابها: أن انحني في السور ذاته.. وأعبر إلى السرداد عن طريقه..

فسألته إياد متعجبًا مما قاله:

- تنحني في السور ذاته؟!! تريد أن تجعل مخرجك من زيكولا سور زيكولا ذاته؟!!

فأجابه خالد في هدوء:

- نعم.. هل يوجد حل آخر؟

فأجابه إياد: إنه ليس بالحل يا صديق.. إن فكرت في ذلك، فلن تنتظر يوم زيكولا حقاً.. لأنك ستقتل على الفور.. لا ترى هؤلاء؟!

ثم أشار إلى مجموعة من الجنود يسيرون في صفين، ويرتدون دروعاً، ويحملون سيفاً بأيديهم:

- إنهم حماة سور زيكولا.. لا يفارقونه.. مهمتهم فقط أن يحموا هذا السور.. ثم أخذ نفساً عميقاً، وأخرج له:

- هنا في زيكولا ربما تقتل كي تعيش.. تسرق كي تأكل.. تفعل ما تشاء.. إلا شيئاً واحداً.. ففقطه يامن:

- أن تخدش سور زيكولا..

ثم أكمل إياد:

- ربما نقش صديفك صاحب كتابك تلك الرسمة وقتلوه.. فتحدثت أسيل:

- خالد إن سور زيكولا أهم رمز هنا.. حتى إن تركك الحراس تفعل ذلك.. فلن يتركك أهالي تلك المنطقة.. إنهم يؤمنون أن سور زيكولا من أسرار قوتها، ولن يسمحوا لأحد أن يقترب من قوتها.. ما تفکر به محال يا خالد.. محال.. فصمت خالد ثم صاح:

- إيه الحل؟ هل ستمتعوني إن فعلت ذلك؟

فصمتوا جميعاً.. حتى ابتسمت أسيل وقالت: أنا لن أمنعك يا خالد.. وابتسم يامن:

- وأنا بالطبع لن أمنعك.. ولكن هؤلاء الحراس قد وضعوا خصيصاً لحماية هذا السور.. ولا تستطيع حتى رشوتهم.. فصمت خالد ثم نظر إلى أسيل:

كم ستبقين في تلك المنطقة؟ -

فأجابته: لدى الكثير من العمل هنا.. ويكفيني أن أعمل هنا.. سابقى حيثما أشاء..
وأنت؟

فأجابها: أنا لن أعود إلى المنطقة الشرقية مجددًا.. سأظل هنا حتى أخرج من زيكولا.. ثم نظر إلى يامن فابتسم:

- وأنا أستطيع أن أجده عملاً هنا.. وبكيفي أن أظل بجوارك، وبجوار صديقي إياك.. حتى تحدثت أسلى:

- يجب أن نعود إلى المسكن الآن حتى لا يرتاب هؤلاء الجنود بنا.. وهناك نستطيع التفكير بعد أن نتناول طعامنا..

فقط خالد: حسناً

* * *

عاد خالد ويامن وأسيل إلى المسكن المخصص لهم، وصاحبهم إياد.. ثم تناولوا طعامهم الذي أعده مضيفهم، حتى انتهوا منه فجلسوا ليفكروا من جديد، ونطق خالد بائساً:

- وصولي للسرداب من خارج زيكولا مستحيل.. ووصولي له عبر سور زيكولا
مستحيل.. ثم فر فرقة قوبة وصبت.. فانتسبت أسليل وقالت:

- ستجد الحل يا خالد.. لن يضيع تعليك هباءً..

وابتسم يامن:

- نعم يا خالد.. ستجده.. لقد قطعت شوطاً كبيراً.. لا بد وأن هناك حلاً.. ثم نظر الـ ايادى

- يا صديقي.. إنني أعلم منذ صغرتناكم أنت بارع في إيجاد الحلول.. فـكـر معنا..
فـأـكـملـ خـالـدـ اللهـ

- فكر معنا يا إياد.. إن وجدت الحل سأعطيك من ذكائي ما استنفديه في تفكيرك..
فابتسم إياد: حسناً سأفكر.. ولن اترك حتى أجد لك حلّاً.

ثم صمتوا مجدداً، وكل واحد ينظر إلى الآخر.. لا يجد ما يقوله، وأسيط تنظر إلى خالد.. تخشى أن تقول أنها لا تجد حلّاً فيزداد اليأس بقلبه، ويامن يضرب برأسه،
ويحدّثها:

- فكري..

حتى نهض إياد:

- علىّ أن أغادر الآن..

فتسأله يامن مندهشاً:

- أين تذهب؟!

فأجابه: إن الشمس قاربت على الغروب.. سأترككم، وسأعود إليكم لاحقاً.. ثم
نظر إلى خالد:

- أتمنى أن أعود فأجده قد وصلت إلى بابك..

ثم غادر، وظل الثلاثة كما هم.. يفكرون، والوقت يمر.. وخالد يقلب في كتابه.. يوذ
أن يجد شيئاً يصل به إلى سرداره، ولكن دون جدوى.. حتى حلّ الظلام، وأنيرت
المنطقة الغربية وبيوتها بالنيار.. فنظر خالد إلى أسيط:

- عليكِ أن تذهبي إلى حجرتك الآن.. لا بد أن تنالي قسطاً من الراحة.. ثم نظر إلى
يامن:

- وأنت أيضاً يا يامن، خذ قسطاً من الراحة.. لن يفيدنا إجهادنا اليوم.. لقد تعينا
بما يكفي.. سنستريح الآن، ونكمّل تفكيرنا غداً..

فتسأله أسيط:

- وأنت ستثال راحة؟

فابتسم خالد:

- لا.. سأظل أفكـر.. لن يغمض لي جفن ورأسي تفكـر بذلك المخرج.. إنه مصيري يا أـسـيل..

فابتسمت: حسـنـا.. وأـنـا سـأـظلـ أـفـكـرـ معـكـ..

فنظر إلـهـاـ: أنا لا أـرـيدـ أنـ أـزـيدـ منـ تعـبـكـ الـيـوـمـ.. أـعـلـمـ أـنـكـ تـرـيـدـيـنـ مـسـاعـدـتـيـ،ـ ولـكـ لـدـيـكـ عـمـلـكـ غـدـاـ،ـ لاـ يـجـبـ أـنـ تـغـفـلـيـهـ.. يـجـبـ أـنـ تـظـلـيـ طـبـيـبـةـ زـيـكـوـلاـ الـأـوـلـ..ـ فـابـتـسـمـتـ أـسـيـلـ،ـ وـكـادـتـ تـجـهـ إـلـىـ حـجـرـهـاـ..ـ حـقـيـقـةـ دـخـلـ إـيـادـ فـسـأـلـهـ يـامـنـ عـلـىـ الفـورـ
- هلـ وـجـدـتـ الـحـلـ؟ـ

فـسـأـلـهـمـ أـنـ يـجـلـسـوـاـ..ـ ثـمـ نـظـرـ إـلـىـ خـالـدـ:

- حينـ خـرـجـتـ مـنـ هـنـاـ،ـ اـتـجـهـتـ إـلـىـ حـيـثـ كـنـاـ..ـ بـالـقـرـبـ مـنـ سـوـرـ زـيـكـوـلاـ..ـ ثـمـ صـمـتـ،ـ
وـأـكـملـ:

- لـمـ أـجـدـ لـكـ إـلـاـ ثـلـاثـةـ حلـولـ..ـ

فـنـظـرـوـاـ إـلـيـهـ مـتـلـهـفـينـ..ـ فـأـكـملـ:

- الـحـلـ الـأـوـلـ..ـ أـنـ تـظـلـ فـيـ زـيـكـوـلاـ طـوـالـ حـيـاتـكـ..ـ وـالـحـلـ الثـانـيـ..ـ أـنـ تـنـتـظـرـ حـتـىـ يـوـمـ
زـيـكـوـلاـ،ـ وـتـخـرـجـ إـلـىـ مـصـيـرـكـ،ـ وـتـحـاـولـ أـنـ تـصـلـ إـلـىـ بـاـبـ سـرـدـابـكـ،ـ وـهـذـاـ يـعـنـيـ هـلـاـكـ
أـيـضـاـ..ـ

فـصـاحـ بـهـ يـامـنـ غـاضـبـاـ:

- هلـ جـئـتـ لـهـرـأـ بـنـاـ..ـ نـحـنـ نـعـرـفـ ذـلـكـ..ـ

فـابـتـسـمـ إـيـادـ:

- اـنـتـظـرـ..ـ هـنـاكـ حـلـ آـخـرـ..ـ

فـسـأـلـهـ خـالـدـ مـتـلـهـفـاـ:

- إـيـهـ هـوـ؟ـ!

فتحرّك إياد، وجلس بجواره، وتحدّث بصوت هادئ:

- أن تعود إلى بلدك قريباً.. ثم أكمل بعدما صمت برهة:
ولكن بعد أن تفقد الكثير من ذكائقك..

فتسأله خالد:

- ماذا تعني؟!

فقال إياد:

- تعالوا معي..

* * *

بعدها خرج الأربعة من دار ضيافة الطبيبة ومساعديها.. يقودهم إياد.. حتى وصلوا إلى حيث وقفوا منذ ساعات قليلة أمام سور زيكولا، والذي قد لمع مع انعكاسات إضاءة النيران القريبة منه، وجعلت من ضلعيه وزاويته منظراً بدليعاً.. كان لينال إعجاب خالد لولا انشغاله بمصیر خروجه.. ثم نظر يامن إلى إياد، وسأله:

- كيف يخرج خالد من زيكولا؟!

فأجابه :

- انظروا هناك..

وأشار إلى بيت من طابقين يبتعد قليلاً عن بيوت المنطقة الغربية، ويقترب من سور زيكولا.. لا يفصله عنه سوى مائة من الأمتار ثم أشار إلى الجنود المتواجدين أمام السور، وسألهم أن ينظروا إلىهم أيضاً.. فاندهشت أسيل:

- أنا لا أفهم شيئاً..

وتبعها يامن:

- وأنا أيضاً..

وخلال ما زال صامتاً حتى أكمل إياد:

- حين تركتكم جئت إلى هنا.. ووقفت كما نحن واقفون الآن.. ولم أضع أمامي سوى أن يخرج خالد إلى باب سردايه.. خارج هذا السور.. مهما كانت التحديات.. حتى أصابني العطش فذهبت إلى ذلك البيت.. وأشار إلى البيت مجدداً، وأكمل: كي أشتري منه كوبأ من الماء.. وهناك فوجئت بأن ذلك البيت لا يسكن به أصحابه الآن.. يعيش به خادمه بمفرده.. أما أصحابه فهم من التجار الذين يبيعون بضائعهم إلى المدن الأخرى غير زيكولا، وخرجوا يوم زيكولا السابق، ولنعودوا إلا يوم فتح باب زيكولا مع يوم زيكولا..

فقال لها خالد:

- أنا لا أفهم شيئاً.. ماذا يعني كل هذا؟!

فأجابه: انتظر.. أنا أعمل في تلك المنطقة منذ سنوات عديدة، وأعلم جيداً خفايا تلك المنطقة وأرضها.. سأخبركم سرًا نعلمه نحن من نعمل بتكسير الصخور هنا: إن العمل هنا في تكسير الصخور ليس بصعبوبة العمل في المنطقة الشرقية.. إن الصعوبة هنا تكمن في الطبقة الخارجية من الأرض فقط.. أما إن تجاوزت تلك الطبقة يكون الحفر بها وتكسير صخورها ليس صعباً على الإطلاق..

فلمعت عينا خالد:

- تقصد؟!

فأكمل إياه:

- نعم يا صديق.. إن هذا البيت أقرب مكان إلى زاوية سور زيكولا.. وإن كانت زاوية هذا السور، أو رأسها كما تحب أن تسميه.. هي التقاء ضلعي سور زيكولا.. بالطبع ستكون أضعف نقاط الجزء العميق منه..

ثم ابتسم، وأكمل:

- وإن كان سيمنعك حماته من الاقتراب منه.. فأنا أعرف من يستطيعون أن يحفروا لك نفقاً ببراعة.. من ذلك البيت إلى أسفل ذلك السور.. حتى تخرج إلى سرداياك دون أن يشعر حماته أو أهل منطقتنا بشيء..

ثم قال: أعلم أنني هكذا خائن لزيكولا.. ولكنك صديق صديقي الحميم..

فصاحت أسيل:

- إن هذا جنون..

وصاح يامن:

- نعم.. إنك مجنون يا إياد..

فأشار إليهما، ورفع كتفيه:

- هل هناك من حلٍ آخر؟! ثم نظر إلى خالد:

- لن تأتيك تلك الفرصة مجدداً.. إن عاد أصحاب هذا البيت فلن تستطيع دخوله على الإطلاق.. أما ذلك الخادم حين استدرجه في الحديث أخبرني بأنه قد يعطي البيت لمن يعطيه مائتي وحدة حتى يوم زيكولا حين يعود سيده ومن معه..

وصاح يامن:

- مائتي وحدة؟!

ثم سأله خالد، وقد تجاهل صيحة يامن:

- ومن يحفرون النفق؟

فأجابه إياد: أعلم ثلاثة من العمال الماهرين.. قابلتهم من قبل، إنهم بارعون في تلك الأعمال.. إنه عمل يحتاج إلى براءة، وقد يتجاوز معهم حفر هذا السردايا عشرين يوماً.. هذا لأنهم سيعملون نهاراً فقط حتى لا يسمع ضجيجهم أحد مع ضجيج السوق.. ولكن عليك ألا تنسى أنهم سيأخذون أجراً إضافياً مقابل صمتهم.. ثم صمت، وأكمل:

- قد يأخذون ثلاثة وحدة.

فقط خالد:

- أنا ممكِن أحفر معهم، وأُوفِر أجر عامل، وكذلك يامن:

فابتسم: كما أخبرتك.. إن حفر النفق يحتاج إلى براعة نفتقدها.. وأعتقد أنهم لن يريدوا مساعدتك لهم.. لن يوَّدوا أن يشاركهم أحد أجراهم.. إنهم سياخذون الثلاثمائة وحدة.. سواء عملت معهم أو لا..

حتى تحدثت أسيل، ونظرت إلى خالد:

- خالد هل جنت؟!!.. مائة وحدة، وثلاثمائة وحدة؟!.. تفقد خمسمائة وحدة من ذكائك؟!

فصمت خالد، ولم يجدها.. حتى نطق إياد:

- لم أجد إلا هذا الحل أيتها الطيبة.. ثم ابتسما:

- يمكنك الآن أن تعرفي كم استنزفت من ذكائي اليوم.. عليك أن تخبرني به صديقك كي يعوضه لي..

فحذثه خالد مبتسمًا:

- حسناً يا إياد.. سأعطيك ما تريده كما وعدتك.. ثم نظر إلى أسيل مجددًا، وقال في هدوء:

- أسيل.. أريدك أن تخبريني، كم أمتلك من وحدات الذكاء الآن..

* * *

(16)

صمتت أسيل قليلاً بعدما طلب خالد منها أن تحدد له نسبة مخزونه من الذكاء ثم نظرت إليه، وتأملته كثيراً، ثم أمسكت برأسه، وأمسكت ثانية من جلدہ بين أصابعها:

- خالد.. إن مخزونك الآن لا يتعدى ستمائة وخمسين وحدة.. وقد يكون ستمائة فقط بعد استنزافك الكثير من الوحدات في تفكيرك..

فصممت ثم سألهَا:

- وكم يتبقى لامرأة الحاكم حتى تضع مولودها؟

فأجابته :

- أعتقد أنه يتبقى شهراً وعشرون يوماً أكثر أو أقل بأيام..

بعدها نظر إلى إياه:

- هل سيستغرق حفره عشرين يوماً فقط؟

فابتسم إياه: أعتقد ذلك.. وإن شئت أحضرت هؤلاء العمال من الغد..

فصممت خالد، وطال صمته تلك المرة ثم نظر إليهم:

- أريدكم أن ترکوني وحدي الآن..

فابتسمت أسيل:

- خالد.. أريد أن أبقى معك..

فوضع وجهها بين كفيه برقه:

- أريد أن أكون وحدي يا أسييل.. عليك أن تعودي إلى المسكن مع يامن الآن.. أريد أن أتخذ قراري بمفردي.. ثم نظر إلى يامن:

- اصطحب أسييل إلى المسكن.. وأنا سأتبعكملا لاحقاً..

ثم نظر إلى إياد، وشكرا على تفكيره في إيجاد الحل له.. ثم غادروا جمياً..

* * *

غادر إياد ومعه يامن وأسييل، والتي ظلت تتلفت وهي تسير مبتعدة عن خالد، وتنظر إليه حيث يجلس، وكأنها لم تُرِد أن تفارقه حتى اختفى عن نظرها.. بينما جلس هو على صخرة عريضة أمام السور.. ينظر إليه ويفكر فيما أخبره به إياد، ويتحدث إلى نفسه.. إما البقاء في زيكولا أو العودة إلى بلده.. وهو غبي.. ويسأل نفسه: هل يجد ذلك السرداد حقاً إن عبر هذا السور أم أنه سراب سيظل يطارده.. ثم يبتسم، ويتحدث إلى نفسه، وكأنها شخص أمامه يحدثه ويقنعه:

- انت شايف إن فيه حل ثاني؟.. زي ما قلت قبل كده مبقاش فاضل غير المجازفة..
ثم ضحك وأكمل مناقشته لذاته:

- قررت إيه يا خالد؟.. ترجع بلدك ومعاك مية وحدة ذكاء بس.. ولا تبقى هنا طول حياتك؟

- لو وافقت على اللي قاله إياد لازم تحس بلذة اللحظات دي.. لأنها ممكن تكون آخر لحظات ذكاء تعيشها..

ثم عاد بجسده للخلف.. وأسنند ذراعيه خلفه، وتذكّر جده حين كان يبتسم، ويداعبه صغيراً.. ويخبره بأنه ذكي.. حتى كبر، وعاد إليه يوماً بعدما لم يجد وظيفة

بشهادته.. وأخبره أنه لا فائدة لذكائه في بلده.. ماذا يفعل به، لاشيء.. يبتسم، ويتحدث إلى نفسه بصوت مسموع:

- مش هتفرق كتير لما أرجع لبلدي.. الذي مبيختلفش عن الغي كتير..
يشعر كم اشتاق إلى جده، وإلى رؤيته، ويعلم أنه لم يشغله عن التفكير به سوى سعيه للعودة إليه من جديد.. وينظر إلى السور، ويحدثه بصوت هامس:

- أنت الحاجز الوحيد بيبني وبين اللي بجهنم..

ثم نظر إلى البيت الذي يسكنه الخادم:

- وانت الحل الوحيد اللي هيخليني أشوف اللي بجهنم.. ثم أمسك برأسه ومرر شعره بين أصابعه، وتحدّث:

- أصعب قرار بحياتي.. أصعب قرار.. هتقرر إيه يا خالد؟.. هتقرر إيه؟

وظل هكذا لا يتوقف عقله عن التفكير.. حتى اقترب الليل من الزوال، وبدأ خط النهار يظهر.. فنهض واتجه إلى المسكن الذي يسكن به يامن وأسيل.. وما إن وصله حتى دلف إلى غرفة يامن فوجده نائماً، فهمس إليه:

- يامن.. يامن..

فلم يستيقظ فنكزه بيده حتى فتح عينيه.. وكاد يتحدث فأشار إليه خالد أن يصمت، وتحدّث بصوت منخفض:

- أسيل في الغرفة المجاورة.. ولا أريدها أن تصحو.. إن كانت نامت من الأساس..
فنهض يامن، وجلس على سريره فاتحًا عينيه بصعوبة.. حتى أكمل خالد بصوته المنخفض:

- أريد أن أتحدث إليك..

يامن: حسناً..

فأكمل خالد: لقد اتخذت قراري..

فنظر إليه يامن.. ينتظره أن يكمل حديثه سريعاً.. حتى أكمل:

- أرى أن إياداً على حق.. سأعبر سور زيكولا من خلال النفق..

فقطاعه يامن:

- خالد.. وذكاؤك؟!

فأجابه: لقد فكرت كثيراً في ذلك.. لقد أخبرنا إياد أن حفر ذلك النفق سيستغرق عشرين يوماً.. وسيعطيينا ذلك الخادم البيت حتى يوم زيكولا، حتى يعود أصحابه إن عادوا..

فقطاعه يامن: نعم سيعودون.. هكذا تجار زيكولا، سيطير خبر يوم زيكولا قبله بأيام.. فيستعد كل من يريد العودة، حتى يفتح باب زيكولا فيدخلونها.. فوائل خالد حديثه: هذا ما أقصده.. يتبقى على يوم زيكولا شهران وعشرون يوماً.. سيحفر ذلك النفق، ولكنني لن أغادره حتى يوم زيكولا.. إنهم ثمانون يوماً.. إن عملت هنا مقابل ست وحدات بالليوم، سأوفر حتى يوم زيكولا ربما ربعمائة وثمانين وحدة.. مع ما تبقى لدى من المائة وحدة.. سيكون لدى ما يقرب من ستمائة وحدة.. أي أنني لن أختلف كثيراً حين أخرج من النفق.. وستتفعلني كثيراً تلك الوحدات حين أصل إلى سرداد فوريك..

فابتسم يامن:

- إنه قرار حياتك يا صديقي.. ولا دخل لي به..

ثم أكمل: إنك ذكي حقاً يا خالد، وكم أنا مسروor لذلك.. فإنك ستبقى معنا شهرين آخرين.. خشيت أن ترحل بعد عشرين يوماً فقط..

فابتسم خالد:

- هذا إن وضعت زوجة الحكم ذكرًا.. ربما تطول المدة إن وضعت أنثى.. وانتظرنا يوم زيكولا في موعده الأساسي بعد خمسة شهور..

فابتسم يامن:

- الآن أتمضي أن تضع أنثى..

فابتسم خالد ثم زالت ابتسامته:

- أردت أن أحذنك بعيداً عن أسيل لأنني لا أريد أن أسبب لها الكثير من التعب.. وأخشى أن يؤثر ذلك على عملها كطبيبة زيكولا الأولى.. اليوم سأفقد ذكائي.. سأصبح في عداد أغبياء زيكولا وفقرائهم.. لن أستطيع التفكير.. وإن فكرت ربما ستكون قراراتي غبية..

ثم نظر إليه، وأمسك بذراعيه:

- يامن.. من اليوم أنت من ستتخذ أي قرار يخصّني..

فأسأله يامن مندهشاً:

- أنا؟ !!

فأجابه خالد:

- نعم.. أخشى أن يكون تفكيري بغيء سيسبب الكثير من المتاعب.. ولهذا سأحملك مسؤوليتي بعد اليوم.. سأطريك مهما كان قرارك.. بالطبع ستكون أذكي ممّي..

فصمت يامن، وفرك شعره:

- إنها حقاً مسؤولية كبرى..

فأكمل خالد:

- ما عليك سوى أن تجعلني أعمل.. حتى أسترجع ذكائي.. فإن فعلت ذلك فلن أنساه طوال عمري.. ثم هدا صوته، واقترب منه:

- أريد أن أخبرك بشيء آخر..

- يامن.. إنني أحب أسيلاً.. وأخشى أن أكون غبياً فتبعد عنِّي.. سأطيعك فيما تراه
أن أفعله تجاهها أيضاً فرد يامن:

- أرى أنها تحبك أيضاً، وتحبك كثيراً..

فابتسم خالد: أعلم ذلك.. ولهذا فكرت أن آخذها معي إلى أرضي.. لقد فكرت كثيراً
في ذلك.. ولكنني ترددت أن أخبرها بحبي لها.. وقررت أن أخبرها بذلك حين أجد
الطريق ممهداً لعودتي إلى بلدي.. سأتركك وقتها تخبرني ماذا أفعل..
فابتسم يامن:

- أتمنى لكما السعادة يا صديقي..

فابتسم خالد:

- حسناً لننهض.. علينا أن نذهب إلى إياد.. وأعتقد أن أسيلاً قد استيقظت.. لا
تخبرها بشيء مما قلناه..

فابتسم يامن، وقد نهض: حسناً..

* * *

استيقظت أسيلاً فوجدت خالداً ويامناً في انتظارها، فسألت خالداً على الفور:
- هل اتخذت قرارك؟

فابتسم خالد:

- نعم.. لقد قررت أن أجاذف، وأفعل ما أخبرنا به إياد.

فصمتت أسيلاً حتى أكمل:

- وسأنتظر حتى يوم زيكولا حيثما كان.. بعد ثمانين يوماً أو بعد خمسة أشهر..
وسأعمل كي أسترجع جزءاً كبيراً من ذكاني حتى عودتي..

فسألته، وبذا الحزن على وجهها:

- ألم تجد حلاً آخر؟ .. فهُرَّ خالد رأسه نافياً، فسألته مجددًا:
- ولماذا لا تنتظر حتى تعمل، أولاً فيزيد مخزونك.. ثم تحفر نفقك قبلها بأيام،
وتحافظ على ذكائك.. كما فعلت حين اشتريت كتابك؟

فأجابها :

- فكرت في ذلك.. ولكنني أصبحت أعلم جيداً طبيعة أهل زيكولا، ومدى انهازهم..
كلما اقربينا من ذلك اليوم.. سيطلب من يحفرن النفق الكثير من الأجر.. ربما
يطلبون ضعف الثلاثمائة وحدة أو ضعفين.. ثم نظر إليها، وابتسم:

- سأكون بخير يا أسييل.. سأكون بخير.. أريدك فقط أن تكوني معي..
فابتسمت أسييل حتى تحدث يامن:

- هياً.. علينا أن نجد إياداً..

ولم يكدر يكمل جملته حتى وجدوا إياد يدخل إليهم فابتسم يامن:
- كنا في طريقنا إليك..

فضحك إياد:

- أعلم ذلك.. ولذا أردت أن أوفر القليل من الوقت.. ثم نظر إلى خالد:
- هل اتخذت قرارك؟

فردَّ خالد:

- نعم.. وسأترك لك المسئولية لمتابعة ذلك النفق، وسأعطيك مقابلًا.. ولكنه ليس
كبيراً، وليس الآن..

فابتسم إياد:

- لا بأس.. ثم أكمل:

- كنت أعلم أنك ستقرر ذلك.. ثم تحرك خطوات إلى الخارج، وعاد ومعه فتى ملابسه بالية ثم أشار إلى خالد، وحدث الفتى:

- إنه من يريد أن يستأجر بيته سيدك..

فتتحدث الفتى:

- حسناً، ولكن سأكررها.. إلى يوم زيكولا فقط.. بل اليوم السابق له حق.. يوم يفتح باب زيكولا.. إن عاد سيدك فلن يترككم لحظة واحدة ببيته.. وربما يقتلني إن علم أنني من أدخلتكم بيته..

فأوما خالد إليه برأسه موافقاً دون أن يتحدث ثم نظر إلى إياد:

- ومتى يأتي عمالك؟

فهمس إليه إياد:

- سيأتون بعد قليل.. لا تخبر الفتى بما سنفعله أسفل بيت سيده.. ربما يضيع كل شيء إن علم بذلك.. سيأتون بعد أن يرحل.. بعدها نظر خالد إلى الفتى:

- حسناً.. أستأجر منك البيت حتى يوم فتح باب زيكولا مقابل مائة وحدة.. فابتسم الفتى، وأخرج مفتاحاً حديدياً كبيراً:

- وهذا مفتاح بيته سيدتي..

وما إن أخذه خالد حتى شعر بالم شديد برأسه.. فنظرت إليه أسييل في لحظة، واقترن منه، بعدها أمسك برأسه:

- خالد، تمسك.. أرجوك تمسك.. أعلم أن اليوم شاقٌ عليك..

فلم يردد، وظل ممسكاً برأسه، وبدأ شحوب جلده يزداد.. حتى سأله:

- خالد.. هل أنت بخير؟

فأجابها بصوت منخفض:

- نعم..

ولم يترك رأسه حتى مرّ قليل من الوقت.. وخرج إياد وعاد مجدداً، وتحدّث إليه:
- لقد أتى زعيم العمال الذين سيحذرون النفق.. ولكنه يريد أن يأخذ الثلاثمائة
وحدة دفعة واحدة.. هل ستعطّيهما أجراً لهم دفعة واحدة كما طلبوا؟

فنطقـتـ أـسـيـلـ عـلـىـ الفـورـ

- لا.. لن يدفع لهم ثلاثة وحدة الآن..

فأمسكـ خـالـدـ بـيـدـهـاـ..ـ ثـمـ تـحـدـثـ إـلـىـ إـيـادـ:

- هل يأخذـونـ أجـرـهـمـ دـائـمـاـ هـكـذاـ؟ـ

فردـ إـيـادـ:ـ نـعـمـ..ـ وـهـذـاـ مـاـ سـيـجـعـلـهـمـ يـكـتـمـونـ أـمـرـ ذـلـكـ النـفـقـ..ـ الـذـيـ قدـ يـوـدـيـ بـحـيـاتـنـاـ
جـمـيـعـاـ..ـ

فـنـطـقـ خـالـدـ فـيـ صـوـتـ هـادـئـ:

- حـسـنـاـ..ـ سـأـعـطـهـمـ مـاـ يـرـيدـونـ..ـ

فـصـرـخـتـ إـلـىـ أـسـيـلـ:

- خـالـدـ..ـ إـنـ هـذـاـ قـدـ يـوـدـيـ بـحـيـاتـكـ..ـ

فـابـتـسـمـ إـلـهـاـ خـالـدـ:ـ إـنـيـ قـوـيـ..ـ سـأـدـفـعـ لـهـمـ مـاـ يـرـيدـونـ،ـ سـوـاءـ الـآنـ أـوـ بـعـدـ ذـلـكـ..ـ وـلـاـ
أـرـيدـ أـنـ يـخـبـرـوـ أـحـدـاـ..ـ فـتـحـدـثـ إـيـادـ:

- حـسـنـاـ..ـ سـأـدـخـلـهـ إـلـيـكـ الـآنـ ثـمـ أـذـهـبـ مـعـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ الـبـيـتـ لـأـنـهـمـ سـيـبـدـأـونـ عـمـلـهـمـ
مـنـ الـيـوـمـ..ـ وـأـنـتـ سـتـوـاـصـلـ عـمـلـكـ..ـ وـسـتـجـدـ نـفـقـكـ كـامـلـاـ بـعـدـ عـشـرـينـ يـوـمـاـ..ـ وـقـدـ
أـكـدـواـ لـيـ ذـلـكـ..ـ وـبـعـدـ أـنـ تـغـادـرـهـ -ـ مـقـىـ تـشـاءـ-ـ سـأـجـعـلـهـمـ يـمـلـأـونـ جـزـءـ الـقـرـيبـ مـنـ
الـبـيـتـ بـالـصـخـورـ مـجـدـداـ ثـمـ يـعـيـدـونـ أـرـضـيـةـ الـبـيـتـ كـمـاـ كـانـتـ..ـ وـأـتـمـنـ أـلـاـ يـثـيرـ رـبـةـ
صـاحـبـهـ حـينـ يـعـودـ إـلـيـهـ ..ـ فـحـدـثـهـ خـالـدـ:

- حـسـنـاـ..ـ أـدـخـلـهـ..ـ

فخرج إياه.. وعاد ومعه رجل ضخم شعره مجعد، وشاربه كثيف، وشفتاه غليظتان، وبيهده آلة حفر يدوية سُنْهَا حديدي مدبب، وتخرج منه عصا خشبية سميكه.. ثم نطق بصوته الغليظ:

- إننا نريد ثلاثة وحدة الآن..

فتتحدث إليه خالد:

- لا أريد أن يعلم أحد بذلك أبداً..

فرد الرجل:

- حسناً، كما تريده.. إننا نعلم كيف نصون السر جيداً..

فابتسم خالد: حسناً، لك ما تريده..

فابتسم الرجل، وهم ليغادر قائلاً:

- سنبدأ العمل اليوم.. وسترى كم نحن بارعون..

ثم غادر، ومعه إيات الذي أخذ المفتاح الحديدي معه.. أما خالد فأمسك رأسه من جديد، وتزايدت ضربات قلبه، وتسارعت أنفاسه، وزاد شحوبه للغاية، وشحت شفتاه، واحمررت عيناه، ونهض من مكانه، وسار متزنة بين أرجاء المكان، ونظر إلى يامن وأسيل في ذهول، وترنح مجدداً، وبرزت عياته وأمسك برقبته كأنه يختنق، وأسالي تناديه وقد تساقطت دموعها:

- خالد.. عليك أن تصمد.. لم يفعل أحد من قبل مثلما فعلت..

خالد.. ستتصمد.. إنك قوي.. أعلم أنك ستتصمد.. ستتصمد..

ثم أمسكه يامن: خالد.. ستعود إلى بلدك.. ستعود قوياً كما كنت.. سترجع ثروتك..

وخلال ما زال يتحرك، ومهذبي، ولا يدرى بشيء من حوله، وينظر إلى ذراعه التي أصبحت صفراء شاحبة، وإلى كفيه اللتين ارتعشتا قليلاً.. حتى أراد أن يتوجه نحو

الباب، وما إن تحرّك خطوات نحوه حتى سقط على الأرض، وظلّ جسده ينتفض، وضمتُ أسيل رأسه إلى صدرها، ورجلاه تنتفضان بقوة، حتى هدأتا رويداً، وأغمض عينيه.. فنظرتُ أسيل باكية إلى يامن:

- كنتُ أعلم أن ذلك سيصيبه.. ولكنني لم أعلم أنني لن أستطيع أن أراه هكذا.. وزادت دموعها، ومررت يدها فوق شعره، وأكملت:

- إن اليوم سيكون أصعب أيامه في زيكولا.. إن مخزونه الآن لا يزيد عن مائة وحدة.. عليه أن يأخذ قسطاً كبيراً من الراحة اليوم..

فردَّ يامن:

- حسنا.. سأتركه ينام حتى الغد، وأنا سأذهب كي أرى عملنا الجديد.. لابد وأن نعمل من الغد.. لقد أصبح هدفي الآن أن يستعيد خالد ذكاءه قبل أن يغادر زيكولا.. وسأتبع مع إياك أيضاً حفر ذلك النفق..

فقالت أسيل، وما زالت دموعها على خديها:

- حسناً.. عليك أن تحمله إلى سريره الآن.. وأنا سأظل بجواره حتى تعودو..

* * *

غادر يامن بيته ضيافة الطيبة بعدما حمل خالد إلى سريره.. وترك بجواره أسيلاً التي ظلت تنظر إليه، وتحاول أن تتمالك نفسها من البكاء مجدداً، وتتسكب القليل من الماء البارد على يدها ثم تمررها على وجهه وعلى لحيته الناعمة ثم على شعره الناعم.. وخالد مغلقة عيناه، ومهذى بكلمات غير مفهومة، وأسيل تنظر إليه، وتتذكر حين اصطدم حصان عربتها به ورأته لأول مرة.. ثم تذكر حين قرأت كلماته التي كتبها عنها، وأتها حورية زيكولا، وتمسح مجدداً وجهه بالماء، وابتسمت حين تذكرت حدثه إليها حين رأى نجماً لامعاً فريداً، وأخبرها بأنه قد سماه أسيلاً.. تشعر بأنها تراه أمامها كما رأته حين وقف أمام عمال المنطقة الشرقية لقائهم.

وجعلهم -كلمات منه- يتخلّون عن خوفهم، ويتحدون ضد آخني وحدات الحماية.. وبدأت تتحدث إليه بصوت هادئ:

- ستكون على مايرام يا خالد.. ستكون بخير..

ثم نهضت لتحضر المزيد من الماء فوجده بهدى، ويعلو صوته:

- جدي.. مفي.. مفي.. جدي..

فتوقفت قدمها حين سمعته.. ثم أكملت طريقها لتحضر الماء.. حتى عاد يامن، وظلّا بجواره ساعات طويلة دون أن يغفو لهما جفن.. حتى مر ذلك اليوم...

في صباح اليوم التالي، فتح خالد عينيه فوجد أسيلاً ويامناً بجواره فضحك، فسألهما:

- لماذا تجلسان هكذا؟ !

فابتسم يامن، وابتسمت أسيلا، وردت:

- لقد أصابنا الفلق فحسب..

فصمت خالد، ولم يتحدث بعدما نظر إلى ذراعه ثم نظر إلى يامن، وحدهه بصوت هادئ:

- هل بدأوا العمل؟

فأجابه: نعم.. لقد بدأوا بالأمس..

فسأله مجدداً:

- ونحن لماذا لا نعمل معهم؟ !

فابتسم يامن:

- لدينا عملنا..

فصاح به في غضب:

- ولماذا نجلس هنا؟ !

فابتسمت أسييل، ونظرت إلى يامن:

- نعم.. لماذا تجلسان؟ .. هيا انهضا إلى عملكم؟

فنظر خالد إلى أسييل مندهشاً:

- ألن نساعدك؟

فابتسمت:

- كنت أتمنى ذلك.. ولكن مرضى تلك المنطقة أغليهم من النساء.. لقد وجد يامن لك عملاً ستتوفر منه ست وحدات باليوم..

فركل يامن بقدمه:

- حسناً.. هياً بنا إلى العمل..

فضحكت يامن:

- حسناً يا صديقي.. انتظر حتى أغسل وجهي بالماء.. أراك أصبحت متسرعاً قليلاً..

* * *

اتجه خالد مع يامن إلى عملهما الجديد في المنطقة الغربية.. وخالد يسير واجماً، وقد بطأت حركته، وكلما سار بمكان ما، تلقت حوله كثيراً، وظل يسأل يامن الكثير من الأسئلة والتي أجابها له يامن من قبل، ويامن يبتسم ويجيبه مجدداً.. حتى وصل إلى عملهما الجديد.. فتححدث إليه يامن:

- هنا سنكسر الصخور مثلما كنا نكسرها في المنطقة الشرقية.. أتتذكر؟

فرد خالد:

- نعم.. أتذكر..

فأكمل يامن:

- أعلم أن كفاءتك ستكون أقل.. ولكن ما عليك سوى أن تقلّدني في عملي.. إنه عمل لا يحتاج إلى ذكاء.. وحين ننتهي من عملنا سنثال أجراً.. ثم نذهب إلى إياد لزنى نفقك يا صديقي..

بدأ خالد يعمل مع يامن.. وكانت كفاءته أقل كما أخبره.. وكلما اشتغل بعمله زاد تعبه وإنهاكه وأراد أن يستريح.. فيحدثه يامن بأن يعمل، ويحمسه:

- هيئا يا خالد.. هيئا.. إنك بحاجة إلى كل وحدة..

فيعمل مجدداً، ويحاول أن ينافس يامناً، ولكنه لا يستطيع.. فمهدى يامن من عمله، ويكسر مثله ببطء.. ثم يوحى إليه بأنه من تفوق في تلك المنافسة.. حتى انتهيا من عملهما، وأخذوا أجراًهما، واتجها إلى ذلك البيت الذي استأجره.. فوجدا إياداً هناك بمفرده، وعمال الحفر قد انصرفوا، فسألته خالد في غضب:

- أين العمال؟

فأجابه إياد: إنهم قد انصرفوا.. لن يستطيعوا أن يعملا مع هدوء الليل.. إن ضجيج النهار يستر خلفه ضجيج الحفر..

فصاح به خالد:

- إننا نريد أن نسرع..

فأشار يامن إلى إياد بأن مهدى من حديثه.. وأن خالداً ليس كطبيعته، ثم أمسك بيده، وتحرك بهما إلى إحدى غرف الطابق السفلي بالبيت:

- انتظرا.. لقد تخلصوا اليوم من أرضية تلك الغرفة، ومعها الطبقة الصخرية الصلبة.. إنها أصعب ما في الأمر.. بعد ذلك أعتقد أن الحفر سيكون سهلاً.. وسينتهى في موعده بعد عشرين يوماً.. ثم نظر إلى خالد:

- أطمئن.. سأجعلهم يعملون ليلاً أيضاً، ولكن مع اقتراهم من نهاية النفق.. ثم ضحك:

- من سيزيل تلك الصخور والرمال التي سيخرجونها من النفق، غيرهم؟ ! ..

فهذا خالد، وهم للمغادرة:

- افعلوا ما تشاءون.. ثم نظر إلى يامن:

- يامن.. أريد أن أعود إلى المسكن..

فابتسم إليه يامن في هدوء:

- حسناً يا خالد.. سنعود.. ثم نظر إلى إياد:

- إياد.. إن مصير خالد مصيرى.. لن أوصيك..

فضحك إياد:- لا أنسى أننى سأثال أجرًا لمتابعة هؤلاء العمال..

* * *

توالت الأيام يوماً تلو الآخر، وخالد يعمل مع يامن، ويترك كل ما يريد أن يأخذ قراراً بشأنه إليه، ولا ينافقه بشئ.. ما يريد فقط أن يعمل، وينال أجوره.. ثم يتجها إلى إياد ومن معه من عمال، وتأنى إليهم أسيل حين تنتهى من عملها، وخالد ينظر إلى ما يفعلونه من بعيد.. ولا يتدخل بعملهم مطلقاً.. وقد تعمقوا بالأرض مسافة عمودية، قد تصل إلى مترين، ووضعوا بها سلماً خشبياً صغيراً.. ومنها بدأوا يحفرون نفقاً أفقياً.. واندھشت أسيل حين نزلت تلك الحفرة، ونظرت إلى النفق الأفقي.. وتعجبت من تلك البراعة التي يحفرون بها.. وكلما حفروا مسافة معينة دعموها بالأخشاب حتى لا ينهار ما فعلوه.. وتنتظر إلى خالد ضاحكة:

- لقد بدأ العمل بحق يا خالد.. ستحقق أملك قريباً.. ثم نظرت إلى إياد، وطلبت أن تتحدث إليه بعيداً عن خالد ثم سأله:

- هل سيستطيع أن يسير بذلك النفق..

فأجابها إياد:

- بالطبع لا.. إن ارتفاع النفق لا يتجاوز متراً.. عليه أن يزحف به.. أو يتحرك على ركبتيه.. إنها ليست مسافة كبيرة..

فصمتت أسيل ثم سأله مجددًا:

- وماذا عن ثبوتيه.. أخشى أن يختنق داخله، فابتسم إياه:

- أرى أنك تخشين عليه كثيراً.. لا أرى أنها مشكلة على الإطلاق.. إن النفق سيكون مفتوحًا من الجانبين.. وهذا بالطبع سيمرر الهواء..

فردت أسيل:

- أتفهم ذلك..

واستمرت الساعات في مرورها.. ومرت الأيام معها.. وخالد يواصل عمله.. والعمال يحفرون نفقه.. ويسرعون في عملهم دون أن يدرى أحد بما يحدث تحت الأرض الخالية بين سور زيكولا والبيت القريب منه.. يحفرون نهاراً، ويخلصون من صخور الحفر ليلاً.. ويامن يزداد الأمل أمامه، وكلما نزل النفق، وزحف على ركبتيه أمتاراً به، ومعه شعلة من النار يضحك، ويتحدث إلى خالد الذي ينتظره عند فتحته.. ويعلو صوته إليه:

- انظر يا خالد.. لم يعد سوى مسافة قليلة إلى سور زيكولا.. انظر يا خالد.. ستخرج من زيكولا كما تربى..

وخالد يستمع إليه، وابتسم، ويتحدث إلى نفسه: "سأخرج يا يامن.. سأخرج.." وتمر الأيام أكثر وأكثر، وأسيل تبني عملها كل يوم لتذهب إلى ذلك النفق.. فتجد خالدًا ويامناً هناك فتجلس بجوارهما، ويداعبان خالدًا ولا يتركانه حتى يعود معهما إلى ذلك المسكن.. دار الطبيب.. بعدما رفض أن يسكن بالطابق العلوي بالبيت ذاته.. وقد وافقاه فيما أراد.

حتى جاء اليوم الثامن عشر من بداية الحفر، وكان خالد يجلس مع يامن بمفردهما، فنظر إليه:

- يامن.. لقد أخبرتك من قبل أنني أحب أسيلاً..

فرد يامن مبتسماً:

- نعم

فأكمل خالد:

- لم يعد يتبقى على إتمام النفق ومروهه أسفل سور زيكولا سوى القليل.. وأنا أود أن أخبر أسيلا بأنني أحجاها.. وأن أطلب منها أن تأتي معي إلى بلدي..

فابتسم يامن: مازال هناك وقت حتى يوم زيكولا..

فصمت خالد ثم نظر إليه:

- أعتقد أنني تأخرت كثيراً كيأخبرها بذلك.. أرى أن الوقت قد حان لتعلم كم أحجاها..

فسألة يامن: هل تريد أن تخبرها بذلك الآن؟

فأجابه :- لا أعلم.. ما أعلم أنه لا امتلك من الذكاء سوى مائة وحدة أو أكثر بقليلًا.. وأخشى ألا أكون ذكياً في حديث معها..

فابتسم يامن:

- إنها تعلم من أنت يا خالد.. وهي تحبك.

فابتسم ابتسامة حزينة:

- أريدك فقط أن تخبرني ماذا أفعل.. كنت أظن الأمر سهلاً.. ولكنني لا أجده بتلك السهولة.. أخشى أن يكون تواجدها معي تعاطفاً ليس حباً..

فصمت يامن قليلاً ثم صرخ وقال :

- سأخبرك ماذا تفعل، ثم سأله:

- أين أوراقك التي كنت تكتها؟

فأشار خالد إلى أغراضه:

- إنها هناك بين أغراضي..

فـسـأـلـهـ:

- كـتـبـتـ بـيـنـهـاـ أـنـكـ تـحـبـ أـسـيـلـ؟

فـأـجـابـهـ خـالـدـ: نـعـمـ..

فـسـأـلـهـ: وـهـلـ قـرـأـتـهـ أـسـيـلـ؟

فـأـجـابـهـ: لـاـ.. إـنـهـ قـرـأـتـ الـأـوـرـاقـ الـأـوـلـىـ فـقـطـ.. حـينـ كـنـتـ أـمـدـحـهـاـ.. وـلـكـنـهـاـ لـمـ تـقـرـأـ
أـنـهـ أـحـبـهـاـ مـنـذـ دـخـولـيـ إـلـىـ زـيـكـوـلاـ.

فـابـتـسـمـ يـامـنـ:

- حـسـنـاـ سـآـخـذـ تـلـكـ الـأـوـرـاقـ، وـسـأـجـعـلـهـاـ تـقـرـأـهـاـ، وـسـتـأـكـدـ منـ حـبـكـ لـهـاـ، وـلـنـ تـنـتـظـرـ
حـتـىـ تـنـذـهـ إـلـيـهاـ.. أـرـاهـنـكـ بـخـمـسـ وـحدـاتـ مـنـ الذـكـاءـ.. إـنـهـاـ حـينـ تـقـرـأـ تـلـكـ الـأـوـرـاقـ
سـتـأـتـيـ إـلـيـكـ مـسـرـعـةـ وـتـقـولـ أـحـبـكـ يـاـ خـاـاـاـالـدـ..

فـابـتـسـمـ خـالـدـ:

- حـسـنـاـ لـفـعـلـ ماـ تـشـاءـ.. أـمـاـ أـنـاـ فـأـرـيدـ أـنـ أـذـهـبـ إـلـىـ إـيـادـ وـمـنـ مـعـهـ مـنـ عـمـالـ الـآنـ..
ثـمـ أـتـجـولـ بـيـنـ شـوـاعـ الـمـنـطـقـةـ قـلـيلـاـ.. لـاـ أـرـيدـ أـنـ أـنـامـ الـلـيـلـةـ.. أـشـعـرـ إـنـهـاـ لـيـلـةـ
مـخـلـفـةـ.. لـمـ يـعـدـ سـوـىـ يـوـمـيـنـ عـلـىـ اـنـتـهـاءـ الـعـشـرـيـنـ يـوـمـاـ الـتـيـ أـخـبـرـنـيـ بـهـاـ إـيـادـ.

بعـدـهـاـ خـرـجـ.. أـمـاـ يـامـنـ فـقـدـ حـمـلـ أـورـاقـهـ، وـاتـجـهـ بـهـاـ إـلـىـ غـرـفـةـ أـسـيـلـ، وـطـرـقـ بـاـهـراـ
بـرـفـقـ.. فـفـتـحـتـهـ فـابـتـسـمـ، وـأـظـهـرـ إـلـيـهـاـ أـورـاقـ خـالـدـ، وـتـحـدـثـ:

- إـنـ خـالـدـ قـدـ خـرـجـ وـلـأـعـلـمـ أـيـنـ هـوـ.. وـأـنـاـ سـأـخـرـجـ الـآنـ.. حـينـ يـأـتـيـ، أـرـيدـكـ أـنـ تـخـبـرـهـ
بـأـنـيـ قـدـ وـجـدـتـ أـورـاقـهـ مـبـعـثـرـةـ.. ثـمـ أـعـطـاـهـاـ لـهـاـ فـابـتـسـمـتـ أـسـيـلـ:

- حـسـنـاـ سـأـعـطـيـهـاـ لـهـ حـينـ يـعـودـ..

ثـمـ أـخـذـهـاـ، وـأـغـلـقـتـ بـاـهـراـ عـلـىـ الـفـورـ، وـأـسـرـعـتـ إـلـىـ سـرـيرـهـاـ، وـبـعـثـرـتـ الـأـوـرـاقـ أـمـاـهـاـ
فـيـ سـعـادـةـ.. تـرـىـدـ أـنـ تـقـرـأـ مـاـ كـتـبـهـ خـالـدـ عـنـهـاـ.. وـزـادـتـ مـنـ إـضـاءـةـ غـرـفـتـهـاـ، وـأـمـسـكـتـهـمـ
وـرـقـةـ وـرـقـةـ.. وـكـلـماـ اـنـتـهـتـ مـنـ قـرـاءـةـ إـحـدـاـهـنـ تـنـاـوـلـتـ الـأـخـرـىـ.. وـظـلـلـتـ تـقـرـأـ مـاـ كـتـبـهـ
خـالـدـ عـنـهـاـ فـيـ الـبـداـيـةـ، وـالـذـيـ قـرـأـتـهـ مـنـ قـبـلـ وـأـنـهـاـ حـوـرـيـةـ زـيـكـوـلاـ.. ثـمـ بـدـأـتـ تـقـرـأـ مـاـ

كتبه خالد عن زيكولا، وعن أهلها، وعن مناطقها.. حتى قاطع تركيزها الشديد صوت طرقات شديدة على باب غرفتها، وحين نهضت وفتحت بابها.. فوجئت ببعض الجنود، وقادتهم يتحدثون:

- أيتها الطبيبة.. إننا من حراس الحكم.. لابد أن تأتي معنا على الفور..
فسألته في دهشة:

- لماذا؟

فأجابها:

- لا أعلم سيدتي.. لقد أمرني سيدي الحكم أن آتي بك على الفور.. يبدو أن سيدتي ليست على مايرام..

هدأت أسييل:

- حسناً.. سأتي معك.

ثم أغلقت باب حجرتها مرة أخرى، وبدلت ملابسها، وملمت أوراق خالد سريعاً لتحملها معها.. ولم تدر أن هناك ورقة قد أسقطتها دون أن تشعر..

خرجت أسييل مسرعة مع حراس الحكم.. وأرادت أن تخبر خالداً أو يامناً بأنها ستذهب إلى المنطقة الوسطى فلم تجد أيهما.. فركبت العربة الفخمة التي جاءوها بها، وبدأت العربية في التحرك، وهي تنظر عبر نافذتها لعلها تجد خالداً، ولكن دون جدوى فحدثت نفسها:

- إن المنطقة الوسطى ليست بعيدة.. سأذهب إلى هناك، وسأعود على الفور..

ثم طلبت من قائد الحراس الذي كان يجلس أمامها في العربية أن يزيد من إضاءة المصباح الناري كي تتمكن من قراءة باقي أوراق خالد التي أحضرتها معها حتى تصل إلى قصر الحكم.. وبذلت تقرأ مجدداً ماكتبه بينما تسير العربية، وبدأ السرور على وجهها.. حتى وصلت إلى آخر ورقة معها، وزادت ضربات قلبها حين وجدت أن خالداً

قد كتب بها أنه قابل فتاة أثناء عمله بتكسير الصخور تشبه مني حبيبته، التي أحبها ست سنوات، وكادت دموعها تسقط حين انتهت الورقة، وقد كتب:

- "ما أعلمه جيداً أنني لم أحب غير مني طوال عمري"

وانتهت الأوراق معها، فحاولت أن تتمالك نفسها.. حتى شعر قائد الحراس بذلك عندما بدا التوتر على وجهها، ولمعت عيناه بالدموع، وتتسارعت أنفاسها، وكأن صدمة أصابتها فسألها:

- أهناك م Krohه، سيدتي؟

فأجابته في حزن: لا شيء.. ثم نظرت عبر النافذة، ولم تحرك ساكناً.. في الوقت ذاته عاد يامن إلى المسكن، ووجد فتاة تخرج من حجرة أسييل ،، كانت تقوم بتنظيفها، فسألها:

- أين الطبيبة أسييل؟

فأجابته:

- لقد خرجت مع جنود الحكم..

ثم أخرجت ورقة صفراء، وأكملت:

- وقد سقطت منها تلك الورقة يا سيدتي.

فأمسك يامن بالورقة فوجدها إحدى أوراق خالد، والتي كتب ببدايتها:

- "لم أحب غيرها طوال عمري قبل أن آتي إلى زيكولا.. حتى وجدت أسيلاً التي يزداد شعوري كل يوم بمحبها .. أما أنا فأأشعر تجاهها بحب لم أشعر بمثله من قبل.."

فظهرت خيبة الأمل على وجهه ثم سأله الفتاة:

- ألا تعلمين لماذا جاءها جنود الحكم في ذلك التوقيت المفاجئ؟

فأجابته:

- لا أعلم سيدتي..

* * *

مر الوقت قليلاً، وخرج خالد إلى شوارع المنطقة الغربية.. يسير في هدوء ليلاً بعدما نزل ذلك النفق الذي أوشك على انتهائه وخرج منه.. يتنبئ أن ينتهي حفره وأن تمر الأيام سريعاً، ويستكمل جزءاً من ذكائه حتى يخرج من زيكولا، وظل يسير، ويفكر هل قرأت أسيل أوراقه.. هل علمت بمدى حبه لها.. حتى فوجي بالكثير من الجنود يقتربون منه، ويحيطون به، ويمسكونه فسالمهم على الفور:

- لماذا تمسكون بي؟!.. إنني لم أفعل شيئاً..

فأجابه قائدتهم في غلظة:

- نعم.. إنك لم تفعل شيئاً.. ثم أكمل:

- لقد وضعت زوجة الحاكم ولدها الليلة أنها الفقير.. وسيكون يوم زيكولا بعد سبعة أيام من اليوم..

فصاح خالد: ماذا.. لا.. مازال هناك شهراً على وضعها..

فضحك القائد ساخراً إلى جنوده:

- أرى أنه أفقر من قابلنا.. ثم سأله:

- ألا تعلم أن هناك من يولدون بعد سبعة أشهر فقط، ثم أشار إلى جنوده، وقد استدار بحصانه:

- أمسكوا به، وضعوه مع غيره من فقراء منطقتنا.. حتى يعرضوا على أطباء زيكولا.

* * *

(17)

كان ما حدث من أمر الجنود صدمة بالنسبة لخالد.. ووُقعت كلمات قائهم على سمعه كالصاعقة التي أنسنته كل شيء من حوله.. وحاول أن يتملّص من الجنود الممسكين به ولكنه لم يستطع، واقتادوه معهم إلى قصر كبير يوجد بالقرب من الطرف الشرقي للمنطقة الغربية.. ثم أدخلوه إحدى غرف القصر الخالية بالطابق السفلي.. وأوصدوا بابها الحديدي من خلفه فأصبحت إضاءتها شاحبة يغامها الظلام.. فجلس بأحد أركانها، ووضع رأسه بين يديه، وكان صدمته شلت تفكيره.. ثم نهض مجدداً، واتجه نحو الباب الحديدي، وصاح:

- لابد أنكم مخطئون.. لابد أنكم مخطئون.. لابد أن أغادر..

حتى سكت فجأة حين سمع صوتاً من خلفه:

- تغادر إلى أين؟!

التفت خالد فوجد رجلاً يجلس بركنٍ بعيدٍ بالغرفة، ولم تكن ملامحه قد ظهرت حتى اقترب منه فبدأت ملامحه في الظهور شيئاً فشيئاً، ووجده رجلاً يبدو من هيئته أنه في الأربعين من عمره.. فسأل:

- من أنت؟

فرد الرجل في هدوء:

- فقير مثلك..

فصرمت خالد حتى سأله الرجل:

- لماذا لا تجلس؟!

فأجابه :

- أريد أن أخرج من هنا.. لابد أن أخرج..

فابتسم الرجل :

- ليتنا نخرج جميعاً.. اجلس لا تضيع وقتك.. طالما جئت هنا لم يعد لك أمل سوى أن يكون هناك من هو أكثر منك فقراً.. ثم تابع بعدما صرمت برهة:

- أو يكون لك حظٌ مع الزيكولا..

فجلس خالد بجواره ثم سأله:

- ما اسمك؟

فردَ الرجل: أنا جواد..

فأكمل خالد: ألا يوجد غيرنا؟!

فأجاب جواد:

- انتظر.. مازال أمامهم يوم آخر حتى يأتينا أطباء منطقتنا.. وإلى أن يأتي الأطباء سيحضرُون هنا الكثيرين من القراء.. ألم تشاهد تلك الأيام من قبل؟!

فأجابه خالد:

- لا.. إنني أشاهدها للمرة الأولى.. إنني لست من أهل زيكولا..

فصرمت جواد ثم ابتسם، وأكمل:

- كان لابد أن تحافظ على مخزونك من ذكائك ليوم مثل هذا..

فسؤاله خالد ساخراً :

- ولماذا لم تحافظ أنت على ذكائك؟!!

فأخرج جواد زفيراً طويلاً ثم نظر إليه:

- تستطيع أن تقول إنه القدر.. من كان يراني منذ أيام لم يكن ليظن لحظة واحدة أن أكون من فقراء زيكولا.. ولكن الزمان ينقلب رأساً على عقب دون مقدمات..
فقط اطلعه خالد:

- تذكّري بنتي.. كنت أمتلك كثيراً من الذكاء، وقد فقدته أيضاً فجأة ولكن ليس بسبب قوي.. فقدته من أجل عودتي إلى وطني.. أما أنت فلماذا فقدت ثروتك؟
فأجابه:

- إنها قصة طويلة.. قد تحكمها ملائكة إن نجوت.. تعلم، عندي ثلاثة وأربعون سنة.. ثم تنهى، وأكمل:

- مثل رجال زيكولا.. كنت أعمل من أجل أن أعيش ولا آتي إلى تلك الغرفة يوماً.. لم أكن غنياً، ولم أكن فقيراً أيضاً.. كنت أعمل يوماً بيوم، وأقضي حاجاتي التي تكفي لعيشي سعيداً دون أن أدخل شيئاً زائداً عن حاجتي.. وطالما كان هناك الأفقر مني فلم يشغلني الفقر بالآ.. حتى جاء يوم وأحببت فتاة هنا.. فتاة تسكن بتلك المنطقة، وأصبح حلمي أن أتزوجها، ثم صمت سؤاله خالد لأن يكمل، فأكمل:

- كنت جريئاً للغاية، فذهبت إليها، وأخبرتها أنني أريد أن أتزوجها.. ولكن أبيها طلب مهراً باهظاً للغاية، فابتسم خالد، وفقط اطلعه مجدداً بصوته هادئ:

- أعلم البقية.. ظللت تعمل من أجل هذا المهر، حتى أعطيته لأبيها، فجاء يوم زيكولا.. فأوّلاً جواد برأسه موافقاً على ما قاله خالد الذي أكمل قائلاً:

- إنها تشبه قصتي.. كلانا سعى من أجل ذلك المهر.. أنت من أجل حبيبتك.. وأنا من أجل عودتي إلى وطني..

فتتابع جواد:

- إنها تنتظرني.. إن خرجت من هنا ستنزوج.. إنها تحبني للغاية، لقد أخبرتني إنها تريد أن تنجب أطفالاً يكونون من أثرياء زيكولا..

فتسأله خالد مندهشاً: هل ستترك أطفالك يعيشون هنا في زيكولا؟!!

فأجابه جواد: بالطبع ..

تابع خالد:

- كنت أظن بعد وجودك هنا أنك إن نجوت من تلك المحن، ستغادر زيكولا بعدها..
فأسأله جواب متعجبًا: إلى أين؟!! إن زيكولا وطننا ونحن نحبها.

فنظر إلية خالد: إنكم تقتلون في وطنكم هذا..

فصلت جواد قليلاً، وطال صمته تلك المرة.. ثم أكمل:

- ربما تظن ذلك.. ولكن رغم ما أنا به، فلا أعتقد أنني سأجد أفضل منها وطنًا لي..
ولاؤلادي.. لقد أعطتنا زيكولا الكثير.. أعطتنا القوة والفاخر بأتنا أبناؤها.. فخر
يُشعر به الغنى والفقير.. ثم انتسم.. وكأنه يتذكرة:

- حين يذهب من الماء يوم فتح باب زيكولا إلى مدينة أخرى فإنه يتباهى أنه زيكولي، والجميع يقدم له وافر الاحترام.. لا يستطيع أحد مساس شعرة من رأسه.. ثم أكمل:

- أنا فقير اليوم.. وربما يختارني الأطباء بين الأكثر فقرًا، وربما أذبح.. ولكني سأذبح من أجل سعادة حاكمنا بولده، وكم نحب حاكمنا.. لطالما جعلنا حكامنا أقوىاء..

- لماذا لا أراك قلقاً أو حزيناً؟.. كيف تمتلك هذا البرود؟
فأحابه:

- لا أخفي عليك، كنت ممن يعملون بحرص لا يأتوا هنا يوماً.. وسأفرح كثيراً إن نجوت.. ولكنني أرى من العار أن أحزن إن لم أنجُ.. ثم نهض، وتحرك خطوات متبعداً عنه فسألته خالد:

- لا تريد أن تعود إلى حبيبك؟!
فتوقف جواد:

- لقد عملت ما في وسعي، وهي الآن تعلم كم أحلمها. وأعلم أنها ستغادر بي باقي عمرها
إن كنت أنا الذبيح.. إنها تعلم أنني لم أكن كسولاً يوماً..

- أتمنى أن تعود إليهم وتنجباً أطفالاً ينعمون بذلك الحب.. ثم نهض هو الآخر، وتحرك إلى ركن بعيد بالغرفة، وأكمل بصوت يشوبه الحزن:
- ولكنني لا أريد أن أذبح.. أنا لست منكم.. أريد أن أعود إلى بلدي.. إلى أهلي..
سأشعر بالفخر حين أعود إليهم..

ثم سكت حين فتح باب الغرفة، وزجَ أحد الجنود بشخص شاحب اللون إليهم ثم أوصد الباب من خلفه..

* * *

كانت شوارع المنطقة الغربية مزدحمة بالكثير من أهاليها حين علموا بوضع زوجة الحاكم مولودها وحلول يوم زيكولا بعد أيام قليلة.. ويامن يتحرك بينهم يبحث عن خالد بكل مكان بعد ما لم يعد إلى المسكن الخاص بأسيل منذ خروجه، وظل يسأل من يقابلها عن خالد.. ذلك الشاب الطويل العريض ذو الشعر الأسود الطويل واللحية السمراء الناعمة، ولكن لم يجده أحد.. وبدأ القلق يتسرّب إلى قلبه بعدما وجد جنود المنطقة ينتشرؤن بشوارعها، ويبحثون عن الأكثر فقرًا بينهم.. حتى تيقنت شكوكه حين أخبره فتى صغير بأنه رأى خالدًا والجنود يجرّونه نحو قصر الفقراء.. فتسمرت قدماه دون أن يدرِّي ماذا يفعل..

* * *

عاد يامن إلى المسكن الخاص بأسيل على الفور.. وسأل خادمة هناك إن كانت أسييل قد عادت، فأجابته بأهلاً لم تعد بعد.. فزاد توئره وضيقه، ولم يشغل باله سوى خالد الذي قد يُذبح بعد أيام، ومصيره بيد أسييل، وظلَّ يتحرك جيئةً وذهاباً لا يستطيع أن يتمالك نفسه.. بعدها أمسك بالورقة التي أسقطها أسييل، وخرج مسرعاً خارج المسكن إلى أطراف المنطقة الغربية حتى وصل إلى الطريق المهد إلى المنطقة الوسطى، وظلَّ واقفاً على جانبه حتى تمرَّ عربة متوجهة إلى تلك المنطقة.. يعلم أن الوقت قد تأخر، والليل يكسو زيكولا، ولكنه لم يفقد أمله في ذلك.. حتى مرت أمامه عربة فطلب من صاحبها أن يصطحبه معه فرفض، وكلما مرت عربة

إما أن يرفض سائقها أو يخبره بأنه لن يمر بالمنطقة الوسطى حتى جاءت عربة يركبها عجوز يتجاوز عمره الثمانين فأوقفه يامن، وحدّثه:

- أريد أن أذهب معك إلى المنطقة الوسطى ..

فأجابه العجوز:

- إنني لا أصطحب غرباء.. ثم أكمل:

- مالكم أهيا الشباب، لماذا لا تسiron؟!!.. إنني كنت في مثل عمركم أجوب زيكولا على قدمي..

فأجابه يامن: حسناً.. سأجويها على قدمي..

فأمر العجوز حصانه أن يواصل حركته، وتمتم بكلمات وكأنه يسب يامنًا، وتحركت العربية قليلاً، ويامن ينظر إليه حانقاً.. حتى ابتعدت العربية عنه فاُتسارع خلفها، وتشبث بمؤخرتها، وظلت رجاله تهرون لأن كي تجاري سرعة حصان العربية، وكلما حاول أن يستدها على لوح خشبي بمؤخرة العربية تفلتان.. حتى استطاع أن يتثبت جيداً، وظل متثبتاً بها بينما يجلس العجوز بمقدمتها، ويضرب حصانه كي يسرع، وبدأ يغنى بصوته الضعيف المتقطع، وكأنه يريد أن يؤنس وحده، ويامن يستمع إليه، ويريد أن يضحك، ولكنه خشي أن يعلم بوجوده.. فآخر أن يكتم ضحكاته بداخله ..

* * *

مرَّ الوقت، وخالد حبيس بغرفة القراء، وتزايد عددهم، وبين الحين والآخر يُفتح باب الغرفة ليزج بفقير جديد إليهم ثم يوصد مجدداً.. وخالد يجلس بركته صامتاً، وينظر إلى جواد الذي كلما حلَّ فقير بالغرفة يذهب إليه ليعرف قصته.. ثم يتحدث إلى نفسه، ويسأله: ماذا يفعل يامن؟، وماذا تفعل أسيل؟، وهل ستنتهي حياته في زيكولا أم أن هناك أملاً قد يغير ذلك المصير ..

* * *

وصلت عربة العجوز إلى المنطقة الوسطى، والتي سادها الهدوء والصمت.. ولم يكن بشوارعها إلا قليل من الجنود وحراس القصور المتواجدين بها والذين تظهر ملامحهم واضحة مع المصايبع النارية التي تنير شوارع تلك المنطقة.. وما إن أبطأت العربية حتى قفز يامن، وترك العجوز يكمل طريقه دون أن يدرى بوجوده.. ثم عدل من ملابسه، ونفض عنها ما أصابها من غبار، وأسرع إلى قصر الحاكم فقابلته أحد حراس القصر، وسألته على الفور:

- من أنت؟

فأجابه يامن، وقد علا صوته متحدّثاً بثقة:

- أنا مساعد الطبيبة.. ثم صاح به:

- ألم تعلم من أنا؟!.. من أنت كي تسألني؟!

فأجابه الجندي:

- اعتذر، لم أكن أعرفك..

رفع يامن رأسه:

- حسناً.. هيأاً أدخلني، والا أثرت غضبي.. وأنت تعلم أنني بعملي هذا قد أجعلك أفتر شخصاً بزيكولا.. هيأا..

فبدأ التوتر على وجه الجندي:

- حسناً سيد.. تفضل إنها بحجرتها، ولكن لابد وأنها نائمة.. إن الشروق قد قارب..

فصمت يامن ثم أكمل :

- إنني لا أستطيع الانتظار.. أخبر إحدى الوصيفات بأن تخبرها أن مساعدها ينتظرها بالأسفل لأمر هام..

فرد الجندي:

- حسناً.. تفضل إلى أولى حجرات الطابق السفلي، وستأتيك إلى هناك..

* * *

كانت أسيل تجلس بحجرتها، وتقلب أوراق خالد من جديد، ويكسو وجهها حزن شديد.. حتى سمعت طرقات على باب حجرتها ثم وجدت إحدى الوصيفات تدلّف إليها، وتخبرها بأن مساعدتها ينتظراها بالأسفل، ويريد أن يخبرها بأمر هام، فنطقت على الفور:

- خالد !!

ثم تمالكت نفسها، وسألت الوصيفة :

- ماذا يريد؟

فأجابتها :

- لا أعلم سيدتي.. إنه ينتظرك بالأسفل ..
فصمتت برهة ثم أشارت إلى الوصيفة: حسناً ..

فغادرت الوصيفة.. وظلت أسيل كما هي، تفكّر وتسأل نفسها:

- ماذا جاء بك إلى هنا يا خالد؟!! أعلمت أن أوراقك جاءت إلى صدفة فترید أن تخبرني أنها ليست أوراقك.. أم تريـد أن تخـبرـنيـ أنـكـ حـقـاًـ تحـبـ تلكـ الفتـاةـ،ـ أـمـ آـنـاـ فلاـ أـمـثـلـ لـكـ سـوـىـ سـخـصـ تحـبـ مـسـاعـدـتـهـ..

ثم نظرت إلى مرآة أمامها.. وقالـتـ :

- ربما كانت ليست أوراقـهـ حـقـاـ ..

- ربما أراد أن يختبر مدى حـيـ وـغـيـرـتـيـ..

ثم عادت وسألت نفسها:

- وماذا لو كانت تلك هي الحقيقة؟.. ماذا لو كان يحب الفتاة الأخرى؟.. ماذا تفعلين؟..

ثم نظرت نحو باب غرفتها: حسناً.. سأنزل لأرى ماذا تريـدـ ياـ خـالـدـ..

ثم بدّلت ملابسها، وغادرت حجرتها، وهبطت السلم إلى الطابق السفلي، واتجهت نحو الغرفة التي أخبروها بأن مساعدها ينتظرها بها.. وما إن دلفت إليها وكادت تتحدث حتى فوجئت بأنه يامن:

- يامن؟!!

فأجابها: نعم.. أعتذر أني جئتكم في هذا الوقت المتأخر..
فأكملت: حسبتك خالداً..

فصمت ثم أكملت:

- لقد أمسكوا بخالد من أجل يوم زيكولا..

فردّت: ماذا؟!!

فأكملت واجماً:

- نعم.. لقد أمسك به الجنود عندما كان يتتجول بين شوارع المنطقة الغربية..
فصمت، ثم أكملت:

- إنك تعلمين أنه لا يستحق ذلك.. لابد أن نساعدك.. لابد وأن يخرج.. لابد أن يعود إلى بلده يا أسييل.. لقد وعدناه بذلك ..
فأجابته أسييل في برود :

- ماذا فعل؟.. أنت تعلم قوانين زيكولا أكثر مني..
فصاح بها:

- نعم أعرفها.. ولكن عليك أن تفعلي المستحيل كي ينجو من تلك المحنـة.. كيف أراك بهذا البدوء.. وأنت تعلمين كم يحبك؟!!
فصاحت به :

- يحبني؟!! ثم ابتسمت ساخرة :

- تقصد أنه لم يحب في حياته سوى مني.. حبيبة عمره.. أم تريد أن تُكذّب ما كتبه
بين أوراقه..

فصمت مفكراً ثم أخرج ورقة من ملابسه:

- اقرئ هذه الورقة.. إنها أيضاً كتبها، ولكنها سقطت منك حين جاءك جنود الحاكم.. ثم أعطاها الورقة، وأكمل وهو يتجه نحو باب الغرفة:
- لو علمت أن أحداً يحبني هذا الحب.. لفعلت المستحيل من أجله.. ثم غادر، وأمسكت أسيل الورقة، وقرأت ما بها، وعلمت أنها تكملة لحديثه في الورقة السابقة لها.. وأنه يحبها منذ أن جاء إلى زيكولا.. فلم تستطع أن تتمالك نفسها، وتساقطت دموعها بغزارة ثم أسرعت إلى غرفتها بقصر الحاكم.. تصعد درجات السلم بخطى سريعة، ودموعها على وجهها وسط دهشة وصيفات القصر الذي يملؤه الفرحة منذ قدوم المولود الجديد.. ثم دلفت إلى حجرتها، ووضعت رأسها على سريرها، وواصلت بكاءها..

* * *

أشرقت الشمس، وتبعها نهار بطيء مرّ على خالد كسلحفاة تسير.. وانتشرت الأخبار في كافة أرجاء المدينة بأن فقراء زيكولا من الرجال والنساء قد جمعوا بكل مناطقها، وجميعهم ينتظرون الأطباء حتى يقلّصوا عددهم إلى أكثرهم فقراً، ومن بعدهم تقول الطبيبة أسيل كلمتها بشأن الفقراء الثلاثة الذين يتنافسون أمام الزيكولا.. ويامن لا يستطيع أن يتمالك أعصابه، وينتظر ماذا سيكون قرار أطباء المنطقة الغربية في اليوم التالي.. وأسيل تنتظر في قصر الحاكم، وتتوسل إلى الوقت كي يمر سريعاً، والجميع يلاحظون توترها وتغيرها المفاجي منذ قدوم مساعدها إليها..

* * *

في اليوم التالي كان خالد ومن معه من فقراء حبيسين بغرفتهم.. حتى فُتح بابها فجأة، ودخل إليهم قائد الجنود وقال:

- هياً.. ستُعرضون الآن على الأطباء..

اصطفَ الجنود صفين، بينهما ممر أمام الغرفة، وبدأ خالد ومن معه يمرون بين هذين الصفين.. حتى وصلوا إلى ردهة واسعة، واصطفوا بها كما أمرهم قائد الجنود، ولاحظ خالد بأن هناك نساء شاحبات سيعرضن معهم على الأطباء.. وعلم أنهن قد حُسِنَ بغرفة أخرى، وبنظره منه وجد عدد القراء والفقيرات لا يتجاوز العشرين فرداً.. ثم نظر إلى جانبه فوجد جواداً، فهمس إليه:

- كم سيختارون منا؟

فأجابه :

- لا أعلم.. سيختارون أقனا ثروة..

حتى صاح به أحد الجنود بأن يصمت ثم دخل رجلان، وعلم من يقفون بأنهما الطيبيان حين وجدوا زيهما الأنثيق، وقمصانهما الراقية، ونعالهما الفخمة.. ثم أشارا إلى القراء بأن يجلسوا، وسأل أحدهما قائد الجنود بأن يأتي بهم واحداً تلو الآخر..

* * *

بدأ القراء يتجهون إلى الطيبين واحداً تلو الآخر.. وخالد يراقب من بعيد ما يفعلانه، وينظر إليهما، وهما يفعلان مثلما كانت تفعل أسيل حين كانت تمسك بثنية من جلد لتخبره كم يمتلك من وحدات ذكاء.. ويراقبها حين يمسك أحدهما بقلم ويدون شيئاً بأوراقه بعدما ينتهي من فحص أحد القراء، وكأنه يدون ملاحظاته عن ذلك الفقير.. وقلبه يدق بقوة، وينظر إلى جلد ذراعيه، ويقارن شحوبه بشحوب من معه ثم ينظر إلى السماء، ويدعوريه أن ينجيه من هذه المحنـة حتى أمره جندي بأن يتقدم إلى الطيبين، وما إن تقدم إليهما حتى سأله أحدهما:

- هل أنت مريض؟

فأجابه خالد: لا ..

ثم أمسك الطبيب بثنية من جلد، وأمسك الآخر بثنية أخرى من جلد ذراعه بين أصبعيه.. ثم نظرا إليه يتأملاه ثم أمراه أن يعود إلى مكانه مجدداً.. فعاد، وتحرك

إلهما جواد الذي قابله مبتسماً.. وظل الطيبيان يواصلان عملهما، والوجوم على وجوه الكثيرين من الفقراء والفقيرات.. حتى هض الطيبيان مجدداً، ونظرًا إلى أوراقهما، وما دوناه بها من ملاحظات، ثم تحدثا إلى قائد الجنود، والذي بدوره اتجه إلى خالد ومن معه من رجال ونساء ونظر إليهم:

- لقد أخبرنا الطيبيان من منكم الأكثر فقراً ..
- من ينجو اليوم عليه أن يعمل بجدٍ كي لا يعود إلى هنا مرة أخرى.. ومن اختاره الأطباء سنصطحبه غداً إلى المنطقة الوسطى حتى يعرض على طبيبة الحاكم بعد غد.. وأتمنى أن يجد من هو أفتر منه هناك..
- ثم نظر إليهم مجدداً، واحتسبت أنفاس خالد حين أشار إلى جواد:
 - أنت.. ستأتي معي إلى المنطقة الوسطى..
 - ثم أشار إلى خالد:
- وأنت أيضًا.. ستأتي إلى المنطقة الوسطى.. أما الباقيون فعليكم أن تعودوا إلى بيوتكم، واحتفلوا مع أصدقائكم بمولد الحاكم..

فسقط خالد على ركبتيه :

- أنا!!

فأجابه القائد:

- نعم إنكما الأكثر فقراً هنا.. هيا انهض.. ما زال أمامك فرصتان كي تنجو..
- فنظر جواد إلى خالد، وقد قلَّ بروده، وبدا متوتراً قليلاً :
- يبدو أن أحدنا سيكون النبیع أيها الصديق

* * *

(18)

عاد خالد إلى غرفة القراء مرة أخرى ومعه جواد، وأغلق الباب الحديدي من الخارج.. وظللت أنفاسه متتسارعة، وزاد قلقه وتتوتره كثيراً، وكلما حاول جواد أن يتحدث إليه لا يجده.. ولا تتوقف رأسه عن التفكير.. لا يرى أمامه سوى ما رأه يوم زيكولا السابق حين دُجح الفقير وسط احتفالات أهل زيكولا.. أما أسيل فمازال في قصر الحكم تتمى أن تجد يامنا الذي اختفى منذ مجيئه إليها المرة السابقة.. لا تعلم ماذا حدث بالمنطقة الغربية.. ت يريد أن تعلم هل عاد خالد إلى حريرته مجددًا أم تجده أمامها يوم تختار الثلاثة الأكثر فقرًا.. تتمى أن تغادر القصر إلى المنطقة الغربية، ولكنها لا تستطيع أن تترك زوجة الحكم في هذا التوقيت.. فلم تجد أمامها سوى أن تنتظر حتى يمر ذلك اليوم وما يليه، ووقتها سينتضح كل شيء..

* * *

الموسيقى تنتشر في كافة أرجاء زيكولا، والأخبار تتناقل بين هذا وذاك.. الجميع يتحدثون عن فقراء زيكولا، وبتهماسون بأن أطباءها قد اختاروا فقيرين بكل منطقة بها.. وينتظرون طبيبهم الأول حتى تعطي كلمتها الأخيرة.. يريدون أن يفرحوا.. يريدون أن يهبنوا حاكمهم بهذا اليوم.. الجميع في أوج سعادتهم طالما ابتعدوا عن منصة الذبح.. يعملون نهاراً، ويترافقون ليلاً.. يعلمون أنها أيام وستمرون وسيعودون مجددًا إلى حياتهم، وأعمالهم الشاقة.. فأرادوا أن يقتنصوا كل ذرّة سعادة في تلك الأيام.. حتى سور زيكولا بدا وكأنه في أيام عرسه بعدما عُلقت

فوقه رايات عديدة مختلفة الألوان ترفرف بقوة، وتتوسطها نيران مشتعلة تعلن عن احتفال أهل مدینته، والذين بدأوا يتوجهون إلى المنطقة الوسطى أتوا جاً متتالية ليشاهدو منافسة الزيكولا ومعهم ما يكفيهم من طعام حتى ذلك اليوم، وحتى يوم زيكولا حين يتقللون إلى المنطقة الشرقية حيث أرض الاحتفال ومنصة ذبح الفقير..

أما أهالي المنطقة الغربية فقد تجمعوا أمام القصر الذي حُبس به خالد وجoad حين اصطف أمامه العديد من الجنود إيداناً برحيل الفقيرين إلى المنطقة الوسطى حيث قصر الحاكم، واصحوا وهلوا حين رأوا خالداً وجoadاً مُكبّلين بدأ وقدماً، ويتقدّمهم قائد الجنود إلى عربة تقف أمام القصر.. ثم بدأت العربية في التحرّك في طريقها لمغادرة تلك المنطقة..

* * *

سارت العربية وشققت طريقها، وبداخلها خالد، ينظر عبر نافذتها إلى الصحراء الشاسعة على جانب الطريق، وكلما حاول جواد أن يتحدث إليه لا يرد، ويظل محدّقاً خارج العربية حتى ابتسم جواد، وتحدّث في هدوء:

- أعلم أنك حزين للغاية، وأعلم أنك تسخّط على حاكمنا وولده.. ولكن لا تيأس يا صديق.. ما زال أمامك فرستان كي تنجو بحياتك ..
و خالد يواصل صمته ولا يرد.. حتى تحدّث جواد مجدداً:

- أحDNA سينجو بالطبع.. وقد ينجو كلانا.. ثم صمت، وأكمل:
- أريد أن أطلب منك شيئاً.. ثم تابع :

- إن نجوت وكنت أنا من سينذبح، وجاء يوم زيكولا ووقفت بين من يحتفلون بذبحي، ورأيت امرأة تبكي وسط من يفرحون، فاذهبت إليها وأخبرها أنني لم أحب بحياتي مثلما أحببته..

وسالت بعض دموعه على وجهه فالتفت إليه خالد، ووضع كفه على ركبته،
وابتسم إليه:

- ستعود إليها يا جواد.. وستنجبان أطفالاً تعيش وتتفخر بزيكولا..

فابتسم جواد، والدموع تلمع على وجهه، وأكمل:

- وأنت؟ .. لا ت يريد أن توصي بشيء؟

فصمت قليلاً ثم نظر عبر النافذة مجدداً، وعاد لينظر لجواد:

- إن وجدت شاباً في مثل عمري يدعى يامنا، ويقف حزيناً فأخبره بأنني لم أجده صديقاً وأخاً مثله ثم صمت برهةً، وأكمل:

- وإن رأيت طبيبة زيكولا تنظر كثيراً إلى السماء ليلاً تبحث عن نجم بها.. فأخبرها أنها أجمل حلقاً من ذلك النجم..

فسألته على الفور :

- هل تعرفك طبيبة زيكولا؟

فأجابه خالد :- نعم..

فابتسم، وأكمل:

- هل تحبها؟

فردة خالد: نعم ..

فسألته: وهي؟ .. تحبك؟

فصمت خالد ثم أجا به: لا أدره..

فأكمل جواد :

- إن كانت تحبك فلن تركك لتكون ذبيح زيكولا..

فصمت خالد مرة أخرى ثم عاد هائماً يتأمل الطريق عبر نافذة العربية.. وأكملت العربية سيرها، وأمر سائقها حسانه بأن يسرع ولسعه بسوط بيده.. حتى وصلت مع اقتراب غروب الشمس إلى المنطقة الوسطى، والتي ازدحمت شوارعها بالكثير من الناس.. وواصلت العربية تحركها.. حتى توقفت أمام قصر الحاكم..

* * *

كانت أسييل تجلس بغرفتها حين أخبرتها وصيفتها بأن فقراء مناطق زيكولا قد بدأوا في القدوم.. فدقق قلبه بقوة، وسألتها على الفور:

-هل وصل فقيرا المنطقة الغربية؟

فأجابته الوصيفه :

-نعم سيدتي ..

فسألتها مجددا :

-هل رأيتهما؟

فأجابتها :

-لا.. لم أرهما.. إنهم قد وصلا منذ لحظات قليلة، وسيتجهان نحو بيوت القصر..

وأكملت :

-أستطيع أن أشاهدهما من تلك الشرفة..

ثم أشارت إلى شرفة الغرفة، وأكملت :

-وهم يمرون نحو بيوت القصر ..

فالتفتت أسييل إلى الشرفة:

-لا.. عليكِ أن تغادري الآن.. وأخبريني حين يكتملون..

فابتسمت الوصيفه ثم غادرت..

أما أسييل فأسرعت إلى الشرفة، ووقفت أمامها تنتظر أن يمر فقراء مناطق زيكولا.. تنتظر وتتسارع أنفاسها.. تخشى أن يكون ما تظنه حقيقة.. وتسأل نفسها:

أين يامن؟ .. ولماذا لم يأتها ليخبرها بما حدث لخالد؟! وكلما مر أحد بالأأسفل نظرت إليه في لحظة، وشعرت بسعادة حينما تتحقق أنه ليس خالد.. حتى انتقض قلبيا، وكأنه أُترع منها حين وجدت أحد الجنود يتقدم، و يأتي خالد من خلفه مطأطئ الرأس، ويسير ببطءٍ ومعه فقير غيره قد كُبلا سوياً، ويصبح بهما الجندي:

- أسرعا أيها الفقيران..

فامسكت برأسها، وعادت خطوات إلى الخلف، ووضعت يدها على فمهما من الصدمة.. ثم تحركت نحو الشرفة مجدداً، وظلت تنظر إلى خالد وهو يتحرك بصعوبة خلف الجندي إلى بهو القصر.. فتسارعت أنفاسها، ولعنت عيناهما بالدموع، وتحدثت إلى نفسها:

- ماذا أفعل؟.. ماذا لو كان أكثرهم فقراً؟..
تنظر إلى ورياته المبعثرة في غرفتها، وتقرأ كلماته.. أنه لم يحب غيرها، وتحدث نفسها:

- إن مصيره بيدي ..
وتتحرك جيئة وذهاباً بالغرفة، وتسأل نفسها حين تقف أمام المرأة:
- ماذا أفعل؟

ثم نظرت إلى الأوراق مجدداً، وكأنها تحذّثها:
- خالد.. ماذا لو كنت أنت الأفقر بينهم؟ ماذا تريدين أن أقرر؟
وتعود إلى حركتها جيئة وذهباباً، وتمسك برأسها، وتمرر يدها فوق شعرها ثم تنظر عبر الشرفة، وترى الفقراء الآخرين الذين يتوجهون نحو بهو القصر.. حتى سمعت طرقات على باب غرفتها، ودخلت إليها وصيفتها وقالت:

- سيدتي لقد اكتمل عدد الفقراء ببهو القصر، والجميع في انتظارك..
فزاد انتفاض قلها ثم حذّثها:

- حسناً.. سأتي على الفور..
فأغلقت الوصيفية بباب الغرفة، وجلست أسيء على سريرها، ووضعت رأسها بين يديها وكأنها لا تدري ماذا تقرر.. ثم نهضت مجدداً، واتجهت مرة أخرى نحو الشرفة، ولكنها لم تنظر لأسفل.. بل نظرت إلى السماء التي امتلأت بشفق الغروب،
وببدأت تتحدث والدموع على وجهها :

- رأيت خالد كثيراً ينظر إلى السماء كما وقع في مهنة، وسمعته يقول.. يارب ساعدني... ..

أنا أنظر مثلما كان يفعل الآن.. وأقول مثله.. يارب.. يارب ساعدني.. أريدك أن تساعدني.. ثم أغمضت عينها، وابتسمت دموعاً كثيراً.. وأكملت:

- ساعدنے.. لا اردیں ان افقد خالدًا ثم تابعت:

- ولا أزيد أن أظلم أحداً.. لا أزيد أن أظلم أحداً..

* * *

كان الصمت يسود به قصر الحكم، وكأنه لا يوجد أحد به.. الجميع صامتون، كلٌ يفكر بمصيره وينتظر أن تأتي الطبيبة.. عشرة من الفقراء.. سبعة رجال وثلاث فتيات.. ينتظرون أن يمر الوقت سريعاً.. أي منهم سينجح، وأي منهم ستختاره الطبيبة لمنافسة الزيكولا، وخالد يقف وينظر إليهم في صمت.. ثم ينظر إلى أعلى وكأنه ينادي ربه.. حتى كسر ذلك الصمت حين دلفت أسيل بفستانها الفضفاض إلى بهو القصر، ومعها قائد حرس الحكم الذي أتاه ليلة وضعَت زوجة الحكم، وتحدى بصوت غليظ :

٤- ستحتار سيدتي الان الثلاثة الاكثر فقرًا ..

فتقدمت أسيل في صمت، ومرت أمامهم، وخالد ينظر إليها، وتعمدت لا تنظر إليه حتى أنها أرادت أن تلمحه بطرف عينها، ولكنها أبعدت نظرها على الفور.. ثم همست إلى قائد الحرس أن يقدم إليها فقيراً تلو الآخر ..

* * *

بدأت أسيل تفحص كل من يتقدم إليها وتتأمله، وتضع ثانية من جلدہ بین إصبعیها، ثم تسأله إن كان قد مرض من قبل، وإن أجاها بأنه قد مرض تسأله المزيد من الأسئلة عن ذلك المرض، وتنزد من فحصها لأكثر من مكان بجسده حتى تعلم إن كان قد مرض حقاً أم أنه يدعى ذلك كي ينجو.. حتى تقدم إليها جواد، وبذات تفاصيه، وقد نظرت إلى خالد خلسة بطرف عينها فابتسم جواد، وتحدث إليها:

- إنه يحبك أيضًا..

فنظرت إليه، ولم تتحدث ثم أمرت أن يأتي من بعده.. فوجدت خالدًا يتقدم إليها فدقق قليلاً بقوته، ولامست وجهه ويدها ترتعش قليلاً.. وخالد ينظر إلى عينيها دون أن ينطق ببنت شفة.. وتحدى نفسها.. ماذا أفعل يا خالد إن كنت الأفقر.. ماذا أفعل؟، ثم نظرت إلى قائد الحرس أن يأتي بمن بعد خالد، والذي فوجئ بعدهما استغرق فحص خالد وقتاً أقل كثيراً من فحصوا قبله، ولكنه طلب من فقير آخر أن يتقدم إلى الطبيبة، وظلت أسيل تفحص جميع الفقراء المتواجدين بالبيو حتى انتهت.. ثم عادت لتجلس على أحد الكراسي الفخمة المتواجدة، وأمسكت بقلم وبعض الورقيات، وبدأت تدون بعض كلماتها.. والجميع ينظرون إليها في صمت.. لا يسمع فقط سوى صوت الأنفاس المتسارعة من بعضهم.. حتى هضبت وتحركت نحوهم.. ثم تحركت أمامهم جيئةً وذهاباً ونظرت إلى فتاة:

- أنت.. اخرجي إلى أهلك..

فصرخت الفتاة من الفرحة ثم نظرت أسيل إلى فقير آخر:

- وأنت.. عُد إلى أهلك..

فصاح فرحاً.. وواصلت أسيل تحركها بينهم، وكلما تحركت تشير إلى أحدهم بأن يعود إلى أهله.. حتى توقفت مكانها بعدما لم يتبق سوى أربعة فقراء فقط.. بينهم خالد وجoad، واحتبس الأنفاس، والجميع ينتظرون من هو الناجي الأخير..

توقفت أسيل أمامهم، وخالد ينظر إليها في ترقب، وجoad ينظر إليه وكأنه يوقن بأنه من ساختاره، ويقف بجوارهما فقيران يزداد الوجوم على وجههما.. حتى نظرت إليهم، وأشارت إلى جoad:

- أنت عُد إلى أهلك ..

ثم نظرت إلى خالد والفقيرين الآخرين:

- أنتم الأكثر فقراً بينهم.. الزيكولا ستحدد من منكم ذبيح يومنا..

فسقط خالد على ركبتيه، ونظر إلى أسيل، وكأنه لا يصدق ما سمعته أذناه..

وصاح بصوته :

- أسيل ..

فغادرت على الفور ، واتجهت إلى غرفتها، وما إن دلفت إليها حتى واصلت بكاءها مجدداً، وتحدىت إلى نفسها بصوت عالي:

- لم أجد أمامي سوى ما فعلته.. لا أستطيع أن أظلم أحداً.. لا أستطيع ..
ثم أغمضت عينها، وتحدىت:

- ستنجو من الزيكولا يا خالد.. ستنجيك الزيكولا.. إنك لا تستحق أن تُذبح في مدینتنا.. ستنجو.. ستنجو..

أما خالد فقد أمره قائد الحرس بأن يتبعه هو ومن معه إلى قصر مجاور لقصر الحكم، وسمع جواد الذي مازال يقف بجواره يهمس إليه :

- ستذهبون إلى قصر النحّاتين الآن..

فنظر إليه خالد دون أن يرد، ثم تابع جواد :

- إن كانت الطيبة تحبك لأبعدتك عن هذا المصير..
فضاح به قائد الحرس :

- هيأ.. أنت.. عليك أن تغادر القصر..

فتحى خالد إليه :

- عُد إلى حبيبتك يا جواد.. وإن ميّت فابحث عن يامن، وأخبره كما قلت لك..
فابتسم جواد ثم تركه وغادر، وتحرك خالد مكتبل اليدين والقدمين خلف قائد الحرس الذي طالبه بأن يسرع.. حتى غادروا قصر الحكم، واتجهوا إلى قصر مجاور وسط تجمع كبير من أهالي زيكولا الذين وقفوا أمام القصر ليروا من الذين سيخوضون تلك المنافسة رغم حلول الليل، وما إن رأوا خالد والفقيرين الآخرين مكتبلين ويتجهون نحو قصر النحّاتين حتى صاحوا، وصاح أحدهم بصوت مميز:

-إنه الغريب الذي كان يعمل معنا بقطع الصخور ..

وصاحت أخرى:

-لقد رأيته من قبل يبحث عن مالك لكتاب غريب..

والجنود يحاولون أن يبعدوا الناس عنهم حتى وصلوا إلى قصر مجاور، ودلفوا إليه، وعلم خالد منذ دخوله إلى ذلك المكان بأنه قلعة النحاتين.. حيث يصنع تمثال من الصلصال لكل فقير منهم..

* * *

كان قصر النحاتين ذو واجهة فخمة، ونقوش خارجية على هيئة تماثيل لأشخاص وحيوانات، تظهر خلف النيران المضيئة التي توهجت بقوة مع ظلام الليل مما أعطته جمالاً خاصاً.. أما داخله فقد أثير بمصابيح نارية عديدة، وكأن النهار قد حلَّ به، ولكنَّه لم يكن يمتلك ذلك الجمال بالخارج، ولم تكن به سوى بضعة تماثيل قديمة يبدو أنها نُحتت لفقراء من قبل.. وقتل طينية بأركان صالاته الكبيرة، وتغدو بأرجائه رائحة الصلصال.. حتى توقفوا جميعاً حين ناداهم شخص قصير القامة ممتلي البطن رأسه صلباء ولحيته طويلة جعل منها صغيرات صغيرة متعددة :

- عليكم أن تمكثوا هنا.. ثم أكمل :

- سيتولى كل نحّات بعد قليل صناعة تمثال كل منكم..

فمكثوا مكانهم، وبعد لحظات وجدوا ثلاثة رجال تترواح أعمارهم ما بين الشباب والكهولة، وقد وقف كلُّ منهم أمام فقير من الثلاثة، ونظر خالد إلى من يقف أمامه وكأنه في حلم عميق، وهو رأسه لعله يفيق من هذا الحلم حتى ناداه من يقف أمامه، ويمسك بأدوات النحت في يده :

- عليك ألا تتحرك أيمها الفقير.. أتريد تمثالك مشوهاً؟! ثم ضحك ساخراً.. وتتابع:

- الزم السكون.. إنَّ إمامك أمهر وأسرع نحّات بزيكولا.. سأنتهي من تمثالك في زمن قياسي..

فنظر إليه خالد، وأخرج زفيراً قوياً.. ثم بدأ النحات用他的工， وجلب كتلة ضخمة من الصلصال، وبدأ يشكل أجزاءها بعدما يلمع بطرف عينه خالد، وبين الحين والآخر يقترب منه ليضع يده على رأسه، وكأنه يستخدمها للمقارنة بين قياساته.. ثم يعود مجدداً إلى تمثاله الذي بدأت ملامحه تظهر شيئاً فشيئاً..

* * *

النحاتون يعملون بمهارة وسرعة فائقة.. ويقف خالد ومن معه دون حراك.. ينتظر كل منهم أن ينتهي من صنع تمثاله عليه يغادر هذا المكان، وأسرع الوقت من مروره، حتى انتهى النحاتون من عملهم مع شروق الشمس، وقد صنعوا ثلاثة تماثيل من الصلصال يشبهون أصحابهم، ونظر خالد إلى تمثاله الذي كان يقف شامحاً، وتعتلي وجهه نظرة حزن واضحة، وهزَّ رأسه في حزن ثم نظر إلى أحد الفقيرين بجواره، وسألة:

- ماذا سنفعل الآن بعد نحت تماثيلنا؟

فرد الفقير بصوت واهن:

- لم يعد لنا سوى أن نخوض منافسة الزيكولا..

فتسأله خالد :

- هل سنخوضها الآن؟

فرد قائد الحرس :

- لماذا تتعجل أمها الفقر؟!

- إن الوقت مازال باكراً.. ستكون المنافسة بعد ساعات من الآن.. حين تكون الشمس عمودية.. أي منتصف النهار.. ثم أكمل:

- مع شروق شمس اليوم فُتح باب زيكولا، وهناك الكثيرون ممن كانوا بخارجها، واشتباقوا إلى احتفالاتنا مرة أخرى، وسيستغرق مجئهم إلى هنا العديد من الساعات ..

فتمت خالد :

- فُتح باب زيكولا؟!!

ثم تجاهل ذلك الأمر، وسأل قائد الحرس:

- ماذا سنفعل في تلك المنافسة؟ .. لقد أخبرني أصدقائي عنها من قبل.. ولكنني لا أتذكّرها جيداً..

فأجابه :

- أيها الفقير ستحدد الزيكولا مصيرك.. كي لا تقول إن الطبيبة هي من اختارت لك الموت.. ما عليك سوى أن تختار ثلاثة أماكن من تمثالك هذا، وتحمّم بدروع صغيرة، وستُطلق سهام الزيكولا نحو تمثالك.. وإن أصابتك سهام أكثر من غيرك كنت أنت ذبيح يومنا..

فصمت خالد، ونظر إلى أعلى:

- يارب ساعدني..

* * *

مرّ الوقت، واقتربت الشمس من تعامدها ظهراً على الأرض، واجتمعت الألوف من أهالي زيكولا بساحة كبيرة بالمنطقة الوسطى، واصطفوا أمام منصة خشبية عالية، وأخذوا يرقصون، ويغنون، وينشدون الأهازيج، وحمل الكثيرون منهم أطفالهم فوق أكتافهم حتى أشار أحدهم إلى طفله:

- انظر.. إنها الزيكولا..

وأشار إلى المنصة حين قام مجموعة من الجنود بازاحة قطعة قماشية كبيرة.. كانت تخفي أسفلها عمودين خشبيين سميكين ومتوازيين، ويصل طول كل منهما إلى ثلاثة أمتار، وبينهما قرص خشبي دائري يصل قطره إلى ما يقارب متراً واحداً، وتبرز منه ثلاثة أسهم طويلة، وتظهر من خلفه تروس حديدية تبيان أحجامها، ويزداد لمعانها تحت أشعة الشمس، وبجوار تلك الآلة يقف رجل ضخم حليق الرأس، لا يرتدي سوى سروالٍ واسعٍ، وتبرز عضلاته القوية، وذراعه الضخم الذي يمسك بذراع حديدي امتد من أحد العمودين الخشبيين للزيكولا، ويمسك ذراعه

الآخر بذراع خشبي أقل طولاً، ويتصل مباشرة بشريط يخرج من القرص الخشبي.. حتى صاح الجميع حين دقت الطبول، وظهر الحاكم بشرفة قصره.. تجاوره زوجته وعلى ذراعيها رضيعها، وتجاورهما أسيل، والتي وقفت واجمة والقلق ينبعث من عينيهما.. ثم جلسوا جميعاً ينتظرون بدء المنافسة..

* * *

الجميع ينتظرون.. الجميع يتراقصون، وأسيل تنتظر أن ترى خالداً.. يدق قليها بقوه.. تنظر إلى السماء مجدداً، وتحرك شفاتها متمتمة بهمسات غير مسموعة.. حتى وجدت الجنود يحملون التماثيل الثلاثة، ويصعدون بها إلى المنصة الخشبية، ويسير من خلفهم خالد ومن معه فتسارعت أنفاسها، وهلت الألوف المتواجهة حين وجدوهم يصعدون المنصة..

بعدها التفت قائد الحرس إلى شرفة قصر الحاكم، وانحني إليه فأشار إليه بأن تبدأ المنافسة، فالتفت إلى خالد والفقيرين معه.. ثم أشار إلى أحد الفقيرين:

- ستببدأ أنت.. أين ستضع دروعك الثلاثة؟

فنظر إليه الفقير في صمت.. ثم تقدم بعدهما فكت قيوده، ونظر إلى الزيكولا ثم التفت إلى تمثاله، ونطق:

- سأحمي ذراع تمثالي الأيمن من أعلى، وفخذ تمثالي الأيسر، وأسفل بطنه..
فصاح قائد الحرس بأحد جنوده:

- ضع دروعه كما أراد..

فوضع الجندي دروعاً حديدة صغيرة تلائم الأماكن التي أرادها الفقير.. ثم حمل التمثال ومعه جندي آخر إلى أمام الزيكولا.. لا تفصلهما إلا أمتار قليلة..

صمتت الأهازيج، وصمت من يتواجدون، وكان أنفاسهم قد حُبست ثم نطق قائد الحرس إلى الفقي:

- سينطلق كل سهم من سهامك الثلاثة حين تشير إلى حارس الزيكولا..

فرد الفقير بصوت واهن: حسناً..

ثم أشار القائد إلى الرجل الضخم الذي يمسك بذراع الزيكولا الحديدي بأن يحرك أحد ذراعيه.. فابتسم الرجل مبرزاً أسنانه الصفراء الكبيرة.. وجذب الذراع الحديدية نحوه فبدأت التروس الحديدية تتحرك ببطء، وتسرع من حركتها شيئاً فشيئاً، وتحرك معها القرص الخشبي وما عليه من سهام، ثم زادت سرعته كثيراً، وأصبح يدور دون أن تظهر سهامه.. يدور حول نفسه ثم يتنتقل بين العمودين الخشبيين في حركة عشوائية خاطفة، لا يستطيع أحد توقعها، وخالد ينظر إليه، وقلبه يدق بقوة، ويحدث نفسه:

- مستحيل أن أحدهم اتجاه السهام..

حتى أشار الفقير الأول إلى حارس الزيكولا فجذب الرجل الذراع الخشبي القصير على الفور.. فانطلق السهم الأول نحو تمثاله فأصاب عنق التمثال.. فصاح الحضور ثم أكمل القرص دورانه، وبعد لحظات أشار الفقير مجدداً إلى الحارس فانطلق السهم الثاني فاخترق ذراعه الأيسر، فصاح الناس مجدداً، وظهر التوتر على وجه الفقير، ونظر إلى الزيكولا كثيراً، وإلى قرصها الذي يدور.. ثم أشار إلى الحارس من جديد فانطلق سهمه الأخير فاصطدم بذرعة الحديدية فوق أسفل بطن تمثاله.. فزاد صياح أهالي زيكولا، وذقت الطيول، وابتسم الفقير قليلاً بعدما لم يصب تمثاله سوى سهرين.. ثم أشار قائد الحراس إلى الفقير الآخر:

- هيأ تقدم لتحمي تمثالك..

فتقدم هو الآخر، وفعل مثلاً فعل الفقير الأول، وكلما أشار إلى حارس الزيكولا صاح الناس.. حتى انتهى من سهامه الثلاثة، ولم يصب تمثاله إلا سهم واحد اخترق بطن السفلي، ورقص فرحاً مع دقات الطيول بعدما أيقن أنه قد نجا بذلك.. ثم أشار قائد الحراس إلى خالد:

- هيأا، لم يعد سواك.. إما أن تنجو بـألا يصيب تمثالك سهام أو يصيّبه سهم واحد..
أو يصيّبك سهمان فتُعاد المنافسة بينك وبينه.. وأشار إلى الفقير الأول.. أما غير ذلك فستكون ذبيح غد..

فتقدم خالد نحو تمثاله، ووقف أمامه دون أن يفعل شيئاً.. فصاح به القائد:
- أسرع ..

فنظر خالد إلى قرص الزيكولا، والذي زُرعت به السهام من جديد.. ثم نظر عاليًا إلى شرفة قصر الحاكم حيث تجلس أسيل.. بعدها نظر إلى تمثاله، وأغمض عينيه، وتمتم بأيات قرآنية ثم فتحهما، ونظر إلى القائد:

- أريد أن أضع دروعي كي تحمي صدر تمثالي، وعوض ذراعه الأيسر.. ثم صمت مجددًا، ونظر إلى الزيكولا ثم التفت إلى تمثاله وأكمل:
- وأريد أن أحمي رأس تمثالي..

فأشار القائد إلى جنوده بأن ينقلوا تمثاله أمام الزيكولا، وأن يضعوا دروعه مثلما أراد.. ثم أمر حارس الزيكولا بأن يبدأ دوران قرصها.. فبدأت التروس تتحرك من جديد، وخالد يراقب القرص الذي يدور مسرعًا ويتحرك بين العمودين الخشبيين.. حتى سمي الله ثم وأشار إليه فانطلق السهم الأول فصاح الجميع حين أصاب فخذ تمثاله الأيمن.. فدق قلبه بقوة، ودق قلب أسيل، وانتفاض وكأنها تسمع دقّاته، والقرص يواصل دورانه، وخالد لا يعلم ماذا يصنع.. لا يرى تلك السهام بالقرص، وأمهما سينطلق.. ثم وأشار إلى الحارس مجددًا فانطلق السهم الثاني فأصاب فخذنه الأيمن مرة أخرى.. فامسك برأسه، وحدّث نفسه، وكان أنفاسه تقطعت:

- تمثالك يا خالد.. تمثالك..
- عليك أن تفكّر قليلاً.. لم يعد سوى سهم واحد.. إما أن تُعاد المنافسة.. وإما إن تكون ذبيح غد..
وأسيل تحدّث نفسها :

- تمالك يا خالد.. تمالك..

ثم نظر إلى القرص مجدداً، والجميع أنفاسهم محتبسة.. ينتظرون إشارته الأخيرة، وحارس الزيكولا يبتسم، ويتأهّب كي يجذب ذراعها، ومازالت عينا خالد تتحرك مسرعة بين قرص الزيكولا وبين تمثاله الواقف أمامه، وأسيل تتمتم وتتحرك شفتاها في توتر، وتلمع عينيها بالدموع.. حتى إنها لم تستطع أن تواصل جلوسها، ونهضت لتقف مكانها، وأغمضت عينيها بعد ما وجدهـ يشير إلى حارس الزيكولا بأن يطلق سـمهـ الأخير ..

* * *



(19)

أشار خالد إلى حارس الزيكولا بأن يطلق سهمه الأخير.. واحتبس أنفاسه حين بدأت يد الحارس تجذب ذراع الزيكولا، حتى انطلق السهم الثالث فأصاب فخذ تمثاله الأيمن مرة أخرى.. فصاحت الألوف المتواجدة بأنه ذبيح زيكولا، ودقت الطبول من جديد وقد اختلفت دقاتها عما قبل المنافسة، وخالد ينظر إلى تمثاله في ذهول وأحمر وجهه وزاد العرق على جبينه، ثم نظر إلى من يرقصون ويحتفلون وكأنه لا يصدق نفسه..

تسارع أنفاسه، ويدق قلبه بقوة، ويضع يده حول رقبته يتحسسها وكأنها في كابوس يود أن ينتهي منه، أما أسليل فخادرت شرفة الحكم على الفور بعدما لم يستطع خالد النجاة من الزيكولا، وقد أثار مغادرتها فجأةً دهشة الحكم وزوجته، وأسرعت إلى حجرتها تحدث نفسها: لو وضعتك دروعك لتحمي فخذ تمثالك الأيمن لنجوت.. ماذا أفعل؟.. سينذبح غداً..

ودموعها على وجهها، وتسرع وعقلها لا يتوقف عن التفكير، وتتحدث إلى نفسها مجدداً بصوت مسموع:

أنا من سبب كل هذا..
أنا من أخبرته عن مكان رأس المثلث..

أنا من تركته يدفع من وحداته الكثير دفعة واحدة دون أن أوقفه..

كان لي الحق أن أعتراض على ذلك..

- أنا من دفعت به إلى الزيكولا..

ثم دلفت إلى حجرتها، وما زالت تصبيع إلى نفسها:

- ماذا أفعل؟ .. ماذا أفعل؟ .. سيدفع من أحبه غدًا..

ثم وضعت رأسها بين يديها، وصمنت وكأن أصحابها الهدوء..

* * *

أصبح الطريق المهدى بين المنطقة الوسطى والمنطقة الشرقية مزدحّاً بالكثير من العربات والأحصنة والمشاة من أهالي زيكولا بعدما بدأ الكثيرون منهم ينتقلون إلى المنطقة الشرقية حيث أرض الاحتفال، وبينهم عربة ها خالد مُكَبِّل اليدين والقدمين وأمامه قائد حراس الحاكم، والذي نظر إلى خالد وقال :

- ستبقي الليلة ببيت فقراء المنطقة الشرقية ..

فلم يرد خالد، وظل صامتاً فأكمل القائد :

- عليك أن تسعد بما أنت به.. ستموت فداءً لمولود الحاكم..

- ترى كم ستجلب السعادة لكل هؤلاء الأشخاص ..

وأشار إلى خارج العربية، وصمت ثم أكمل بعد لحظات:

- ترى ذلك الزحام؟ .. إنه ليس الزحام الأكبر.. إن الكثيرين لم يحضروا زيكولا اليوم.. هناك من خرجوا بعد فتح باب زيكولا.. ولكن مع شروق شمس غد سيُغلق بابها، وسترى كم من أهل زيكولا سيحتفلون معك بيوم عيدنا..

فصاح به خالد غاضباً :

- أريدك أن تصمت.. أريدك أن تصمت..

فضهر الغضب على وجه قائد الحرس، وتقوس حاجباه ثم صمت، وتابع خالد
نظره عبر نافذة العربية ..

* * *

مرّ الوقت، ووصلت العربية إلى المنطقة الشرقية مع غروب الشمس، ومرت أمام
البحيرة التي طالما مكث خالد على شاطئها ثم أسرعت بأحد شوارع تلك المنطقة
وتوقفت أمام بيت يتواجد أمامه الكثير من الجنود فنظر القائد إلى خالد في
غلظة:

- هياً.. لقد وصلنا بيت الفقير..

* * *

ما زالت أسيل بحجرتها بقصر الحاكم.. تجلس على أرضية الحجرة مسندة ظهرها
إلى الحائط، وتنظر إلى أوراق خالد أمامها حتى نهضت، وأحضرت ورقة جديدة،
وأمسكت بقلمها، وأزالت من إضاءة المصباح الناري، وكتبت:

- سيموت من أحبه غداً..

- وأنا من سيحتفل ..

ثم توقفت يدها عن الكتابة، ونظرت إلى ما كتبته فمزقت الورقة ثم نهضت
لتتحرك جيئةً وذهاباً، والتوتر يكسو وجهها حتى نظرت خارج شرفتها فوجدت
الظلام قد حلَّ، وبدأت الألعاب النارية تضيء سماء زيكولا، ثم سمعت صوت
وصيفتها يأتياها من الخارج :

- سيدتي.. سيدى الحاكم يسألك إن كنت تودين الذهاب ضمن موكيه غداً إلى
المنطقة الشرقية..

فلم تجيئا ثم حملت أوراق خالد وأوراقاً أخرى معها، وهمت لغادرة الحجرة..

* * *

رُجَّ بخالد بإحدى غرف بيت الفقير بالمنطقة الشرقية، وظلَّ قابعًا بها وسط ظلامها.. ينام على جنبه، لا يستطيع أن يفكر في شيء.. يستمع إلى صوت الألعاب النارية بالخارج، وإلى احتفالات الأهالي، ولكنه لا يرى أمامه سوى الذبيح الذي أطاح السيف برأسه.. لا يعلم هل يريد أن يمر الوقت سريعاً كي تنتهي تلك اللحظات التي يعيشها.. أم يمر ببطء لعل تلك اللحظات تحمل أملاً جديداً.. حتى فتح باب الغرفة، ودلل إليه أحد الجنود، ومعه رجل آخر قصير القامة، وتحدث إليه الجندي:

- أنها الفقير.. انہض ..

- سُتُّحْلِقْ رأسك الآن ..

فردَ مندهشًا: ماذا؟ !!

فأكمل الجندي: لابد وأن يكون ذبيح زيكولا حليق الرأس ..

فصمت خالد.. ثم أشار الجندي إلى من معه بأن يستعد لبدء عمله فاقترب من خالد، والذي بدا عليه اليأس والاستسلام، ولم يتحرك.. ثم وضع على رأسه مادة خضراء لزجة أخرجها من وعاء زجاجي بحقيقةه، وبدأ يدلّكها بين شعر خالد الطويل، ويوضع المزيد منها، ويزيد من تسبّع الشعر بها، ثم وضع القليل منها على لحيته، ودلّكها هي الأخرى، ثم أخرج آلة حادة تشبه السكين الصغير ولكنها أقل سُمًّا، وبدأ يحلق شعره والذي بدا عليه الإسلام كصاحبها، وتساقطت حُصله بجواره متلاصقة، وخالد يجلس صامتاً.. ينظر إلى الجندي أمامه، وكلما سأله الحلاق عن شيء لم يجبه.. حتى انتهى من رأسه، ثم أسرع فقصّ لحيته، وابتسم إلى خالد :

- لقد انتهينا أنها الفقير

ثم أخرج مرآةً لامعة من حقيقته:

- انظر إلى نفسك ..

ووضعها أمامه بمكان تخلله الإضاءة عبر باب الغرفة، فلمح خالد نفسه وقد أُزيل
شعر رأسه ولحيته بالكامل فهز رأسه في حزن، ثم تحرك بجسمه إلى ركن بالغرفة،
ونام على جانبه واضعاً ساعديه أسفل رأسه..

* * *

مررت ساعات قليلة، واقترب فجر يوم زيكولا، وسيطرت الدهشة على قصر الحكم
بعدما اخافت الطبيبة فجأة، ولا أحد يعلم أين ذهبت.. إن غادرت فلماذا تركت
أغراضها بحجرتها؟!.. لا يعلمون أنها قد وصلت إلى المنطقة الشرقية، واتجهت إلى
بيت الفقير حتى أوقفها أحد الجنود فابتسمت إليه :

- أنا طبيبة زيكولا، وأريد أن أرى الفقير الآن ..

فصمت الجندي ثم أجاها :

- حسناً سيدتي.. ولكن عليك المغادرة سريعاً..

ثم فتح باب الغرفة، ودللت إليها فوجدت خالداً نائماً فاتحاً عينيه بأحد أركانها،
وقد حلق رأسه.. فحاولت أن تتمالك نفسها وتمتنع سقوط دموعها.. ثم جلست
أمامه بركن آخر بالغرفة دون أن تتحدث، ومرت دقائق وهي تنظر إليه، وكلما
أرادت أن تتحدث تصمت مجدداً، وخالد ينظر إليها صامتاً.. حتى نطقت :

- كيف حالك يا خالد؟

فلم يرد فصمتت مجدداً ثم أكملت بصوت هادئ:

- كنت أحذرك دوماً حين كنت تقصد ذكاءك..

- أنقذت الفتى، ولم تأخذ مقابلـاً..

- أنقذت الطفل من المرض، ولم تقبل أن تأخذ شيئاً مقابلـاً مقابلـاً الخير..

ثم علا صوتها، واختلط صوتها بالدموع :

- أخبرتك أنا في زيكولا.. لابد أن تأخذ مقابلًا لكل شيء..

ثم صمتت، ورشفت دموعها، وأكملت:

- أرى أنك غاضبًا مني.. لكنني أعلم أنك تحب الخير..

أريدك فقط أن تسأل نفسك.. هل كنت مستظلماً أحداً آخر إن كنت مكانى..

ثم نظرت إليه، وعلا صوتها مجدداً:

- لماذا لا تجيب؟!!

ثم هضبت، وتحركت نحوه، واقتربت منه، وأكملت:

- أعلم أنك تحبني يا خالد، ولكن عليك أن تضاعف حبك الكبير من المرأة التي تعلم
كم أحبك ..

فنهض خالد من نومته، وجلس مكانه ثم تابعت أسيل:

- خالد.. لن أتركك تموت هنا..

فرد خالد في ضعف، وقد أسنده رأسه إلى الحائط :

- ماذا ستفعلين؟ .. هل ستعطيوني من ذكائك؟!!

- وإن كنت ستعطيني.. فمقابل ماذا؟!! لا أمتلك شيئاً أعطيه لك مقابلًا..

ثم ضحك ساخراً، ونظر إلى سقف الغرفة :

- أعلم جيداً أنه في تلك المدينة لابد أن يكون هناك مقابلًا لانتقال الذكاء ..

ثم تحدث في هدوء:

- اذهب، واحتفلي غداً مع من يحتفلون.. إنهم ينتظرون ورذك غداً.. إنهم ينتظرون
ابتساماتك إليهم ..

فصمتت أسيل حتى دلف الجندي إلى الغرفة، ونظر إليها:

- سيدتي.. عليك أن ترحيلى الآن..

فنظرت أسيل إلى خالد ثم بدأت تخطو خارجة من الغرفة.. وما إن وصلت بابها، وكاد الجندي أن يغلقها حتى أسرعت عائده إلى خالد، ونظرت إليه، ووضعت رأسه بين كفيها :

- خالد.. أريدك أن تقبلني..

فنظر إليها خالد :

- ماذا؟!!

فأكملت: أريدك أن تقبلني فحسب..

وتساقطت دموعها:

- أريدك أن تقبلني يا خالد.. إن كنت تحبني حقاً فقبلني ..

فصمت خالد فابتسمت والدموع تملأ عينيه:

- حسناً.. سأقبلك أنا..

ثم بدأت تقبله، والجندي ينظر إلى ما تفعله أسيل في دهشة، ويبتسم وكأنه يتمشى لو كان هو الفقير بعدما طالت قبّلتها وكأنها لا تأبه بشيء مما حولها.. حتى انتهت ثم نظرت إلى خالد مرة أخرى ومسحت دموعها، وغادرت على الفور..

* * *

أشعرت الشمس، وأغلق باب زيكولا، وتعالت مع غلقه دقات الطبول حتى فتح باب غرفة خالد، وتقدم إليه قائد الحرس:

- هيا.. ستبدأ الاحتفالات بعد قليل..

ثم أمر جنوده بأن يحضروه، وأركبوه عربة يغطيها قماش أسود اللون يستطيع أن يرى الناس من خلال فتحة صغيرة به دون أن يراه من خارج العربية.. وتحركت

العربية، وخالد ينظر إلى الكم الهائل من الناس الذين يسيرون بانتظام، ويرتدون ملابس تبدو جديدة.. الرجال يمسكون بأيدي النساء.. والفتیان يمسكون بأيدي الفتیات.. ويسيرون في فرحة شديدة.. يضع كل منهم حول رقبته عقداً من الورد، ونظامهم الموسيقى التي يعزفها مجموعة من الأشخاص أصحاب زyi مختلف.. ثم نظر حزيناً إلى الشباب الذين يمتطون أحصنةٍ وخلف كل شاب فتاته تلف يدها اليسرى حول خصره واليمين تمسك بها ورد وتلوح بها.. ينظر إلى الحركات البليوانية ويزيد حزنه بأنهم يحتفلون بذبحه.. يتحدث إلى نفسه بأنه قد احتفل معهم منذ شهور بذبح فقير غيره.. إنهم لا يشعرون بما يشعر به الآن..

تسير العربية وسط الزحام، وقلب خالد يدق بقوة حين يجد الصبيان يشيرون إلى عربته ذات القماش الأسود، ويصيغون:

- انظروا.. إنها عربة الذبيح..

والذين صاحوا مجدداً حين أشاروا إلى عربة فخمة تسير بالموكب:

- إنها عربة الطبيبة.. هيأا لتلتقط الورد..

وخلال ينظر إليهم في أسى، ويتذكر حين التقط وردة أسيل وابتسمت إليه، حتى أصحابه الدهشة بعدما ظهرت فتاة أخرى غير أسيل، وببدأت تلقى بالورد وسط تعجب من يسيرون، وأكمل الموكب مسيره.. حتى وصل الجميع إلى ساحة الاحتفال..

* * *

أولو من أهالي زيكولا متواجدون.. الجميع يقفون أمام منصة الذبح ينتظرون وصول الحاكم كي يبدأوا الاحتفال.. وخالد يمكث بعربته، يعلم أنها لحظات وسينتهي كل شيء.. الجميع يتراقصون.. الفتیان يداعبون الفتیات، والفتیات ترقصن وتهتز أجسادهن مع الموسيقى، وتبدو عليهن السعادة الشديدة، والزحام بكافة أرجاء ساحة الاحتفال، وبينهم يامن الذي يتحرك بصعوبة، ويريد أن يصل

إلى الصفوف الأمامية القريبة من المنصة، وقد بدا عليه التعب الشديد، وربما كان الوحيد بين من يحتفلون الذي لا يرتدي ملابس تليق بهذا الاحتفال.. بل كانت ملابسه بالية تلائم وجهه الذي يكسوه الحزن.. حتى سأله فتاة:

- لماذا لا ترقص؟!

فلم يجمها، وأكمل سيره وسط الزحام.. حتى دقت الطبول، وعلا معها صوت النفير بعدما وصل الحكم وزوجته ومساعدوه، واتخذوا أماكنهم بسرادق فخم مرتفع أمام منصة الذبح ثم صعد رجل ضخم إلى المنصة الخشبية وببيده سيف طويل، ونظر إلى الحكم وانحنى له.. بعدها دقت الطبول كثيراً، وصممت الموسيقى، وصعد جنديان أقوياء يجران خالد حليق الرأس، مكبلاً اليدين والقدمين.. فدققت الطبول مرة أخرى، ونزل أهل المدينة جميعهم على ركبיהם عندما أسقط خالد على ركبتيه، والناس ينظرون إليه، وبنيهم يامن الذي آثر أن يغمض عينيه ثم نظر السياف مجدداً إلى الحكم فأشار إليه بأن يتبع عمله، وكاد يوخر ظهر خالد كي يتحقق برأسه.. حتى صاح فتى بين من يقفون:

- إنه غني.. إنه غني..

فنظر إليه خالد فوجده ذلك الفتى الذي أنقذه من الغرق من قبل.. ثم صاح رجل آخر:

- نعم.. إنه ليس فقيراً ..

ففتح يامن عينيه.. ثم نظر إلى خالد فوجده ليس شاحباً.. فصاح هو الآخر:

- نعم.. إنه ليس فقيراً ..

وخلال ينظر إلى ذراعيه في دهشة، وقد زال شحوبهما، ثم وجد الفتى يسرع إلى المنصة ويجهو على ركبتيه بجواره، ويتحدث إلى الحكم ومن معه، وقد علا صوته:

- انظروا إليه.. إنه ليس فقيراً.. وأنا أيضاً لست فقيراً.. إن كنتم ت يريدون أن تذبحوا من ليسوا فقراء احتفالاً بمولودكم.. فاذبحوني معه..

ثم فوجي خالد بأم الصبي الذي أنقذه من ضربة الشمس تسرع مع طفلها إلى المنصة، وتتجول على ركبتيها، وصاحت:

- لقد أنقذ هذا الشاب ولدي، ولن أتركه يموت ظلماً.. حسناً، أنا وولدي لسنا فقراء أيضاً.. فاذبحونا معه..

ثم صاحت فتاة بين من يقفون بالأسفل، كانت فتاة الليل بالمنطقة الشمالية:

- أقسم إنه ليس فقير.. أنا أعرف هذا الشخص جيداً.. انظروا إلى جلدته.. كيف يكون هذا جلد فقير..

وصاح يامن مجدداً :

- منذ متى يُذبح الأغنياء هنا؟ !

ثم فوجي بجميع من كانوا يعملون معه بتكسير الصخور يصيحون جميعاً:

- إنه ليس فقيراً.. إنه ليس فقيراً..

وسادت الضوضاء ساحة الاحتفال، وصعد الكثيرون إلى المنصة، وسقطوا على ركبهم بجوار خالد، وجميعهم يقولون إن كان سيذبح فإنهم يريدون أن يذبحوا أيضاً طالما تواجد الظلم بذلك اليوم.. حتى نظر السياف إلى الحاكم، وكأنه لا يدرى ماذا يفعل بعد ما امتلأت المنصة بالكثير من عمال زيكولا.. فهض الحاكم، وسأل أحد مساعديه:

- أين طبيبة زيكولا؟

فأجابته إحدى الوصيفات :

- ليست لها أثر منذ الأمس سيدى..

فصاح إلى مساعدته :

- أريد طبيب تلك المنطقة على الفور..

فتقدم أحد الأشخاص، وانحنى إليه ثم تحدث:

- أنا طبيب المنطقة الشرقية بعد الطيبة أسيل .

فنظر إليه الحكم : أريدك أن تخبرني كم يمتلك هذا الشاب من ذكاء..

فانحنى إليه الطبيب مجددًا :

- حسنًا سيدى ..

ثم اتجه الطبيب إلى المنصة، واقترب من خالد، وخيم الصمت على الجميع..
يتربون ذلك الطبيب، وقلب يامن ينتفض بقوة واحتبس أنفاسه.. وهو يراه
يضع يده على جلد خالد، ويمسك بثنياته وأطال نظرته إليه.. ثم عاد إلى الحكم:

- سيدى، إنه ليس فقيرًا.. إنه يمتلك الكثير من وحدات الذكاء يجعله أكثر ثروة من
الكثير من أهال زيكولا ..

فتسأله الحكم: وكيف لم ينجع من زيكولا؟

فابتسم الطبيب: نعلم جميعًا أن زيكولا تمثل القدر سيدى.. وقد لا ينجو منها
أكثرنا ثروة..

فصمت الحكم ثم نظر إلى الطبيب مجددًا :

- ولماذا اختارتكم الطيبة، وهو يمتلك تلك الوحدات من الذكاء.. أتريد أن يكون
الاحتفال بولدي بأن أظلم أحدًا؟!

ثم تابع: إنها بما فعلته خائنة لزيكولا ..

ونظر إلى أحد مساعديه :

- لم تعد تلك الفتاة طبيبة زيكولا بعد اليوم.. بل لم يعد لها مكان بزيكولا.. لا يوجد بيننا مكان لخائنة..

ثم نظر إلى خالد الذي كان يتربى الحاكم دون أن يسمع حديثه بينه وبين مساعديه وطبيبه :

- لقد عفونا عنك يا بني.. إننا لا نظلم أحداً.. ليست زيكولا أرضًا للظلم.. سيكون مولودي أكثر سعادة وفخرًا باحتفالك معنا..

ثم أمر قائد الحرس بأن يطلق سراحه.. فصاح الجميع مهلاين، وأسرع يامن إلى المنصة، واحتضن خالد، ودموعه تتتساقط :

- لقد نجوت يا صديقي.. لقد فعلتها.. كنت أعلم أنك ستنجو ..

ثم اقترب خالد من ذلك الفتى الذي صعد إلى المنصة فابتسم الفتى، واحتضنه:

- مبارك لك أمها القوي..

فابتسم خالد، وعيناه تلمع بالدموع :

- لقد أنقذت حياتي..

فابتسم الفتى:

- أنت من أنقذت حياتي أولاً..

ثم بدأت الاحتفالات من جديد، وتعالت الموسيقى والتي بدت وكأنها أكثر بهجة.. وببدأت الفتيات ترقصن من جديد.. والكثير من أهل زيكولا يتوجهون إلى خالد ليصافحوه، وخالد يسير بينهم، وتتقلب عيناه بكل مكان.. يتحرك بين الزحام بصعوبة.. يبحث عن شخص واحد لا يريد سوى أن يجده.. إنها أسيل.. يتحرك في كافة الاتجاهات يتمنى أن يجدها.. ويسأل كل من يقابلها.. هل رأيت الطبيبة؟.. والموسيقى تتزايد، وخالد يبحث بين الفتيات، وكلما وجده فتاة تشهد لها يقترب منها.. حتى يعتذر حين لا يجدها هي.. حتى أصابه اليأس، وغادر ساحة الاحتفال، وجلس

على جانب أحد الشوارع وحيداً بعدهما فقد يامناً وسط الزحام، وظل يفكر بما حدث له، وكأنه لا يعي شيئاً مما عاشه، وينظر إلى ذراعيه، ويسأل نفسه: كيف حدث ذلك؟.. وأين أسليل؟.. ولماذا لم تحتفل مع أهل زيكولا كعادتها؟.. حتى اقتربت منه طفلة صغيرة :

- سيدى.. عليك أن تذهب إلى البحيرة الآن ..

فابتسم خالد إليها :

- لماذا؟

فابتسمت الطفلة وقالت :

- لا أعلم، لقد أخبرتني الطبيبة بالأمس.. بأن أخبار من ينجو من الذبح بأن يذهب إلى البحيرة ..

* * *

(20)

اتسعت حدقتا عيني خالد بعدهما سمع هذه الكلمات: "الطبيبة؟!.. أسيـل.."

ثم أسرع عَدُوا إلى البحيرة.. يدق قلبه بقوـة.. لا تنطق شفـتاه سـوى بكلمة واحدة: أـسيـل.. وينطلق بين من يحتفلون، ويرتـطم بهـم ثم ينـحـي لهم ليقدم اعتـذـارـه.. ثم ينـطلق مـجدـداً، وقد ارـتـسمـت البـسـمة على وجهـه.. حتى وصلـ إلى شـاطـئ الـبـحـيرـة، وظـلـ يـبـحـثـ عنـها بـكـلـ مـكـانـهـ، وصـاحـ بصـوـتهـ: أـسيـل.. أـسيـل.. ولـكـنهـ لمـ يـجـدـهاـ، وـظـلـ يـصـبـحـ بصـوـتهـ يـنـادـهـاـ، ولـكـنـ دونـ جـدـوىـ حتىـ اقـرـبـ منـ شـجـرـتـهـ الـيـ طـلـماـ جـلـسـ بـجـوارـهـ، وـبـدـاـ عـلـىـ وجـهـهـ الحـزـنـ، فـلـمـ وـرـقـةـ قدـ عـلـقـتـ بـتـلـكـ الشـجـرـةـ، وـتـنـحـرـكـ معـ الـرـيـاحـ، فـالـتـقـطـهـاـ عـلـىـ الفـورـ فـوـجـدـهـاـ تـبـدوـ كـرـسـالـةـ تـرـكـتـهـاـ أـسيـل.. وـقـدـ كـتـبـتـ بـهـاـ :

(لا أعلم كيف أبدأ حديـثـيـ.. ولكنـيـ أـتـمـيـ أنـ تـقـرأـ كـلـمـاتـيـ تـلـكـ يـاـ خـالـدـ.. رـبـماـ لـأـكـونـ مـاهـرـةـ فيـ الـكـتـابـةـ مـثـلـكـ.. ولكنـيـ أـرـيدـ فـقـطـ أـنـ أـعـبـرـ عـمـاـ يـدـورـ بـذـهـنـيـ.. أـرـيدـكـ أـنـ تـعـلـمـ كـمـ كـنـتـ أـحـبـكـ.. لـقـدـ أـحـبـيـتـكـ مـنـذـ رـأـيـتـكـ تـنـقـذـ الفـقـيـ مـنـ الغـرـقـ.. وـأـنـتـ مـنـ جـعـلـيـ أـشـعـرـ بـالـأـنـانـيـةـ بـعـدـمـاـ لـمـ أـرـدـكـ أـنـ تـغـادـرـ وـتـرـكـ زـيـكـوـلـاـ.. كـنـتـ أـظـهـرـ لـكـ مـسـاعـدـيـ، وـلـكـنـيـ لـمـ أـتـمـنـ لـحـظـةـ وـاحـدـةـ أـنـ تـغـادـرـ ..

خالد، لم أستطع أن أراك ذبيح زيكولا، وأظل أنا أحفل بذلك اليوم.. أريدك بعد أن نجوت أن تخبر غيرك بأنك تمتلك أغلى كتاب بتاريخ زيكولا.. كما أنك تمتلك أيضاً أغلى قُبْلَة بتاريخها..

أتذكر حين أخبرتني أنك لا تمتلك شيئاً تناول مقابلة وحدات ذكاء؟.. إنك لا ترى ما تمتلكه يا خالد.. لقد رأيت ذلك.. وكانت تكفيكي تلك القُبْلَة كي أدفع لك أغلى ثمناً مقابلًا لها.. كي تنجو من ذلك اليوم، وتعود إلى حبيبتك؛ ذكيًا كما كنت.. أريدك فقط أن تعود إليهما وتحيشا سعيدين.. أنا أعلم أنها لن تجد مثلك، وأعلم أيضاً أنك لن تستطيع العيش هنا، وأعلم جيداً أنني لن أستطيع العيش بعالنك.. عُد إليها، وأنتمي أن تذكرني بين الحين والآخر..

ربما تجد ذلك النجم بالسماء.. فإن وجدته فاعلم أنني أراه أيضاً وأنتمي لك السعادة وقتها.. أعتقد أنني لن أترك السماء ليلة دون أن أتأملها بحثاً عنه..

لقد أخبرتك أنني إن تركت زيكولا سأتركها لسبب قوي للغاية.. ولا أعتقد أنني سأجد سبباً أقوى من إيقائك على قيد الحياة، وأريدك أن تخبر يامناً أنني أعلم جيداً أن من يحب سيفعل كل شيء من أجل من يحبه..

سأذهب إلى بلدي بيجانا، وسأعمل هناك طبيبة أيضاً.. أعلم أنهن في حاجة إلى، وسأخبرهم دوماً عن ذلك الشاب الذي أتى إلى زيكولا، وعمل الكثير من الخير دون أن يتضاخي عنه مقابلًا..

في النهاية، اسمح لي يا خالد.. لقد احتفظت بأوراقك التي طالما جعلتني أشعر بسعادة لم أدهراها من قبل.. وأتمنى أن تكون قد شعرت بكلماتي، وأعلم أنني لست ماهرة بالكتابة.. ولكن علىي أن أرحل الآن قبل أن تشرق الشمس، وينغلق باب زيكولا).

فهمس خالد إلى نفسه : "باب زيكولا.."

ثم أسرع يعدو تجاه باب زيكولا.. يجري ولا يشعر بشيء من حوله.. يجري ولا تدور برأسه سوى كلمات أسييل.. يجري مسرعاً كأنه لم يجرِ من قبل.. يتمنى أن تنقله

الرياح إلى ذلك الباب.. من يراه يندهش، ويرتطم بهدا وذاك.. ويواصل عَدُوه، ويسقط وينهض ليعدو مرة أخرى.. يستمع إلى أنفاسه المتسارعة، ويكمِّل عدوه وسقطت منه الورقة فتركتها.. وأكمل طريقه.. حتى وصل إلى باب زيكولا فوجده مغلقاً، وأمامه حارس ضخم الجثة فصاح به:

- أريد أن أخرج..

فابتسم الحارس:

- ألا ترى؟ !!! لقد أغلق الباب مع شروق شمس اليوم..

فصاح خالد مجدداً :

- لابد أن أخرج ..

فظهر الغضب على وجه الحارس حتى صاح خالد مرة أخرى، وحاول أن يزيح الحارس بذراعه فدفعه الحارس بذراعه فعاد خطوات إلى الخلف، وسقط ثم نهض مجدداً، وعاد إلى الحارس:

- أريد أن أخرج..

فضربه الحارس ضربة قوية بذراعه أسقطته على ظهره، وجعلت الدماء تنزف من وجهه فاقترب منه يامن، وأمسك بكتفيه:

- هيا يا خالد.. لابد أن نرحل عن هنا..

فنهض خالد، ونظر إلى الباب الضخم.. وانتفخت عروق رقبته، وصاح بصوته كأنه يود أن يهز جدران تلك المنطقة:

- أسييبييل.. أسييبييل..

فجذبه يامن :

- هيا يا خالد.. هيا.. لابد أن نرحل عن هنا..

ثم أعطاه ورقة أسيل التي سقطت منه، وقال:

- لا تستطيع أسيل العودة إلى هنا مجدداً ..
- كانت تعلم أنها ستصبح في نظر تلك المدينة خائنة.. ففضلت أن تتركها بكلفة ما تمتلكه..
- فصاح به خالد:

 - إنها ليست خائنة ..
 - فابتسم يامن:
 - أعلم ذلك يا صديقي.. لقد قرأت تلك الورقة ثم نظر إليه:
 - لقد صحت بكل شيء من أجل حياتك يا خالد..
 - أنت تعلم ما كتبته إليك.. ما تمنته لك أن تعود إلى حبيبتك في عالمك.. وأن تعيش حياتك سعيداً.. هذا سيكفل لها السعادة..
 - خالد، عليك أن تفعل ما يجعلها سعيدة الآن..
 - فنطق خالد حزيناً:
 - كان لابد أن تعرف أن حبيبتي تلك قد تزوجت..
 - فصممت يامن ثم قال:
 - لن تستطيع أسيل العودة إلى هنا.. ولن تستطيع أنت اللحاق بها.. عليك أن تعود إلى بلدك.. لقد فعلنا الكثير كي تتحقق أمنياتك بعودتك إلى بلدك..
 - فجلس خالد، وأمسك برأسه.. وحدث نفسه بصوت مسموع:
 - لم أكن لأرضى أن تفعل ذلك..
 - فصاح به يامن:
 - ولكنها فعلته، ولم يعد هناك وقت لما تفعله الآن.. هيئا انقض..
 - ثم جذبه:

- أعلم أنك صديقي، ولكن أيها الصديق لا أريده أن تظل هنا بيلا.. عليك أن تعود إلى بلدك..

فصحح خالد ساخراً:

- بلي؟! كيف؟.. لابد وأن صاحب البيت بالمنطقة الغربية قد عاد إليه، وانتهى كل شيء..

فصمت يامن ثم أكمل مبتسمًا:

- أو ربما لم يعد بعد..

ثم أكمل :

- سيعود إلى بيته بعد غد..

فنظر إليه خالد متعجبًا:

- كيف وقد أخبرنا الفتى بأنه سيعود إلى بيته مع يوم زيكولا؟!

فابتسم يامن :

- أعتقد أن مائتي وحدة ذكاء كافية لتجعله يترك بيته ليلترين..

فسأله خالد في دهشة :

- مائتا وحدة؟!

فابتسم يامن: نعم ..

فسأله خالد مجددًا: أعطيته مائتي وحدة؟!

فأجابه يامن: نعم..

فنظر إليه خالد: كيف تدفع تلك الوحدات؟

فأجابه يامن، ولا زالت الابتسامة على وجهه:

- ليست أسليل فقط من تقدم المساعدة.. حين جعلتنا نتخلص من آخرى وحدات الحماية كـ ناكل دجاجاً، ونوفر وحدتين كل يوم.. لم أكن آكل الدجاج.. ثم زادت ابتسامته:

- لم أخبرك من قبل أني لا أحب الدجاج.. وسامحي لأنني لم أحضر منافسة الزيكولا بالأمس.. كان لابد، وأن أمهك هنا أمام ذلك الباب، وأنظر النهار بأكمله مع الخادم كـ أجed صاحب البيت، وأقـيم له عرضي قبل أن نفقده ويضيع كل شيء..

فسألـه خالـد :

- وما مقابل تلك الوحدات يا يامـن؟

فنـظر إلـيـه يـامـن:

- لا تـكـفي تلك الوحدات مقابلـاً لتـلك الشـهـور التي كـنـتـ بـهـا صـديـقاً وـفـيـاـ ليـ..

فـابـتـسـمـ خـالـدـ ثـمـ اـحـتـضـنـهـ، فـهـمـسـ يـامـنـ إـلـىـ أـذـنـهـ:

- هيـاـ، عـلـيـكـ أـنـ تـرـحـلـ الآـنـ.. الطـرـيقـ إـلـىـ الـمـنـطـقـةـ الـغـرـبـيـةـ طـوـيـلـ.. هـنـاكـ يـنـتـظـرـكـ إـيـادـ.. سـتـعـطـيـهـ ذـلـكـ الـحـصـانـ حـينـ تـصـلـ إـلـيـهـ.. ثـمـ أـشـارـ إـلـىـ حـصـانـ أـسـودـ قـدـ عـقـلـهـ بـالـقـرـبـ مـنـهـاـ وـتـبـدوـ عـلـيـهـ الـقـوـةـ..

فـسـأـلـهـ خـالـدـ، وـكـأنـهـ لـيـصـدـقـ مـفـاجـأـتـهـ:

- وـمـنـ أـينـ لـكـ بـهـذاـ الـحـصـانـ أـيـضاـ؟

فـابـتـسـمـ يـامـنـ:

- لا تـقـلـقـ، لـقـدـ اـسـتـأـجـرـتـهـ كـيـ آـتـيـ بـهـ إـلـىـ هـنـاـ.. كـانـ لـابـدـ أـنـ أـسـرعـ.. وـلـكـنـيـ تـذـكـرـتـ أـنـ الـحـصـانـ لـابـدـ وـأـنـ يـعـودـ إـلـىـ صـاحـبـهـ بـالـمـنـطـقـةـ الـغـرـبـيـةـ، وـأـنـ إـنـ ذـهـبـتـ إـلـىـ هـنـاكـ كـيـ أـعـيـدـهـ.. فـكـيـفـ أـعـودـ هـنـاـ مـجـدـاـ؟!

ثـمـ أـكـمـلـ ضـاحـكاـ:

-أنا جئت به.. وأنت ستعود به..

فابتسم خالد :

-أكيد مش هلاق صاحب زيك يا يامن..

فابتسم يامن :

- ها أنت قد عدت إلى ليجتك الجميلة يا صديقى ..

- هيّا لا تضيع وقتك، وتذكريني دائمًا، وأنا سأظل هنا لأحكى للصغار أن صديقي صاحب أغلى كتاب وأغلى قبّلة بتاريخ زيكولا.. القبّلة التي أنقذت حياته يوم زيكولا..

ثم أتى بالحصان إلى خالد، فامتطاه خالد ونظر إليه:

- يامن.. تعلم أن هناك شابًا قد يكون أخي بالمنطقة الشمالية.. إن قابلته يومًا، وكان في حاجة إلى مساعدة فلا تتأخر عنه..

فابتسم يامن :

- حسنًا..

ثم ضرب مؤخرة الحصان بيده، وصاح :

- هيّا إلى طريقك.. سيعطيك إياد كتابك حين يجدك.. أما أنا سأذهب لاحتفل مع أهل زيكولا.. أشعر أنني في حاجة كي أرقص مع إحدى الفتيات.. كفاني تلك الجرعة من الحزن الأوقات السابقة..

* * *

بدأ خالد يتحرك بحصانه، وينظر إلى يامن الذي يقف مبتسمًا ويلوح له بيده، والحصان يتحرك ببطء، وخالد ينظر إلى بيوت المنطقة الشرقية وقصورها التي عاش بينها لشهور.. حتى اخترى يامن عن أنظاره، وتحرك نحو البحيرة فابتسم ثم اقترب منها، وترجل ونزل ليشرب من ماءها.. ثم امتطى حصانه مجددًا، وأمره أن

ينطلق في طريقه إلى المنطقة الغربية، والشمس تسقط فوق رأسه الحليق.. يتطاير قميصه مع الهواء، ويسرع حصانه كأنه سهم يشق الطريق نحو الغرب.. بينما تنطلق أسيل بحصانها خارج زيكولا تجاه بيجانا نحو الشرق.. يسير كلاهما في طريقه، ويبعد كل منهما عن الآخر.. خالد لا يفکر سوى بكلمات أسيل، وأسيل لا يدور برأسها سوى خالد.. يبتسم حين يتذكر حديثه إليها عن التلفزيون، وتبتسم هي بعدما تذكريت أحمرار وجهه حين قبّلته.. ينطلق الحصانان كلّ نحو قدره الذي اختاره صاحبه، وتحرك فوقهما الشمس من الشرق إلى الغرب كأنها تراقبهما على ظهر تلك الأرض وهما مجتمعان للمرة الأخيرة، وخالد يسرع ويقلب عينيه بين صحراء زيكولا وكأنه يودعها، وينظر إلى مناطقها التي يمرّ عليها ويشير إليها بيده، وكأنه يخبرها بأنه سيرحل.. وأسيل تغمض عينيها كأنها تتممّي لخالد أن يحقق ما يريد.. حتى بدأت الشمس في الغروب إيزاناً برحيل هذا النهار..

* * *

حل الليل، ووصل خالد إلى أطراف المنطقة الغربية، واتجه نحو البيت الذي يقصده على الفور، وما إن وصله حتى دلف إليه بحصانه، وهناك وجد إياداً في انتظاره، والذي صاح:

- لقد سمعت بما حدث اليوم.. هنيئاً لك يا صديق ..

فابتسم خالد:

- شكرًا يا صديقي..

ثم ترجل، وأشار إلى حصانه:

- هذا هو الحصان الذي استأجره يامن.. إنه أسرع حصانرأيته بزيكولا.. لقد أحسن يامن الاختيار تلك المرة..

فابتسم إياد ثم أخرج كتابه:

- وهذا هو كتابك..

فابتسم خالد :

- مازلت أدين لك بأجر متابعة حفر النفق ..

فضحك إياد :

- لقد أعطاني يامن ذلك الأجر .. لم أطلب الكثير ..

فابتسم خالد :

- يامن ..

فأسأله إياد: هل سترحل الآن؟

فأجابه: نعم

فأكمل إياد:

- لقد قرأت بعض الصفحات من كتابك ..

- لقد أسعده الحظ يا خالد.. إن الليلة بدر أيضًا.. سيكون سردا بك مضاءً.. ثم

نظر إليه وأعطاه مصباحًا ناريًا:

- وهذا المصباح سيلزمك حتى تمر من نفقنا ..

فابتسم خالد :

- حسناً، ولكن عليكم أن تغلقوا طرف ذلك النفق بعد ذهابي ..

فقال إياد :

- بالطبع يا صديقي.. إن اكتشف أحد ما فعلناه فسنصبح خائنين لزيكولا..

فوضع خالد يده على كتفه ثم صافحه واحتضنه، ووضع كتابه بين بطنه وبنطاله

أسفل قميصه، واتجه إلى فتحة النفق، ونزل السلالم الخشبية بها، وبهذه المصباح ..

وأشار إلى إياد مودعًا له ..

* * *

بعدها نظر خالد إلى النفق الأفقي فوجده مظلماً.. فسمى الله، وببدأ يزحف على ركبتيه وبيده المصباح، يتحرّك مسرعاً ويحدث نفس: ليست إلا أمطار وأكون خارج زيكولا.. يشعر أن نشاطه قد عاد إليه بعدما افتقده الأيام السابقة.. ويكمّل حديثه إلى نفسه:

- أرحل من أجل أسيـل.. من أجل جـدك.. من أجل يامـن، ويواصل زحفه، ويتجـبـب الدعـامـات الخـشـبـيـة الـتـي تـرـكـها من صـنـعـوا هـذـا النـفـقـ.. يتـوقـفـ لـلـحـظـاتـ ليـلتـقطـ أـنـفـاسـهـ ثـمـ يـبـتـسـمـ، ويـحـدـثـ نـفـسـهـ مـجـداًـ: ماـزـلـنـاـ فـيـ الـبـداـيـةـ يـاـ خـالـدـ.. هـيـاـ.. ثـمـ يـكـمـلـ تـحـرـكـهـ حـتـىـ لـحـ الفـتـحةـ الـأـخـرـىـ لـلـنـفـقـ، وـالـنـورـ يـتـسـرـبـ خـلـالـهـ فـأـسـرـعـ مـنـ تـحـرـكـهـ.. يـجـذـبـهـ الـأـمـلـ نـحـوـهـ.. هـيـاـ يـاـ خـالـدـ.. هـيـاـ.. إـنـهـ لـحـظـاتـ.. هـيـاـ، ويـزـحفـ بـقـوـةـ، حـتـىـ وـصـلـ إـلـىـ تـلـكـ الـفـتـحةـ، وـقـفـزـ إـلـىـ خـارـجـهـ، وـمـازـالـ مـصـبـاحـهـ بـيـدـهـ حـتـىـ وـجـدـ نـفـسـهـ بـأـرـضـ رـمـلـيـةـ يـظـهـرـهـاـ نـورـ الـبـدرـ الـذـيـ يـسـطـعـ بـالـسـمـاءـ، وـالـتـفـتـ لـيـدـقـ قـلـبـهـ بـقـوـةـ حـينـ وـجـدـ سـوـرـ زـيـكـولاـ بـشـمـوـخـهـ خـلـفـهـ.. فـصـاحـ فـرـحاـ:

- أنا خارج زيكولا.. أنا خارج زيكولا ..

وـظـلـ يـعـودـ بـقـدـمـهـ خـطـوـاتـ لـلـخـلـفـ، وـيـنـظـرـ إـلـىـ سـوـرـ زـيـكـولاـ وـالـإـرـفـاعـ الشـاهـقـ الـذـيـ طـالـمـاـ كـانـ عـائـقاـ لـهـ.. حـتـىـ انـزلـقـتـ قـدـمـاهـ فـيـ الرـمـالـ فـجـأـةـ، وـسـقـطـ عـلـىـ ظـهـرـهـ، وـسـقـطـ مـصـبـاحـ بـعـيـدـاـ عـنـهـ، وـمـالـبـثـ أـنـ مـدـ يـدـهـ كـيـ يـلـتـقـطـهـ حـتـىـ وـجـدـ جـسـدـهـ يـسـقـطـ بـحـفـرـةـ وـسـطـ الرـمـالـ، وـظـلـ جـسـدـهـ بـهـوـيـ لـأـسـفـلـ، وـيـرـتـطمـ بـجـدـرانـ تـلـكـ الـحـفـرةـ، وـبـهـوـيـ أـكـثـرـ فـاكـثـرـ دـوـنـ أـنـ يـتـوـقـفـ، وـأـمـسـكـ بـرـأسـهـ الـتـيـ اـرـتـضـتـ كـثـيرـاـ، وـبـدـأـتـ الدـمـاءـ تـنـزـفـ مـنـهـ.. حـتـىـ بـدـأـتـ حـرـكـتـهـ تـقـلـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ ثـمـ تـوـقـفـ جـسـدـهـ عـنـ الـإـرـطـاطـ لـيـنـظـرـ أـمـامـهـ لـيـجـدـ نـفـقاـ مـمـدـاـ يـتـجـهـ بـاـنـحـنـاءـ لـأـسـفـلـ وـلـأـحـدـ الـاتـجـاهـاتـ فـأـسـرـعـ بـهـ يـجـريـ.. الـطـرـيقـ يـأـخـذـهـ لـأـسـفـلـ، وـلـاـ يـفـكـرـ بـشـيءـ سـوـىـ أـنـ يـسـرعـ بـهـ.. يـرـيدـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ مـاـ يـرـيدـهـ.. يـعـلـمـ أـنـ اـنـحنـاءـ الـطـرـيقـ لـأـسـفـلـ رـيـماـ لـسـبـبـ لـاـ يـعـلـمـهـ.. إـنـهـ صـُمـمـ كـذـلـكـ.. رـيـماـ كـانـ سـبـبـاـ كـيـ يـحـتـويـ فـرـعـيـ زـيـكـولاـ بـالـكـامـلـ.. أـوـ رـيـماـ كـانـتـ هـنـاكـ فـرـوعـ أـخـرىـ.. يـتـحدـثـ إـلـىـ نـفـسـهـ، وـتـدـورـ بـعـقـلـهـ تـفـسـيرـاتـ لـاـ يـأـبـهـ بـهـاـ كـثـيرـاـ.. حـتـىـ سـقـطـ

وتدرج بجسده مجدداً فابتسم ونهض، وأكمل عَدُوهُ، وكَمَا سقط تدرج جسده
قليلاً ثم ينهض مجدداً، ويكمِل عدوه، وظل يواصل طريقه، والوقت يمر.. وإن
أصابه التعب وقف للحظات كي يتقط أنفاسه ثم يسرع من جديد، ويحدث نفسه
ليحفزها:

- هيئا يا خالد.. لم يعد سوى القليل..

حتى زاد تعبه للغاية فجلس، وأسنـد ظهره إلى جدار، ومسح بذراعه حبات العرق
التي أغرفت جبينه.. ثم نهض وسار بضع خطوات حتى وجد صورة تشبه الصورة
التي وجدها حين نزل السرداد لأول مرة، والصورة التي نقشت على سور زيكولا
بالم منطقة الغربية فوق أمامها، وابتسم:

- فوريك..

وما إن مرَّ أمامها حتى شعر بذات المَهْزَة العنيفة التي حدثت من قبل حين عبر
السرداد للمرة الأولى، ونظر خلفه ليجد جدران السرداد قد بدأت في الانهيار..
فابتسم وببدأ يعود.. يسع.. والجدران تنهار من خلفه.. تخطو قدماه مسرعة..
يعلم أن الانهيار من خلفه يدفعه لطريق مقصود.. يسع ويخشى أن يطوله الانهيار
فتتحطم معه آماله.. هيئا يا خالد.. يحفز نفسه.. هيئا.. حتى بدأ الصوت يقل من
خلفه، وهدأت الحركة العنيفة، ولم تعد هناك انهيارات للجدران، وما إن نظر
أمامه حتى وجد نفسه في طريق للسرداد أكثر اتساعاً، وجدرانه منقوشة بنقوشٍ
كثيرة.. فصاح :

- سرداد فوريك.. سرداد فوريك الأساسي..

وأسرع به، ترتطم قدماه بالهيكل العظيم المنتشر بأرضيته، وأكمل جريه حتى
وصل إلى سلمه الطويل فأسرع إليه وصعد درجاته.. يخطو العديد منها بخطوة
واحدة منه.. يحدث نفسه.. لم يعد سوى القليل يا خالد.. يصعد ولا ينظر خلفه..
ينظر إلى درجات السلم المتبقية، ويخطوها مسرعاً.. حتى وصل إلى أعلىه فتوقف

وانحنى ليمسك ركبتيه ليلتقط أنفاسه، وكأنه يفكـر، ويـتذكـر يوم نـزوله السـرـدـاب
لـلـمـرـةـ الـأـوـلـىـ، وـحـدـثـ نـفـسـهـ بـصـوـتـ يـسـمـعـهـ:

- هـاـ أـنـاـ قـدـ مـرـتـ مـنـ السـرـدـابـ..

الآنـ النـفـقـ ..

علـيـكـ أـنـ تـسـرـعـ يـاـ خـالـدـ.. لاـ يـوـجـدـ هـوـاءـ بـالـدـاخـلـ ..

ثمـ صـمـتـ وـأـكـمـلـ:

- ولاـ تـوـجـدـ إـضـاءـةـ.. عـلـيـكـ أـنـ تـتـذـكـرـ جـيـدـاـ كـيـفـ كـانـ مـسـارـكـ هـذـاـ النـفـقـ..

ثمـ أـغـمـضـ عـيـنـيـهـ، وكـأـنـهـ يـتـذـكـرـ ثـمـ فـتـحـهـماـ، وـنـظـرـ إـلـىـ الـفـتـحـةـ ذاتـ أـلـوـاحـ الـخـشـبـ
الـمـتـكـسـرـةـ، وـالـقـيـ تـصـلـ سـرـدـابـ فـورـيـكـ بـالـنـفـقـ الـمـلـمـ.. وـسـمـيـ اللـهـ ثـمـ مـلـأـ صـدـرـهـ
بـالـهـوـاءـ، وـأـسـرـ إـلـيـهـاـ فـوـجـدـ الـظـلـامـ يـسـودـ بـدـاـخـلـهـ، وـأـسـرـعـ يـرـيـ شـبـاكـ الـعـنـكـبـوتـ
الـتـيـ تـمـلـؤـهـ، وـيـسـرـعـ، وـيـتـذـكـرـ فـيـ لـحـظـاتـ طـرـيقـهـ حـينـ نـزـلـهـ.. يـسـرـعـ فـيـ الـظـلـامـ، وـكـلـمـاـ
وـجـدـ طـرـيقـهـ خـالـيـاـ يـتـقدـمـ أـكـثـرـ.. وـيـتـحـركـ كـأـنـهـ يـغـطـسـ بـأـعـماـقـ مـحـيـطـ.. تـحـرـكـهـ كـمـيـةـ
الـهـوـاءـ الـتـيـ التـقـطـهـاـ مـنـدـ دـخـولـهـ بـعـدـمـ تـكـفـ فـتـحـةـ هـذـاـ النـفـقـ لـتـدـخـلـ الـمـزـيدـ مـنـ
الـهـوـاءـ مـعـ كـثـافـةـ شـبـاكـ عـنـاكـبـهـ، كـأـنـهـ صـُمـمـ لـيـكـونـ قـبـرـاـ لـلـاخـتـنـاقـ حـتـىـ لـوـ لـمـ يـكـنـ
مـغـلـقـاـ بـالـكـامـلـ، وـبـدـأـ يـشـعـرـ بـالـاخـتـنـاقـ، وـلـكـنـهـ أـكـمـلـ طـرـيقـهـ، وـتـسـارـعـتـ أـنـفـاسـهـ،
وـدـقـ قـلـبـهـ مـسـرـعـاـ، وـبـرـزـتـ عـيـنـاهـ حـتـىـ اـرـتـطـمـتـ قـدـمـاهـ بـشـيـءـ صـلـبـ، وـحـينـ تـحـسـسـهـ
أـدـرـكـ أـنـهـ سـلـمـ النـفـقـ فـصـعـدـ درـجـاتـهـ عـلـىـ الـفـورـ حـتـىـ اـصـطـدـمـتـ رـأـسـهـ بـبـابـهـ
الـفـوـلـادـيـ الـذـيـ قـدـ أـغـلـقـ حـينـ انـكـسـرـ اللـوـحـ الـخـشـيـ، فـبـدـأـ يـدـفـعـهـ بـقـوـةـ.. يـعـلـمـ أـنـهـ
يـسـتـطـيـعـ ذـلـكـ.. يـدـفـعـهـ وـيـحـاـوـلـ أـنـ يـرـفـعـهـ.. يـحـفـزـ نـفـسـهـ، وـأـخـرـجـ مـاـ لـدـيـهـ مـنـ هـوـاءـ:

- هـيـاـ يـاـ خـالـدـ.. هـيـاـ..

وـيـضـغـظـ عـلـىـ أـسـنـانـهـ، وـيـدـفـعـ بـكـتـفـيهـ.. حـتـىـ بـدـأـ الـبـابـ يـرـتـفـعـ قـلـيـلاـ، وـانـدـفـعـ الـهـوـاءـ
إـلـىـ صـدـرـهـ:

- هـيـاـ يـاـ خـالـدـ ..

حتى ارتفع الباب بأكمله، وقف خالد إلى خارجه، وسقط بجواره وصدره يعلو
وينخفض مسرعاً.. وصاحت:

- أنا رجعت..

وأمسك برأسه وكأنه لا يصدق نفسه.. يجلس بجوار الباب الفولاذي، وينظر إليه
ويتحسس وجهه كأنه يتيقن أنه ليس نائماً.. ثم ينظر إلى ملابسه الزيكولية،
ويتحسس رأسه ليجده حليقاً فأدرك أنها حقيقة.. ثم أغلق باب النفق من جديد،
وأسرع إلى الخارج فوجد الظلام يسود السماء ثم عبر السور العالى الذي يحيط
باليتيم المهجور، وما إن عبره حتى سمع أذان الفجر يهزّ كافة أرجاء بلدته.. المهو
فريك.. فابتسم، وبدأ يكرر الأذان كلما سمع كلماته، وأسرع بين شوارعها الخالية،
وكلما رأى أحد الأشخاص يمر.. حاول أن يختبئ حتى لا يراه بهذا الزي.. حتى اقترب
من بيته، وما إن وصل إليه، ودق الباب بقوة حتى وجده مفتوحاً قليلاً فأدرك أن
جده قد فتحه كعادته مع حلول الفجر ثم دلف إليه فوجد جده يصلي الفجر
جالساً، ويعلو صوته بآيات من القرآن فجلس خلفه في انتظاره، وتساقطت دموعه
حين سمع دعاءه بأن يعود إليه سلماً حتى انتهى والتفت فوجد خالداً خلفه
فتسراعت أنفاسه وكأنه لا يصدق نفسه، واحتضنه بقوة ودمعت عيناه، أما خالد
فبكى كثيراً حين احتضنه، وكأنه لا يصدق نفسه هو الآخر، وظل ياحتضنه ويمسح
رأسه بكتفه، ويبتسم بينما يرتشف دموعه:

- كنت بقولك هرجع لك يا عبده.. قلت لك إني هرجع..

ثم سقط، وكأنه قد فقد وعيه..

* * *

ظلَّ خالد نائماً، وبدا عليه أنه لم ينم لأيام طويلة، وبجواره جده.. يجلس لينظر إليه، وقد بدَّل له ملابسه، ولم يرد أن يفتح كتابه الذي أحضره معه إلا بعدما يخبره بما حدث له أولاً، ومرَّ يومٌ كامل دون أن يستيقظ، حتى نهض فوجد جده بجواره، ومعه صديقه العجوز - مجنون السرداَب - الذي كان أول من يخبره عن حقيقة سرداَب فوريك، وما إن رأه قد فتح عينيه حتى صاح:

- خالد صحي.

فابتسم خالد وقال:

- لابد أنكم قد أصابكم القلق..

فاندھش الرجل مما سمعه فضحك خالد :

- عارف إن لهجتى أوقات بتتغير.. بس قريب أوي هستعيد لهجة المهو فريك..

فقطاعطه جده:

- يلا يا خالد.. احِك لنا اللي حصل لك ..

ثم تدخل الرجل :

- انت نزلت السرداَب فعلًا؟

فابتسم خالد وسألها ما :

- من أين تريдан أن أبدأ قصة؟

ثم بدأ يحكى عما حدث له منذ نزوله ذلك النفق أسفل البيت المهجور بالقرية، وما حدث له به، ونزوله إلى سرداَب فوريك الحقيقي، وتلك الصورة به، وما به من هيكل عظمية ثم خروجه إلى أرض زيكولا، وظل يحكى لهما، وهما يستمعان إلى كل كلمة يقولها.. يحدثهما عن قوة تلك المدينة، وعن أهلها وعن طقسها الذي يبدو ثابتاً مع تغير فصول العام.. وعن عمله هناك، وعن يوم زيكولا، وعن يامن وأسيل، وعن رحلته خلف هذا الكتاب الذي يوجد بين أيديهم، ولكنَّه أثر ألا يخبر جده بأن

أباه قد قُتِلَ كي يرثه ابنه.. بل إنه لم يذكر سيرة أبيه أو أخيه على الإطلاق، وأثر أن يحتفظ بهذا السر خشية أن يسبب مزيداً من الحزن لجده، وظلَّ يحكى ويحكي، وتمر الدقائق وتتبعها الساعات، ولم يتركاه دون أن يسألاه عن تفاصيل كل جملة يقولها.. حتى انتهى فنظر إلى جده وصاحبه وقال:

- أريد أن يظل حديثنا هذا سراً بيننا..

فأندهش صديق جده :

- وليه منقولش للناس كلها.. انت بطل..

فأجابه خالد:

- لن يصدقك أحد.. لن يقولوا بطلًا.. سيقولون مجنونًا..

ففأطاطعه الرجل:

- الكتاب أحسن دليل ..

فابتسم خالد:

- سيقولون إنك أحضرت الكتاب من مكان آخر.. أريد فقط أن يظل هذا السر بيننا.. أريد كما أن تدعاني بذلك..

فابتسم جده:

- حاضر ..

وابتسم الرجل:

- وأنا كمان بوعدك ..

ثم ضحك جده :

- أكيد مني هتفتح لما تعرف إنك رجعت.. دي على طول كانت بتسأل عليك، وعمرها ما سابتني لوحدي..

فـسـأـلـهـ خـالـدـ:

- هـىـ مـتـجـوزـتـشـ ؟ـ !ـ

فـابـتـسـمـ جـدـهـ :ـ لـاـ

ثـمـ أـكـمـلـ :

- مـنـيـ بـتـدـيـ لـأـبـهـاـ دـرـوـسـ مـنـ جـدـيدـ..ـ زـيـ الـيـ بـتـرـدـ لـهـ كـلـ الـيـ عـمـلـهـ فـيـكـ..ـ كـلـ ماـ يـتـقـدـمـ لـهـاـ عـرـيـسـ تـرـفـضـ..ـ وـتـبـوـطـ الـجـواـزـ لـأـيـ سـبـبـ..ـ وـحـلـفـتـ قـدـامـ النـاسـ إـنـهـاـ مشـ هـتـجـوزـ ..ـ

فـابـتـسـمـ خـالـدـ:

- أـكـيدـ طـالـعـةـ مـجـنـونـةـ لـأـبـهـاـ..ـ

فـابـتـسـمـ جـدـهـ :

- هـىـ مـشـ هـتـجـوزـ إـلـاـ اـنـتـ يـاـ خـالـدـ..ـ

فـابـتـسـمـ خـالـدـ:

- لـكـنـيـ لـأـرـيدـ الزـوـاجـ الـآنـ ..ـ

حـتـىـ فـوـجـئـواـ بـمـنـيـ تـدـخـلـ إـلـيـهـمـ فـجـأـةـ،ـ وـنـظـرـتـ إـلـىـ خـالـدـ فـيـ سـعـادـةـ:

- خـالـدـ..ـ أـنـاـ عـرـفـتـ إـنـكـ رـجـعـتـ..ـ

فـابـتـسـمـ خـالـدـ:

- نـعـمـ ..ـ

فـأـكـمـلـتـ:

- أـنـاـ مـبـسـوـطـةـ أـوـيـ إـنـكـ رـجـعـتـ..ـ

فـابـتـسـمـ :

- شكرًا مني.. أشكرك إنك كنتي بجوار جدي تلك الفترة ..

فضحكـت منـي:

- انت بتتكلم كدة ليه؟ .. هو السفر أثر على كلامك ولا إيه؟

فـضـحـكـ خـالـدـ:

- نـعـمـ ..

ثم نـهـضـ جـدهـ، وـصـاحـبـهـ، وـتـرـكـاهـماـ فـابـتـسـمتـ منـيـ:

- أنا حـلـفتـ لـأـبـوـياـ إـنـيـ مـشـ هـتـجـوزـ إـلاـ اـنـتـ.. إـنـ مـتـجـوزـتـكـشـ مـشـ هـتـجـوزـ طـولـ
عـمـرـيـ وـالـيـ يـعـمـلـهـ يـعـمـلـهـ ..

فـصـمـتـ خـالـدـ دونـ أـنـ يـرـدـ فـاتـبعـتـ :

- خـالـدـ.. أـنـاـ مـشـ شـايـفـاكـ فـرـحـانـ بـكـلـامـيـ لـيـهـ.. اـنـتـ حـبـيـتـ حـدـ تـانـيـ وـاـنـتـ مـسـافـرـ؟ـ

فـابـتـسـمـ خـالـدـ:

- مـفـ.. أـنـاـ رـجـعـتـ مـنـ السـفـرـ زـيـ مـاـ أـنـاـ.. اـعـتـبـرـيـ فـيـ هـبـدـأـ مـنـ جـدـيدـ ..

فـابـتـسـمـتـ :

- خـلاـصـ.. وـأـنـاـ موـافـقـةـ نـبـدـأـ سـواـ..

فـنـظـرـ إـلـيـهاـ خـالـدـ فيـ هـدـوـءـ:

- أـرجـوـكـ يـاـ مـنـيـ.. مـحـتـاجـ شـوـيـةـ وقتـ عـشـانـ أـرـتـبـ أـمـورـيـ..

فـظـهـرـ الحـزـنـ عـلـىـ وـجـهـهـاـ وـهـمـتـ لـلـمـغـادـرـةـ:

- حـاضـرـ يـاـ خـالـدـ.. ثـمـ غـادـرـتـ ..

* * *

كان خالد يعلم أن مني تحبه، ولكنه أراد ألا يتسرّع في حديثه معها، وأراد أن يتحقق من مشاعره تجاهها، وخاصة أنه لم يفق بعد مما حدث له بزيكولا وبُعده عن أسيل، وعزم على أن يجد عملاً يحقق له ذاته، وظلَّ يبحث عن عمل ملائم لدراسته، وذهب إلى أماكن كثيرة.. يبحث عن عمله دون أن يصيّبه تعب أو ملل، ويبتسم حين تضيق الدنيا أمامه، ويحدث نفسه دائمًا: لابد وأن هناك أملاً.. ماذا بعد نجاتي من الموت قبل لحظات.. يبحث هرّاً ويعود إلى شرفة بيته ليلاً ليتأمل سماء بذاته بحثاً عن ذلك التجم.. أسيل.. حتى يغلب النعاس فيظل دائمًا للتشرق شمس اليوم الذي يليه.. واستمر في بحثه عن عمل لمدة أيام وأيام، وامتدت لأسابيع.. حتى وجد عملاً بা�حدى فروع شركة كبرى بمدينة المنصورة، ومررت شهور، وهو يعمل ويشعر بذاته في ذلك العمل، وكلما واجهته مشكلة قابلها بابتسامه يحسده عليها زملاؤه.. وتزداد بسمته حين يعود إلى بيته فيجد جده يقرأ بكتاب سرداد فوريك الذي لم يتركه إلا لحظات قليلة منذ عودته، ويطلب منه أن يخبره بالمزيد مما حدث له بزيكولا.. فيحكي له الكثير والكثير.. ويسأله بعد انتهاءه ألا يخبر أحداً بذلك.. حتى جاء في يوم، وعاد إلى جده مبتسمًا:

- يلا يا عبد.. أنت مش عايز حفيدك يتجوّز؟

فنظر إليه جده فتابع خالد:

- إحنا هنروح للمرة الأخيرة نخطب مني.. والله أبوها وافق هتجوزها.. ولو موافقش.. هتجوزها برضه..

فابتسم جده، واتجه معه إلى بيت والد مني، واندھش خالد حين وجده قد تغيّر تمام التغيير، وقابلهما بكل حفاوة وتقدير، وما إن تحدّث جد خالد بأنه يريد أن يطلب يد مني لخالد حتى نطق والدها بترحيب:

- يلا نقرأ الفاتحة..

فابتسم خالد، وابتسمت منى التي كانت تقف أمام باب الحجرة، وعلت الزغاريد بيتها، ونهض خالد ليحتضن والدها ثم احتضن جده، وحددوا موعداً قريباً لإقامة عرسهما..

* * *

مررت أيام كثيرة، ومررت أسابيع وتبعتها بضع شهور، وخالد يعمل بقوه كي يستعد ليوم عرسه.. حتى جاء ذلك اليوم، الرابع عشر من سبتمبر، وعلقت الأنوار أمام بيته، واجتمع الكثير من الأهالي لهنئوه ويهنئوا جده بهذا العرس، وحل الليل، وبدأ حفل الرفاف، وكان حفلاً رائعاً تراقص به من يعرفون خالد ومني ومن لا يعرفانهما، وخالد ينظر إلى الجميع، وتنشأبك ذراعه بذراع مني التي ظلت تهمس إليه طوال الاحتفال دون أن يسمع أي شيء، ولكنه كان يهز رأسه مبتسمًا دون أن يدرك عما تتحدث.. حتى انتهى الاحتفال، ودلها إلى شققهما، وامتلأ وجه مني بالخجل بعدما دلها إلى حجرة نومهما فضحك خالد ثم ضحكت مني، ونظرت إليه وقالت :

- خالد.. باین إننا هنبتدي المشاكل من دلوقتي.. خالد.. الشقة حر أويء.. أنا عايزه تكييف ..

فضحك ولم ينطق ثم اتجه نحو شرفة الغرفة، وفتحها كي يندفع الهواء إليها حتى نظر إلى السماء فدق قلبه بقوه حين وجد ذلك النجم اللامع وحيداً مميزاً بها، وهمس إلى نفسه في ذهول:

- أسيـل !!

فأكملت منى، وهي تجلس بفستان زفافها على سرير الغرفة:

- خالد.. أنا نفسي نقضّي شهر العسل في أي مكان..

فابتسم بعدها سمع كلماتها ثم نظر إلى النجم مجددًا، وأطال نظره تلك المرة كثيراً وكأنه يفكـر.. ثم نظر إليها :

- أنا كمان كنت بفكر إننا نقضى شهر العسل في مكان مختلف تماماً ..
- ثم أكمل مبتسماً :
- إيه رأيك في مكان التعامل فيه مش بالفلوس؟
- فاندهشت مني، وسألته:
- أومال بيإيه؟ !
- فضحك ثم اقترب منها، وهمس إليها :
- هتعرفي لما نروح هناك..

تمت بحمد الله

* * *



شُكْرٌ خاصٌ

أودّ أن أقدّم بالغ شكري إلى (جروب) عصير الكتب ومشرفيه وأعضائه ولاسيما عضويه: "أدهم ميلانو، ووسام كرم" الذين لعبا دوراً لن أنساه لانتشار هذا العمل..

المؤلف

إصدارات أخرى للدار:

الروحاني: أحمد الملواني

مش من هنا: نوره واصف

رحلة ١٠٠ عبيط: عمر عباس

كيفار: منى سلامة

إيماجو: دعاء عبد الرحمن

اكتشفت زوجي في الأتوبيس: دعاء عبد الرحمن

هل جئت أن تتعامل بعملة مختلفة عن
العملات الورقية .. ليست معدنية وليس
ذهبية... الثروة هنا من نوع آخر ... لن تدفع مالاً
لتأخذ .. بل ستدفع من ذكائك .. ستدفع من
وحدات عقلك... ولكن انتبه فللثروة حدود ...
فهنا المفلس لا يعامل باحتقار أو يهان كما
يحدث في عالمك .. بل يتعرض للموت ..
احذر .. فأنت .. في أرض زيكولا

عصير
الكتب

كتاب - دراسة - ندوة